جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم: التاريخ

الرقم التسلسلي:
رقم التسجيل: M.HM/03/13

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في: التاريخ

تخصص: تاريخ وسيط

العنوان

مجتمع المغرب الأوسط المتغيرات والعلائق من القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة الموحدين (668هـ/1269م) القرن العاشر والثالث عشر ميلادي

إعداد الطالب:
بن عريب مصطفى

تاريخ المناقشة: 2017/01/31

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
د. عبد السلام همال	أستاذ محاضر -أ-	جامعة محمد بوضياف -المسيلة-	رئيسا
د. الطاهر بونابي	أستاذ محاضر -أ-	جامعة محمد بوضياف -المسيلة-	مشرفا ومقررا
د. عبد القادر ربوح	أستاذ محاضر -أ-	جامعة زيان عاشور -الجلفة-	ممتحنا

السنة الجامعية: 2016-20117م

شكر وتقدير

تم بعون الله وبحمده، جل جلاله سبحانه وتعالى،

نحمده ونشكره على فضله ومنّه بأن مكنني من إعداد وإنهاء هذا العمل المتواضع

وأسأل الله التوفيق في الدنيا والآخرة. وبعد:

بالمناسبة أتقدم بخالص شكري وعظيم امتناني إلى أستاذي الفاضل والقدير

الدكتور الطاهــــر بونــــــابي

الذي منحني النصح والتوجيه وأرشدني إلى طرق البحث والتنقيب

ورافقني طوال حيثيات الموضوع فله جزيل الشكر والتقدير.

كما أتقدم بشكري الخالص إلى كل من ساعدني في اعداد البحث وأخص بالذكر

الأستاذ لخضــــــر بولطيــــــف

والذي أفادني بنصائحه النيرة، إضافة الى منحه لي عدة مقالات استأنست بها في بعض عناصر البحث.

كما أشكر كل أفراد أسرتي أذكر منهم أخي العزيز

بن عريـــــب عزالديـــــن،

كما أخص بالذكر أصدقائي (بن عريب فؤاد، ثابتي فوزي، سليم هداج، عويشات عبد السلام)

كما أتقدم بإهداء هذا الجهد الفكري البسيط إلى روح أخي المرحوم

أحمــــــد بن عريـــــب

وأدعوا الله سبحانه وتعالى أن يجعل قبره روضة من رياض الجنة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قائمة المختصرات:

هـ:	هجري.
م:	ميلادي.
د م:	دون مكان.
د ت:	دون تاريخ.
تح:	تحقيق.
ط:	طبعة.
ج:	جزء.
ت:	توفي.
ص:	صفحة.
ق:	القرن.
P	صفحة

المقـــــدمـــة

أ- أهمية الموضوع وإشكاليته:

يعتبر البحث في الأثر الاجتماعي الناجم عن الوقائع العسكرية والأحداث السياسية أو الهجرات البشرية والتقلبات الاقتصادية التي حصلت في المغرب الأوسط من ظهور نواة وطن زناتة المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة / الثامن ميلادي إلى تمام نهاية عهد الموحدين (668هـ-1269م)، من قضايا التاريخ الاجتماعي – السوسيو تاريخي – الذي تتدرج حيثياته وملابساته ضمن الرواية والقصص ومعاينة الحضور من الرحالة والجغرافيين وطالما أن هذا النوع من التاريخ –التاريخ الاجتماعي – قد ارتبط بتاريخ قبيلة المغرب الأوسط من حيث توطينها وهجرتها ونشاطها العسكري وتطلعها السياسي نحو تأسيس الدولة أو في علاقاتها بمراكز الخلافة الإسلامية: دمشق، بغداد، قرطبة، وارتباطها المذهبي وإنجازها الثقافي والحضاري فإن ذلك شكل المسلك والمسار الطبيعي في ضبط مجمل المتغيرات والتحولات وكافة أشكال العلاقات والمثاقفة التي جمعتها بالوافد المستقر من عرب الفتح والعرب الهلالية والأندلسيين والأفارقة.

ذلك لأن تتبع هذا التاريخ الاجتماعي بين جنبات أسوار المدن من قبل بعض الباحثين والدارسين[1] قد أدى إلى غمط النصيب الأوفر من هذا التاريخ ذلك لأن تاريخ مدينة المغرب الأوسط لا يبدأ في الظهور ضمن الرواية والخبر والمعاينة سوى في نهاية القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي ما يشكل أساسا فقداننا لأكثر من ثلاثة قرون من التاريخ الاجتماعي للمغرب

---

(1) من أهم هذه الدراسات:

أحمد السليماني: تاريخ مدينة الجزائر – يتعرض إلى ماضي مدينة الجزائر من النواحي الحضارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت).

محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر–، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.

رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/ 1977م.

الأوسط، كما أن ذلك يختص فقط بتاريخ مجتمع المدينة وقاصرا على مجتمع الحضر في طور من أطوار التطلع السياسي أو الازدهار الاقتصادي.

ورغم أن المؤرخين والسوسيولوجيين الفرنسيين قد طرقوا بالدراسة موضوعات التاريخ الاجتماعي متوخين مسار القبيلة في تتبع الظواهر الاجتماعية [1] إلا أن معالجتهم طغي عليها ثنائية البدو والحضر أو العرب والبربر في سياق تحقيق إيديولوجية المخطط الاستعماري الفرنسي في التفريق بين العرب والبربر.

الأمر الذي أحدث اختلالات في منطق الثنائيات ومن جعل مسألة التحولات والعلاقات وكل أشكال المثاقفة والتقارب بين البربر والعرب في الكتابات الفرنسية مسألة إيديولوجية محضة ومن هذه الطروحات يظهر أن البحث لا يزال بحاجة إلى دارسة معمقة تفرضه دوافع أكاديمية وجيهة هي كالتالي:

أولا: بعد المقاربة المنهجية لأشكال التناول والطروحات في الموضوع عند الباحثين الفرنسيين والجزائريين على حد سواء تبين لي أن المنهج الذي اقترحه عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) في دراسة مجتمع بلاد المغرب الإسلامي يستند إجمالا على تتبع مسالك هذا التاريخ في إطار مكونات القبيلة وأشكال توطينها اعتمادا على دلالات الكلمات المؤسسة لنص التاريخ الاجتماعي ضمن تاريخ القبيلة وتاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

---

(1) تنبه كبار الباحثين الأجانب أن تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط ما هو إلا تاريخ القبيلة ومن النماذج:

شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس – الجزائر – المغرب) من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط3، ج1، الدار التونسية، تونس، الجزائر، 1978م.

Ernest Mercier : les Arabes d’Afrique juges par les auteurs musulmans, revue Africaine, vol17/,1873.

G, Rozet, E, Carette : L’Algérie– l’univers à l’histoire et description de tous les peuples, leurs religions moeres, etc. paris, éd firmin didot, 1850.

E, Carette : origine et migrations des principales tribus de l’Algérie, Paris, imprimerie impériale.

ثانيا: أردت بهذا البحث أن أنفذ خارج الطرح التقليدي المؤسس على قاعدة مجتمع البتر والبرانس أو القائم على تصنيف الزي والأنشطة نحو تصور دقيق وواسع يكفل الوقوف على أشكال التوطين البربري الذي يعد بمثابة المسح لمكونات مجتمع المغرب الأوسط.

ثالثا: أن موضوع البحث مرتبط بالتقلبات السياسية والمذهبية والصراع العسكري الذي عرفه المغرب الأوسط من القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي إلى تمام نهاية دولة الموحدين (668هـ/1269م) وامتدادات هذه التقلبات بمراكز الخلافة بالقاهرة الفاطمية الشيعية وبغداد والأندلس السنية والتي شكلت قراراتها وسياساتها الأثر الكبير في هذه التقلبات خصوصا فيما تعلق بالانقلاب الذي أحدثته الحركة الاسماعيلية الشيعية أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي والحضور الهلالي أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي.

رابعا: قصدت بهذا البحث قلب الصورة النمطية حول الحضور الهلالي إلى المغرب الأوسط أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي ذلك لأن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع ركزت على التاريخ العسكري للظاهرة[1] وأهملت الرصيد الهلالي الثقافي والحضاري والديني وأثره في نسج العلائق والتأثير الثقافي والحضاري إذ تعد هذه المسألة من القضايا التي ضرب عنها المؤرخون والباحثون الصفح شأنهم في ذلك شأن مؤرخ العصر الوسيط.

خامسا: يقتضي البحث تتبع أثر هذه التقلبات وأشكال الصراع ومتغيراته في النسيج الاجتماعي وهي مسألة متعلقة أساسا بافتكاك التاريخ الاجتماعي من التاريخ السياسي والعسكري والمذهبي.

---

[1] من هذه الدراسات:

إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1416هـ/1996م.

سجيني فايزة محمد صالح الأمين: غزو بني هلال وسليم للمغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2007م.

سادسا: قصدت من البحث أيضا تتبع مجمل المتغيرات والعلائق التي سادت المغرب الأوسط من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي إلى سقوط الدولة الموحدية(668هـ/1269م) وذلك بتحديد أشكال وبنيات مجتمع المغرب الأوسط ضمن المدن والأمصار والضواحي والديار والمجالات وكذلك رصد ميلاد مجتمع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن الثاني الهجري / الثامن ميلادي ومدى الارتباط بين ميلاد الوطن وتكوين مجتمعه وتتبع نشأته وتطوره ضمن أنساق من المتغيرات والعلائق فرضها وضع الصراع السياسي والعسكري والمذهبي للدول والقبائل وهجرات الوافدين ومجمل المتغيرات الاقتصادية وتجليات كل ذلك في رسم الهوية السياسية والدينية واللغوية بصفة عامة لمجتمع المغرب الأوسط.

سابعا: أن ميلاد مجتمع المغرب الأوسط قبل نهاية النصف الأول من القرن الثاني هجري / الثامن ميلادي قد حدث ضمن ما عرف بزناتة أهل المغرب الأوسط ثم إن هذا المفهوم يتسع أكثر ضمن تجربة الدولة المركزية الحمادية الصنهاجية حيث ساد التفاعل والعلاقات مع الحضور الهلالي في صورته الثقافية والحضارية والدينية عكس الطابع العسكري المعتاد رسمه مرورا على التجربة الموحدية الرسمية ومساهمتها في صبغ مجتمع المغرب الأوسط بطابع مشروع الخلافة المغربية.

ثامنا: ارتبط البحث بتتبع الرواية التاريخية والتي فرضت المنهج المتبع خلال مفاصل البحث وعناصره والقائم على قراءة النصوص ومقارنتها ببعضها البعض والعمل على استقرائها لكن وجود الدراسات الأنثروبولوجية والطوبونوميات في المستقبل ربما يعطي للبحث أفق جديد ونتائج أكثر واقعية.

تاسعا: دفعني إلى اختيار التاريخ الاجتماعي كموضوع للدراسة الأهمية البالغة التي يكتسيها التاريخ الاجتماعي في فهم وتعليل الظواهر الاقتصادية والفكرية والثقافية والعسكرية والحضارية والتنبؤ بتفاعل المجتمع في محيطه وزمانه ضمن معطيات معينة.

عاشرا: أردت بهذا البحث أن أساهم بإضافة تكون مرضية في التاريخ الاجتماعي والديني للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط تبعث إلى المزيد من الحفر في بنى مجتمع المغرب الأوسط.

الإشكالية:

ووفق ما يفرضه مجال البحث في مستويات الإشكال والمعالجة يظل الاهتمام منصبا نحو الكشف عن أشكال التوطين القبلي البربري بالمغرب الأوسط من الفتح إلى نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع ميلادي والتساؤل حول ملامح ميلاد مجتمع المغرب الأوسط ضمن ما يعرف بوطن زناتة؟ والبحث في أسباب ومظاهر الانهيار القبلي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي؟ والآثار المترتبة على مجتمع المغرب الأوسط؟

وإلى أي مدى نجحت الدولة المركزية الحمادية في تغيير ملامح التوطين القبلي نحو مجتمع المدينة؟ وكذلك ما محل الثقافة الهلالية الوافدة على المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا؟

وهل أن التجربة الموحدية تعد النموذج الناجح في مستوى إعادة تأهيل القبائل الهلالية وإدماجها في مجتمع المغرب الأوسط؟

ب-المنهج:

نظرا لتموقع إشارات التاريخ الاجتماعي الخاص بالمغرب الأوسط ضمن نص رواية السرد التاريخي فإن استقراء النصوص أضحى العمدة في تقصي مظاهر المتغيرات وأشكال العلائق التي سادت مجتمع المغرب الأوسط من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي إلى نهاية دولة الموحدين (668هـ/1269م).

ثم إن حمولة نص رواية العصر الوسيط المغربي وخصوصا نص النخبة العالمة قد جعل دلالة الكلمات في أصلها اللغوي والاصطلاحي تفيض بالمعاني الدالة على الصور الاجتماعية المعلنة والمضمرة الأمر الذي جعل السياق المنهجي للبحث أخذ منحى التاريخ واللسانيات كما أن منحى نص العصر الوسيط المغربي يكرس منظور المؤرخ الصنهاجي أو الزناتي ما يجعل

الرواية التاريخية حول الوافد – العرب الهلالية – أو – الوافد الأندلسي – رواية يشوبها الانحياز إلى العنصر. مما فرض سلوك منهج التحري والنقد والمقاربة أضف إلى ذلك ضرورات الاستنباط والتحليل في تقصي الأثر الاجتماعي من الوقائع والأحداث.

ج-الصعوبات:

واجهت عدة صعوبات خلال انجاز البحث منها:

صعوبة التعامل مع المادة الخبرية وتصنيفها وذلك لكثرتها وتشعبها في بعض عناصر البحث لاسيما فيما يتعلق بالأحداث السياسية والصراعات العسكرية في حين تقل وتندر كلما تعلق الأمر برصد الثقافة الهلالية الوافدة ومظاهر الاندماج البربري الهلالي في كتب المصادر الوسيطية وكذا في الدراسات والأبحاث.

ومن الصعوبات أيضا تحديد التوزيع القبلي سواء المجتمع البربري أو فيما بعد المجتمع العربي الهلالي وذلك في ظل انتشار القبيلة الواحدة في مختلف أنحاء المغرب وجهاته إضافة إلى حركة القبائل وتغييرها لمواطنها وفق املاءات الأوضاع السياسية والعسكرية ولدواعي اقتصادية وبذلك لم أستطع رسم صورة حقيقية للتوزع القبلي بالمغرب الأوسط.

د-عرض الموضوع:

ولقد أملت الدواعي المنهجية والمادة العلمية التي تمكنت من جمعها أن أهيكل موضوع الدراسة في أربعة فصول تتصدرها المقدمة وخاتمة أدرجت فيها نتائج البحث وملاحق توضيحية فضلا عن الفهارس.

فعالجت في الفصل الأول: مجتمع المغرب الأوسط (البنيات وأشكال التوطين) خلال القرون الهجرية الأولى 1-3هـ /7-9م التصنيف التقليدي للبربر ثم التصنيف الخلدوني وعلى ضوئه تناولت بربر المدن والأمصار وبربر الضواحي وبربر الديار والأرياف وبربر المجالات ثم ملامح ميلاد مجتمع المغرب الأوسط خلال النصف الأول من القرن 2هـ /8م ضمن المغرب الأوسط وطن زناتة من خلال تناول القبيلة والأبعاد والنشاط واللسان.

ثم أثر الفتح وحروب الخوارج في بنيات وأشكال التوطين من خلال حقيقة الحراك القبلي أثناء الفتح ثم واقع التوطين في ظل ثورات البربر وحروب الخوارج.

في حين تناولت في الفصل الثاني مجتمع المغرب الأوسط خلال القرن 4هـ /10م (التحولات) الانهيار القبلي بالمغرب الأوسط في عهد الدولة الفاطمية وأثره على مجتمع المغرب الأوسط ثم تناولت مجتمع الدولة الحمادية من خلال رصد التحولات الاجتماعية والدينية واللغوية والعلمية والسيمات الاقتصادية لمجتمع الدولة الحمادية.

أما الفصل الثالث المعنون بالحضور الهلالي بالمغرب الأوسط (المتغيرات والعلائق) فلقد خصصته لدخول العرب الهلالية إلى المغرب الأوسط وانتشارهم وتوزعهم بأنحائه وجهاته ثم عملت على رصد الثقافة الهلالية الوافدة معهم لأصل في الأخير إلى مظاهر العلاقات والاندماج البربري الهلالي بالمغرب الأوسط في مختلف أبعاده الحضارية والاجتماعية.

وتناولت في الفصل الرابع الموسوم بإعادة رسم الهوية الدينية واللغوية لمجتمع المغرب الأوسط عهد الموحدين تحديد مظاهر السياسة الموحدية على المستوى الجغرافي والسياسي ثم اللغوي والديني وعرجت على تجربة الموحدين في مشروع تأطير العرب الهلالية سواء من خلال الادماج والاستقرار أو من خلال تهجير العرب الهلالية نحو الغرب.

هـ-نقد وتحليل المصادر والمراجع:

اعتمدت في إنجاز البحث على جملة من المصادر العربية المطبوعة إضافة إلى بعض المراجع الحديثة العربية أو المترجمة أو في لغتها الأصلية، ناهيك عن الدراسات غير المنشورة وبحوث نشرت في المجلات والدوريات والملتقيات العلمية، وسوف أقتصر هنا على عرض أهم مصادر البحث ومراجعه.

1-المصادر:

أ-المصادر التاريخية المغربية:

-الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت 425هـ/1034م) في كتابه تاريخ افريقية والمغرب وهو كتاب في عدة مجلدات ضاع جله ولم يصلنا منه إلا القطعة التي نشرت تحت العنوان نفسه ويعد مؤلف الرقيق مصدر أساسي لمؤرخي العصر الوسيط فهو مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان على حد قول عبد الرحمن ابن خلدون[1]ولقد تناول الكتاب الأحداث الممتدة من حملة الفاتح عقبة ابن نافع إلى دولة الأغالبة أواخر القرن 2هـ/8م حيث استقيت منه معارك الفتح الإسلامي ثم مجريات الصراع الذي تم في خضم حروب الخوارج أيضا.

-ابن حماد، أبو عبد الله الصنهاجي(ت626هـ/1230م) في كتابه أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم والذي يتوفر على معلومات قيمة فيما يخص تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب فكان مفيدا جدا للبحث في تحديد معالم سياسة الفاطميين بالمغرب وأثرها على النسيج القبلي لاسيما من خلال تقديمه لمعلومات دسمة تتعلق بأحداث ثورة أبي يزيد ومراحلها ونتائجها.

-المراكشي، محي الدين عبد الواحد (ت في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م) في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب ورغم ميل صاحبه للاختصار في الكثير من الأحداث إلا أنه يحتوي على إشارات ذات أهمية بالغة لا سيما في تحديد المعالم الجغرافية للدولة الحمادية وفي سياسة بني حماد مع القبائل الهلالية لكن كانت فائدته أكبر في الفصل الخاص بالموحدين حيث يتوفر على معلومات قيمة فيما يخص التحول المذهبي الذي فرضه خلفاء دولة الموحدين وهي المعلومات التي لا نجدها بنفس التفاصيل في مصادر أخرى.

-ابن عذارى، أبو عبد الله المراكشي(كان حيا712هـ/1312م) في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب والذي يعد من أهم مصادر التاريخ المغاربي خلال العصر الوسيط وذلك لاشتماله على معلومات هامة من الفتح إلى غاية الدولة الموحدية ورغم تركيزه على الحروب والمغازي وأخبار الملوك والدول فإنه يتوفر على إشارات هامة في جزئه الأول حول نسب القبائل البربرية ومواطنها ومذاهبها وعلاقاتها بالدول وأدوارها في مختلف الصراعات

---

(1) مقدمة ابن خلدون، دراسة أحمد الزغبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص37.

السياسية والعسكرية والمذهبية، فكان مصدرا هاما للبحث في أغلب عناصره واستقيت من الجزأين الثاني والثالث القبائل البربرية التي هاجرت إلى الأندلس انطلاقا من المغرب الأوسط موضحا الأسباب التي دفعتها لذلك، في حين استقيت من الجزء الرابع الذي خصه لأخبار دولة الموحدين معلومات عن دخول المغرب الأوسط في حكمهم.

-ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن(ت 808هـ/1405م) في كتابه العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر والذي أعتبره المصدر الرئيسي والأساسي في كل ثنايا البحث، ذلك أنه أهم مصدر خدم موضوع البحث حيث تناول تاريخ المدينة والدولة والمجتمع ضمن تاريخ العصبية القبيلة قبل الفتح الإسلامي وبعده محددا مواطنها وأنسابها وفروعها وأنماط نشاطاتها وتطورها السياسي على محور الانتقال من البداوة إلى الحضارة وأحداثها العسكرية واتجاهاتها المذهبية بل يتوفر على معلومات قيمة تخص البعد الحضاري للقبيلة البربرية وبعض عاداتها وتقاليدها وحتى طبائع البربر وسيماتهم في عرض تاريخي ومنهجي دقيق[1] فلم يكن ابن خلدون مؤرخا كغيره من المؤرخين بل إنه كان مفكرا قبل أن يكون مؤرخا كما كان رجلا من رجال السياسة ومن ثمة تناول الظواهر الاجتماعية وغيرها بمنظور تاريخي مختلف عما كان قبله حيث انصب اهتمامه بدراسة الظواهر وربطها بالسياق التاريخي وتحليلها بالصورة التي تساعد على كشف طبيعتها لا بمجرد وصفها [2] ومن هنا كان عبد الرحمن ابن خلدون المنطلق الذي حاولت من خلاله رسم بنيات وأشكال التوطين القبلي وذلك بتحديد معاني كلماته ومصطلحاته والخروج من التصنيف التقليدي للبربر.

---

[1] الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م، ص 200.

[2] أبو بكر عواطي: الجسر المنهجي بين علم الاجتماع والتاريخ عند ابن خلدون، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع6/أكتوبر2005م، قسنطينة، ص114-116.

ومن أهم الملاحظات التي سجلتها خلال تعاملي مع كتاب العبر هو تناول عبد الرحمن للظاهرة التاريخية في عدة أطوار فنجده يصف لنا مثلا قوة العصبية القبلية ثم يتعرض لمختلف الأحداث السياسية والعسكرية والمذهبية والاقتصادية التي عاشتها ليخلص في الأخير إلى أثر هذا في ضعضعة قوتها وإضعاف عصبيتها، وهذا الأمر أرى أنه يتطلب من الباحث التحلي بالصبر خلال التعامل مع كتابات ابن خلدون وتتبع أطوار الظاهرة التاريخية في أنساقها التاريخية لتجنب إصدار أحكام جزئية قد تشوه النتائج وتجعلها عرجاء. ومما يجب التنبيه إليه أيضا أن ديوان العبر من بين المصادر القليلة التي تناولت المثاقفة الهلالية الوافدة وأثر العلاقات البربرية والعربية على مستوى اللسان والتصاهر واللباس والعادات وغيرها.

أما المقدمة فكانت بمثابة الشارح والمفسر للكثير من الظواهر الاجتماعية حيث ضمنها ابن خلدون أهم أفكاره وخلاصة علمه وخبرته كما سجل فيها ملاحظاته الدقيقة حول التطور السياسي للقبيلة ومراحل الانتقال من البداوة إلى الحضارة ومختلف أحوال المجتمع الإنساني، بل تحتوي المقدمة على مادة خبرية دسمة في مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والمذهبية والسياسية والفكرية والعلمية وذلك لاستشهاد ابن خلدون بالقبائل والدول في تحليله لمختلف الظواهر حيث كانت الدول والقبائل البربرية من أهم الشواهد التي قدمها ابن خلدون.

ب-المصادر التاريخية المشرقية:

-ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط(ت240هـ/854م) في كتابه تاريخ خليفة بن خياط والذي يتوفر على معلومات هامة في فتح المغرب وضبط تواريخها إضافة إلى إشاراته وإن قلت لموقف القبائل البربرية من الفتح وتفاعلها مع أحداثه.

-ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/871م) في كتابه فتوح مصر والمغرب وهو الآخر كتاب يتوفر على معلومات هامة حول مجريات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

وأخبار ولاة بني أمية وأهم الوقائع العسكرية وأثرها على بعض العصبيات البربرية خلال مواجهتها للفاتحين.

ـابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري(ت 630هـ/1232م) في كتابه الكامل في التاريخ والذي يعد من أوفر المصادر المشرقية وأغناها بالمعلومات المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي وهي معلومات كثيرا ما تتسم بالغزارة وتناول تفاصيل الأحداث والوقائع فكان بذلك من أهم مصادر البحث حيث استقيت منه الكثير من المعلومات في مختلف مفاصل البحث وعناصره من الفتح إلى حروب الخوارج وأثر قيام الدولة الفاطمية والصراع الزناتي الصنهاجي مرورا إلى قيام الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط ثم مجريات دخول عرب بني هلال إلى المغرب الأوسط وبعض مظاهر العلاقات العربية البربرية وإن انصب اهتمامه بذكر الأحداث العسكرية في ظل محاولات بني حماد ثم زناتة في مواجهة التقدم الهلالي.

ـالنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الحكم (ت 733هـ/1332م) في كتاب تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (افريقية والمغرب والأندلس صقلية واقريطش) من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب وهو مصدر يحتوي على معلومات غزيرة جدا عن تاريخ المغرب الاسلامي ويتسم بالوضوح والدقة في سرده للأحداث، لغته واضحة جدا وبعيدة عن الإطناب والتكرار والسجع وبذلك اعتمدت عليه في أغلب فصول البحث لاسيما الصراع الصنهاجي الزناتي وقيام الدولة الحمادية ودخول بني هلال إلى المغرب الأوسط.

ج–مصادر الأنساب:

ـابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(ت204هـ/819م) في كتابه نسب معد واليمن الكبير وهو القائل بالنسب العربي لصنهاجة وكتامة فضلا على تقديمه روايات تاريخية قديمة حول دخول البربر إلى المغرب.

-ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي(ت456هـ/1064م) في كتابه جمهرة أنساب العرب فقد استقيت منه نسب القبائل البربرية وفروعها وبعض الإشارات المتعلقة بمذهب بعض القبائل البربرية والبطون التي هاجرت منها إلى الأندلس إضافة الى اعتمادي عليه أيضا في تحديد نسب بني هلال وبني سليم.

-السمعاني، أبو سعد عبد الكريم (ت 562هـ/1167م) في كتابه الأنساب والذي أيد فيه النسب العربي لبعض القبائل كصنهاجة وكتامة.

د-كتب الرحلات والجغرافيا:

-اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت بعد 292هـ/905م) في كتابه البلدان واليعقوبي من الجغرافيين الذين زاروا بلاد المغرب أواخر القرن 3هـ/9م فأمدني بمعلومات هامة لاسيما في تحديد مواطن القبائل البربرية خاصة بطون زناتة وصنهاجة، وعموما أفادني في معرفة أوضاع المغرب الأوسط الاقتصادية والسياسية والعمرانية أواخر القرن 3هـ/9م مع وصف لأهم مدنه وقراه.

-ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي(ت367هـ/978م) في كتابه صورة الأرض وابن حوقل هو الآخر زار بلاد المغرب ليسجل مشاهداته وملاحظاته في العقد الرابع من القرن 4هـ/10م وامتاز كتابه بتأطير منهجي دقيق وشامل جمع فيه بين الجغرافيا والإدارة والاقتصاد والحالة المذهبية للمجتمع الحضري والبدوي وبذلك ساعدني في معرفة خصائص الاقتصاد البدوي والحضري بالمغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م وطبيعة التوزيع القبلي ضمن الضواحي والأرياف والمدن والمجالات.

-البكري، أبو عبد الله البكري الأندلسي(ت487هـ/1094م) في كتابه المسالك والممالك ورغم أن البكري لم يزر بلاد المغرب بل جمع ما توفر لديه من معلومات عن بلاد المغرب من بعض المؤلفات إلا أنه قدم معلومات جغرافية وتاريخية في نفس الوقت عن بلاد المغرب فهو من أهم المصادر التي أرخت لبناء المدن بالمغرب الأوسط متعرضا في ذلك لمشاركة

صنهاجة في تعمير المغرب الأوسط، ولقد أفادتني معلوماته الاقتصادية في تحديد المتغيرات التي طرأت على البنية الاقتصادية للمغرب الأوسط في ظل الدولة المركزية الحمادية.

ـالإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت560هـ/1164م) في كتابه المغرب الكبير من نزهة المشتاق والذي يمتاز بتناوله للحضور الهلالي بالمغرب الأوسط فكان مصدرا هاما في تحديد التوزيع القبلي للعرب الهلالية بالمغرب الأوسط والوقوف على أثر دخول العرب إلى المغرب الأوسط وتحديد بعض مظاهر العلاقات البربرية العربية بالمغرب الأوسط إضافة إلى تناوله للمجتمع البربري وأنماط نشاطه وغيرها.

ـالوزان، حسن بن محمد الفاسي(947هـ/1550م) في كتابه وصف إفريقيا فرغم أنه من الكتب المتأخرة لاسيما بالنسبة للمجال الزمني للبحث إلا أن تناوله للعلاقات البربرية الهلالية قد جعله مصدرا هاما في معرفة التأثير والتأثر الحاصل على مستوى العادات والتقاليد واللسان واللباس وغيرها.

هـ–كتب الطبقات والتراجم:

ـالدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت630هـ/1271م) في كتابه طبقات المشائخ رغم تناول الكتاب لتعريف شيوخ المذهب الإباضي لكنه قدم لي معلومات هامة حول نشأة الإباضية بالمغرب وثوراتها وتفاعل القبائل البربرية خلالها لاسيما سياسة الفاطميين اتجاه القبائل الإباضية بالمغرب الأوسط.

ـابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي(ت658هـ/1260م) في كتابه الحلة السيراء والذي يحتوي إضافة إلى تراجم العلماء والفقهاء والأدباء معلومات تاريخية واجتماعية هامة.

. الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري(ت689هـ/1291م) في كتابه معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان وهو الآخر يحتوي على معلومات تاريخية هامة خصوصا في معارك الفتح الإسلامي ومجرياتها.

2-المراجع الحديثة (العربية والأجنبية):

استندت في إعداد البحث إلى مجموعة من الدراسات والمراجع العربية والأجنبية والتي ساعدتني في تحليل النصوص واستنتاج مظاهر العلاقات البربرية العربية.

ومن أهم هذه الدراسات أذكر:

.لقبال، موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف ق 5هـ/11م حيث انطلق هذا الأخير من دور القبيلة – كتامة – في إنجاح الدعوة المذهبية وجهودها العسكرية والسياسية في إقامة الدولة وصنع مجتمع المدينة[1] فساعدني في تتبع المسار التاريخي الذي لعبته كتامة سياسيا ومذهبيا وعسكريا في المغرب الأوسط ونتائج ذلك في ضعف عصبيتها، وفي تحديد مواطنها وأهم مدنها بالمغرب الأوسط.

بن عميرة، محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي: وهو الآخر انطلق من قبيلة زناتة في دراسته للحركات المذهبية بالمغرب الإسلامي حيث تناول تاريخ قبيلة زناتة وبطونها ومختلف فروعها مع تحديد مواطنها ومذاهبها ومواقفها من الدول التي قامت بالمغرب الإسلامي فضلا على أدوارها في الصراعات العسكرية التي دارت بالمغرب ليكون بذلك من أهم المراجع التي اعتمدت عليها لاسيما في تحديد ملامح تكوين مجتمع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن2هـ/8م ضمن زناتة أهل المغرب الأوسط.

.روجي إدريس، الهادري: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى 12م) استقيت منه معلومات حول نشأة الدولة الحمادية ومجتمع المغرب الأوسط ضمن تجربة الدولة المركزية إضافة إلى أثر دخول بني هلال إلى بلاد المغرب الأوسط وإن اهتم بالدور العسكري الهلالي فانه تضمن إشارات حول الثقافة الهلالية الوافدة وبعض مظاهر العلاقات.

---

[1] الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص200.

كامب، غابرييل: البربر ذاكرة وهوية يتوفر على معلومات غزيرة حول المجتمع البربري ومختلف الجوانب الحضارية إضافة لتناوله علاقات البربر مع الوافد إلى بلاد المغرب الإسلامي.

فاليري دومنيك: بجاية ميناء مغاربي (1067-1510م) وهو كتاب يتوفر على معلومات هامة لاسيما فيما يخص الدولة المركزية لبني حماد والتحولات التي عرفها مجتمع المغرب الأوسط في ظل حكمهم، إضافة إلى تناوله للحضور الهلالي بالمغرب الأوسط وعلاقاتهم بالدولة الحمادية والقبائل البربرية.

الفصل الأول: مجتمع المغرب الأوسط (البنيات وأشكال التوطين) خلال القرون الهجرية الأولى 1-3هـ/7-9م

1- بنيات وأشكال التوطين القبلي:

أ-التصنيف التقليدي للبربر.

ب-التصنيف الخلدوني:

- **بربر المدن والأمصار.**
- **بربر الضواحي (البادية).**
- **بربر الديار والأرياف.**
- **بربر المجالات.**

2- ميلاد مجتمع المغرب الأوسط القرن2هـ/8م:

أ- زناتة المغرب الأوسط (القبيلة والأبعاد).

ب-النشاط واللسان.

3- أثر الفتح وحروب الخوارج في بنيات وأشكال التوطين:

أ- حقيقة الحراك القبلي أثناء الفتح.

ب- واقع التوطين في ظل ثورات البربر وحروب الخوارج.

1– بنيات وأشكال التوطين القبلي:

يجد الباحث في تاريخ مجتمع بلاد البربر – المغرب الإسلامي – عديد المسائل الشائكة والمعقدة منها ما هو متعلق بمصداقية التوطين السكاني الذي ورد في المصادر الرومانية والبيزنطية وهذا في حد ذاته يطرح إشكالية مدى استمرار هذا التصنيف في واقع مجتمع بلاد البربر – المغرب الإسلامي–في العصر الوسيط الإسلامي أو على الأقل تأثيرات المرحلة البيزنطية التي أعقبها الفتح الإسلامي لبلاد البربر في طبع الساكنة البربرية بأشكال من التنظيمات الاجتماعية؟

وما محل تطبيق المصادر المغربية لأشكال التوطين البربري ضمن وافدي البرانس والبتر في قراءة مجتمع بلاد البربر في العصر الوسيط الإسلامي قراءة فاحصة وعميقة؟

لا جدال في أن قراءة هذه الإشكاليات صار بفضل تطور مناهج البحث التاريخي من التصنيفات التقليدية التي درج عليها الباحثون، إلا أن منطق القراءة التاريخية وتسلسلها صار حتميا في توضيح الفرق الشاسع بين التصنيف التقليدي في تقرير مسألة التوطين البربري وبين حقيقة هذا التوطين في مسلك تاريخ القبيلة الذي اقترحه عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) كمنهج بديل في قراءة التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والحضاري للمجتمع البربري – مجتمع المغرب الإسلامي –.

أ–<u>التصنيف التقليدي</u>:

لقد أطلق المؤرخون على سكان المغرب القديم العديد من التسميات، يرتبط بعضها بالمجال الجغرافي الذي كان يسكنه جزء من الناس، والبعض الآخر بنوع النشاط الذي يمارسونه، أو بالمنظر الخارجي واللباس الذي كانت تلبسه جماعة دون أخرى، يؤيد ذلك التسميات الواردة في نصوص المؤرخين الرومان والبيزنطيين ومن أقدمها كنية الليبو وأفري

واللتان تعنيان سكان جزء يسير من بلاد المغرب،[1]وكذلك لفظ الجيتول يدل في معناه على النشاط الاقتصادي القائم على الترحال والتنقل،[2]ويرمز إلى مجموعة قبلية كبيرة لكنها لا تمثل عرقا متميزا،[3]في حين أطلقت كلمة المور على سكان الشمال الإفريقي القاطنين بالغرب،[4]والتي كان يعنى بها سكان الجبال،[5]بينما خصت تسمية النوميد الرعاة،[6]المنتشرين في الجهة الشرقية.[7]

ووفقا لذلك تتضح فكرة استناد أغلبية التسميات للمجال الجغرافي وطبيعة النشاط الاقتصادي، ويحسن التنبيه إلى أننا لسنا بصدد التأكيد على هذه التسميات التي استعملت في الكتابات اللاتينية للدلالة على سكان المغرب في العصر الروماني والبيزنطي، بقدر ما نريد التأكيد على قصورها وتناقضها وعجزها في الدلالة على الساكنة البربرية.

---

(1) محمد الصغير غانم: مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، الجزائر، 2005م، ص 10؛ محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية، الجزائر، (د ت)، ص 22–24.

(2) غابرييل كامب: البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004م، ص 150.

(3) محمد البشير شنيتي: المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 164–165؛ عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص 163.

(4) محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 11؛ محفوظ قداش: الجزائر في العصور القديمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1993م، ص 27؛ عقون محمد العربي: المرجع السابق، ص 159؛ محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 157.

(5) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 145.

(6) نفسه، ص145.

(7) عقون محمد العربي: المرجع السابق، ص 158؛ محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 10.

إلا أننا نجد أنه ومن الصعب تحديد التوزيع السكاني لبلاد المغرب في ظل سيادة نظام القبيلة منذ القدم،[1] كما لا يمكن سحب نشاط اقتصادي لمجموعة في حيز جغرافي على كل الساكنة.[2]

وإذا كانت مصادر الفتوح والأنساب العربية قد وظفت اسم البربر[3]وأضحى استعماله واسعا فإنه كذلك أضحى محل خلاف بين المؤرخين والباحثين حول معانيه وأبعاده التاريخية،[4]حيث يعيده البعض إلى العهد الروماني،[5]في حين أرجعه البعض إلى جدهم بر،[6]أو لاختلاط أصواتهم ولغطهم، وإن اتفق النسابة في تقسيم البربر إلى جذمان عظيمان هما البرانس والبتر.[7]

---

(1) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج1، ص 81.

(2) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 160.

(3) البربر: لغة هي الصوت والكلام من غضب وبربر مثل ثرثرة وهي التخليط في الكلام. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ط6، ج9، دار صادر، بيروت،2008م، ص 56؛ عبد الرحمن ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983م، ص 176. واستعملت كلمة البربر بنفس المعنى سواء بإرجاعها لإفريقش بن صيفي أو الخليفة عمر بن الخطاب. أبو المنذر هشام بن محمد بن الكلبي: نسب معد واليمن الكبير، تح ناجي حسن، ط1، ج2، مكتبة النهضة، (دم)، 1408هـ/1988م، ص 548؛ أحمد بن يحي بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، ج1، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د ت) ص 265؛ يحي ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م، ص 179؛ ابن خلدون: المقدمة، ص 43؛ صالح بن عبد الحليم المصمودي: مفاخر البربر، تح عبد القادر بوباية، مؤسسة إبلاغ للنشر، الجزائر، 2013م، ص 223.

(4) موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 51–52–53.

(5) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج 1، ص 19؛ محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 12.

(6) أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح فردناند وأسطون فيلد، مطبعة جوتنجن، ألمانيا، 1897م، ص 31؛ الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية (تاريخ افريقيا في عهد بني زيري من القرن 10إلى القرن 12م)، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 32.

(7) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004م، ص 44؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 176؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص195؛ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1400هـ / 1980م، ص 118؛ المقريزي: البيان والإعراب، ج1، ص31.

فإنهم سرعان ما اختلفوا في نسبهما، فردهما محمد بن حزم(ت456هـ/1064م) إلى أب واحد،[1]في حين جعل عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م)البرانس من برنس ومنه نسل البربر،[2]والبتر من أبناء مادغيس الأبتر،[3] إلا أنهما يلتقيان برجوعهما إلى كنعان بن حام.[4]

كما يستند تقسيمها إلى اختلاف أساليب الحياة بينهما فالقبائل البرنسية في عدد القبائل المدرية، أي التي تركن للاستقرار، أما البترية فهي قبائل بدوية تجري وراء النجعة،[5] لكننا نجد ضمن القبائل البرنسية قبائل غارقة في البداوة وذات النجعة الطويلة، وأخرى ضمن البترية لكنها اختارت حياة الاستقرار،[6]ويرجع البعض هذا التقسيم للمظهر الخارجي، فالبرانس يشمل لباسهم على غطاء للرأس ذي شكل مخروطي أما البتر فلباسهم لا يشمل على هذه الإضافة،[7]لكن البرنوس هو سمة للفروسية ولباس للفرسان المحليين وهؤلاء في أغلبهم من البتر ومن يتخذونه لباسا اليوم إنما هم أولئك الذين ينسبون بأصولهم إلى فرع البتر.[8]

---

[1]جمهرة أنساب العرب، تح لفي بروفنسال، ط1، نوابغ الفكر، القاهرة ،1430هـ/ 2009، ص450.

[2] البرانس: وهم بنو برنس بن سفجو بنو أبزج بنو جناح بن واليل بنو شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام. العبر، ج6، ص186؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 195؛ المقريزي: البيان والإعراب، ج1، ص 31.

[3] البتر: ولد مادغيس الأبتر بن قيس بن عيلان. يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 181؛ عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، ص 186.

[4] ابن حزم: المصدر السابق، ص 450؛ عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج7، ص 05؛ المقريزي: البيان والإعراب، ج1، ص31؛ أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح أحمد الناصري، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، 2009م، ص 68.

[5] موسى لقبال: المرجع السابق، ص 58؛ الدراجي بوزيان: القبائل الأمازيغية (أدوارها مواطنها وأعيانها)، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص 75.

[6] موسى لقبال: المرجع السابق، ص 58؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 81.

[7] موسى لقبال: المرجع السابق، ص 06.

[8] نفسه، ص 69.

ومن هنا يبدو هذا التصنيف القائم على خصائص الاستقرار والبداوة النجع واللباس غير واضح ولا يمكن أن يضفي بنا إلى تصور مقنع لطبيعة مجتمع المغرب الإسلامي ومكوناته السكانية ولذلك وصفها الباحث الفرنسي دومنيك فاليري بالتصنيفات الأسطورية الغامضة الأسباب ،[1]والتي لا يمكن على أساسها قراءة البنية الاجتماعية للقبيلة البربرية قراءة تفصيلية وعميقة في ثوبها السيوتاريخي والاقتصادي.

ومن هنا ارتأيت الخوض في دلالات المصطلحات التي وظفها عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) في تأريخه للقبيلة البربرية بغية التوصل إلى أنماط الساكنة البربرية أو مجتمع المغرب الاسلامي فقد لاحظ الباحث الفرنسي دومنيك فاليري كذلك أن ابن خلدون عندما يتحدث عن جولاته أو عندما يحدد موقع مدينة أو قبيلة في الفضاء السياسي المغاربي، تتغير الكلمات تحت قلمه مع تنوع المعنى.[2]

فالمصطلحات الخلدونية ومعانيها لا سيما فيما يتعلق بتاريخ القبيلة خلال القرون الثلاث الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، هي الحقل المناسب في الوقوف على البنية الاجتماعية والاقتصادية للقبيلة من حيث مواطنها وأشكال توزعها وأنماط نشاطاتها.[3]ومن خلال حصر هذه المصطلحات وتتبع معناه اللغوي والاصطلاحي تتمخض لدينا أنماط الساكنة البربرية – مجتمع المغرب الأوسط – فيما يلي:

---

(1) بجاية ميناء مغاربي (1067هـ–1510م)، ترجمة علاوة عمارة، ج1، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014م، ص 188.

(2) المرجع السابق، ج1، ص134–135.

(3) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب، لبنان، 1986م، ص 42.

ب –التصنيف الخلدوني:

يستند التصنيف الخلدوني في ضبط بنيات وأشكال التوطين القبلي على تتبع هذا التصنيف ضمن مسلك تاريخ القبيلة وفق منهج يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه و يتقراه في شعابه ويثيره في مكامنه[1] أي منهجا قائما على الاستقراء و اشتثارة دلالات الكلمات التي تفتح الموضوع على علوم اللسانيات و الأنثرو بولوجيا قصد كتابة التاريخ في اتجاه مغاير[2]

– بربر المدن والأمصار:

يعد الحديث عن دور القبائل البربرية في بناء المدن والاستقرار بها من أهم الإشكاليات، التي لا تزال بحاجة إلى البحث والتنقيب خاصة وأن أغلب النصوص والشواهد تفتقد للدقة والوضوح، وتتسم بالكثير من الغموض سواء في تحديد تاريخ تأسيس المدن أو في تبيان ساكنيها.

وعموما يرتبط وجود المدن والحصون بالمغرب الأوسط بالحضور الأجنبي الفينيقي والروماني والبيزنطي.[3]

فتتفق الكثير من المصادر التاريخية والجغرافية في سياق حديثها عن دخول البربر الأول إلى بلاد المغرب، أن الجبال والأودية والرمال وأطراف البراري والقفار والبوادي كانت محل توزع

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج7، ص125.

(2) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ط6، ج1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000م، ص34.

(3) عن دورهم في تعمير المغرب الأوسط أنظر محفوظ قداش: المرجع السابق، ص 41–123–247؛ محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 68–146؛ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الأمة، الجزائر ،2010م، ص 83–103–148؛ عبد الرحمن بن مرزوق: تأسيس مدينة تيمقاد، مجلة التراث، ع2/محرم 1408هـ، سبتمبر1987م، دار الشهاب، باتنة، ص 39. ويبلغ عدد المدن التي نسبها الحسن الوزان للرومان بالمغرب الأوسط 17مدينة أما عند مارمول كربخال فهي 22مدينة. وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج2، دار الغرب، لبنان، 1983م، ص 13–64؛ إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ج2، ج3، مكتبة المعارف، الرباط، 1408–1409هـ/1979–1980م، ص 6–383.

القبائل البربرية وانتشارها في حين تركت المدن للروم والإفرنج،[1] ومع ذلك نجد أيضا إشارات هامة حول تأسيس البربر لبعض مدن المغرب الأوسط على غرار المدن التي تعود إلى المماليك النوميدية مثل سيرتا وسيقا وغيرها.[2]

كما يرجع الأستاذ القدير عبد العزيز فيلالي مدينة أقادير[3]إلى أزمنة بعيدة قبل الوجود الروماني، [4]والتي أسستها قبائل بني يفرن،[5] حسب عبد الرحمن بن خلدون(ت808هـ/1405م).[6]

إلا أن هذه المدن القديمة لم تكن على ما يبدو تحمل السيمات الحقيقية للمدينة، إذ لا يتوانى شارل أندري جوليان بوصفها مجرد قرى متواضعة مقارنة بقرطاج.[7]

---

(1) أبو القاسم عبد الله ابن خرداذبة: المسالك و الممالك، دار صادر، بيروت، 1889م، ص 91؛ عبيد الله بن عبد العزيز البكري: المسالك والممالك، تح جمال طلبة، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1427هـ/2003م، ص249؛ أبوعبد الله محمد بن محمد الإدريسي: المغرب الكبير من نزهة المشتاق، تح محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص73؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط2، ج1، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 368؛ عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، بيت الأذكار الدولية، السعودية، (دت)، ص 409؛ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ج س كولان و إ ليفي بروفنسال، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2009م، ص 20؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 246؛ يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 79؛ أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني: رحلة التيجاني، الدار العربية للكتاب، تونس، ص154.

(2) محمد الهادي حارش: المرجع السابق، ص 212؛ محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص152.

(3) أقادير: اسم المدينة القديمة لتلمسان حيث تشير بعض المصادر لقدمها وأزليتها. الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 44؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص90–91؛ عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج7، ص 43–151.

(4) عبد العزيز فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012م، ص 168.

(5) بنو يفرن: من شعوب زناتة ومن أوسع بطونها وهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بنو وارسيك بن الديرت بن جانا؛ ابن حزم: المصدر السابق، ص 494؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 22.

(6) نفسه، ج7، ص151.

(7) المرجع السابق، ج1، ص 32.

وبذلك يعد من العسير فعلا أن نحدد دور البربر في بناء المدن، والاستقرار بها خلال العصر القديم بل نجد أبو عبد الله بن أبي بكر الزهري(ت منتصف القرن 6هـ) يصف المغرب بكبر المساحة، وقلة المدن والأمصار،[1]وهو ما ذهب إليه عبد الرحمن ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م)،[2]الذي وصف عمران إفريقية والمغرب بقلة المدن والأمصار وأن عمرانها عمران بدوي،[3]مقدما في نفس الوقت الأسباب التي حالت دون اتخاذ البربر للمدن والأمصار، والتي يمكن حصرها في ثلاث عوامل: أولها قلة التأثير الحضاري للدول التي حكمت البربر، وبقائهم على بداوتهم ولبعدهم عن الصنائع التي تعد أساسا للبناء، فضلا عن حفاظهم على العصبيات والأنساب وإنما يدعو للبناء الدعة والسكون.[4]

ومن أهم النتائج التي أسفرت عليها عمليات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب: هروب جل الروم والإفرنج من مدن وحصون المغرب إلى صقلية والأندلس وغيرهما من الجزر،[5]وتركها للمدن خالية أو شبه خالية، ومع ذلك فإننا لا نجد نصوص واضحة تفيد باستقرار القبائل البربرية مبكرا بهذه المدن والحصون.

---

[1] الجعرافية وما ذكرته العلماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، المركز الإسلامي للطباعة، (دت)، ص116.

[2] المقدمة، ص 393.

[3] نفسه، ص393.

[4] نفسه، ص393.

[5] أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقيا والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن 1هـ إلى أواخر القرن 2هـ)، تح المنجي الكعبي، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1436هـ/ 2005م، ص 91؛ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ط2، ج1، المكتبة العتيقة، تونس، 1413هـ /1993م، ص 60؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص 35؛ مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م، ص 156؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص 404؛ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 68.

في حين نجد اهتمام المصادر بتحديد أماكن استقرار العرب الوافدين إلى المغرب ضمن حملات الفتح، حيث تركز تواجدهم بالمدن دون البوادي.[1]

ومع ذلك فلا يمكن للوجود العربي الذي وصف بقليل العدد[2]أن يغطي الفراغ الديموغرافي الذي تركه الروم والإفرنج في أغلب المدن، إلى جانب هذا فإن العرب الذين اختاروا البقاء بالمغرب وبمدنه –إن صح التعبير–توزعوا على المدن ذات المواقع المهمة، سواء العسكرية أو التجارية.[3]

لذا كان تواجدهم أساسا في المغرب الأوسط، بالضبط في المدن الواقعة بأطراف الإمارة الأغلبية،[4]وذلك للقيام بدور حفظ الأمن في مدن ثغور الإمارة.[5]

وعموما فقد نقلت لنا المصادر الجغرافية مناطق استقرار عرب الفتح بالمغرب الأوسط.[6]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 27–28؛ عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ، ط1، دار الشرق، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 93؛ كلود كوهن: الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة حسن جواد قبيسي، ط1، المنظمة العربية للتجارة، لبنان، 2009م، ص 211.

[2] الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص93؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص192–193.

[3] محمد حسن: الجغرافيا التاريخية من القرن 1–9هـ/7–15م فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004م، ص14–15–16.

[4] الأغالبة: إمارة قامت بإفريقية أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ/801م امتد نفوذها لأجزاء من المغرب الأوسط. ابن الأثير: المصدر السابق، ج 6، ص 871؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري: تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تح مصطفى أبوظيف أحمد، دار النشر المغربية، دار البيضاء، 1985م، ص252–290؛ ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، تح محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2001م، ص 30وما بعدها. يحدد أحمد ابن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي حد إمارة الأغالبة بمدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب. البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ص 191.كما يجعل النويري الزاب ثغرا لإمارة الأغالبة، المصدر السابق، ص 273.

[5] محمد حسن: المرجع السابق، ص 15.

[6] اليعقوبي: المصدر السابق، ص190–191؛ أبو القاسم محمد ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابع الفكر، القاهرة، 1430هـ/2009م، ص 89–95؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 228ومابعدها؛ بويحي الشاذلي: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ترجمة محمد العربي، ط1، ج2، المجمع التونسي للعلوم والآداب، تونس ،1999م، ص 460.

لكن اليعقوبي (ت بعد 292 هـ/905م .) يتحدث عن استقرار البربر بمدينة طبنة[1]إلى جانب قريش والعرب والجند والعجم،[2] في حين كان أبو القاسم محمد ابن حوقل (ت 367 هـ / 977م) أكثر وضوحا في تحديد سكانها بقوله: وكان بها قبيلتان عرب وبرقجانة.[3]

فهل يمكن أن نعتبر هذه الإشارات كافية للقول باستقرار بربري بمدن المغرب الأوسط إلى جانب العرب والجند وغيرهم؟ لاسيما وأن الصورة ستصبح أكثر وضوحا خلال تناول المصادر لبناء مدينة تاهرت في منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن ميلادي.[4]

فعندما حاول عبد الرحمان ابن رستم[5] ومن معه من الإباضية[6]بناء مدينتهم، حاولوا البناء أولا في تاهرت القديمة.[7]

---

[1] طبنة: مدينة قديمة لها سور من طابية. اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 88؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 21. وعن تاريخ بنائها أنظر أبو عمرو خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تح أكرم ضياء العمري، ط2، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، 1397هـ، ص 279. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

[2] اليعقوبي: المصدر السابق، ص190؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص 14.

[3] برقجانة: لم أعثر عليها ضمن القبائل البربرية. صورة الأرض، ص 89.

[4] حول تاريخ بناء مدينة تاهرت الحديثة خلال القرن 2هـ/8م أنظر أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، ج1، (د م)، (د ت)، ص 40؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص196؛ عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج6، ص 247؛ جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية، 1984م، ص 29؛ عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، دار النهضة، بيروت، 1981م، ص 542.

[5] ابن رستم: هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام كان خليفة لأبي الخطاب عندما تغلب على افريقية ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 196؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص19؛ أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي: السير، تح محمد حسن ط1، ج2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009م، ص263؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص 538–539.

[6] الإباضية: فرقة من الخوارج وهم أصحاب عبد الله بن إباض. أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني: الملل والنحل، دار الفكر، بيروت، 1425هـ/ 2005م، ص108. وعن دخولهم للمغرب أنظر الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 11؛ عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية، 1395هـ/1975م، ص 105؛ رابح بونار: المغرب العربي (تاريخه وثقافته)، ط3، دار الهدى، الجزائر ،2000م، ص64–65.

[7] تاهرت القديمة: مدينة أزلية ذات سور وهي على جبل. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 89؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص249.

والتي كان سكانها من برقجانة، لكنهم رفضوا أن يشاركوهم فيها،(1)وهو ما دفعهم إلى بناء مدينة تاهرت الحديثة،(2)والتي بنيت على أرض كانت ملكا لقبائل بربرية هي مراسة،(3)أو مداسة،(4) وقبيلة صنهاجة.(5)

والذي يهمنا هو رفض القبائل البربرية بيع مواضعها لعبد الرحمن ابن رستم، فاتفق معهم على أن يأخذوا الخراج من الأسواق فقبلوا،(6) وأضاف البكري (ت487هـ/1094م) شرطا آخر مفاده: أن يباح لهم بنيان المساكن فاختطوا وبنوا.(7)

أي استقرار بعض بطون صنهاجة في عاصمة الرستميين خلال القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي كما شكلت جماعات من نفوسة(8) جزءا هاما من سكان المدينة.(9)

---

(1) البكري: المصدر السابق، ج2، ص249.

(2) تاهرت الحديثة: مدينة مسورة لها أربعة أبواب. نفسه، ج2، ص248؛ الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص273.

(3) مراسة: لم أعثر عليها ضمن القبائل البربرية وردت عند البكري: المصدر السابق، ج2، ص249.

(4) مداسة: وردت عند الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص273. وهي من بطون صنهاجة. ابن حوقل: المصدر السابق 105؛ ابن أبي زرع الفارسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999م، ص152.

(5) صنهاجة : من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشممة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج وهم من بطون البرانس. ابن خلدون: العبر، ج6، ص309–310وهناك من النسابة من جعل صنهاجة من العرب. ابن الكلبي: نسب معد، ج2، ص548؛ البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، تح سهيل زكار ورياض الزركلي، ط1، ج1، دار الفكر، بيروت،1417هـ /1996م، ص 07؛ محمد بن جرير بن يزيد الطبري: تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري، ج1، دار التراث، بيروت، 1387هـ، ص 207؛ عبد الكريم بن محمد السمعاني: الأنساب، تح عبد الرحمن بن يحي المعلمي وغيره، ج8، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيداباد، 1962م، ص 337؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص73. أما ابن حزم فلقد رفض النسب العربي لكل البربر بما فيهم صنهاجة المصدر السابق، ص 450. في حين قال ابن خلدون بنسبها العربي في العبر، ج6، ص162 ثم يجعلها من البربر في المقدمة، ص 44.

(6) الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص273.

(7) المصدر السابق، ج2، ص250.

(8) نفوسة: من البربر البتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص450؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص230.

(9) ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب، بيروت، 1406هـ/1986م، ص21–22.

وكان سكان مدينة أيزرج[1] التي تلي تاهرت لقوم من مطماطة.[2]ومدينة أوزكا[3] سكانها بنو مرة من البربر،[4]

ومدينة هاز[5] لبني يرنيان،[6] وكذلك مدينة العلويين[7] سكانها بربر[8]. ومما يجب الإشارة إليه أننا لا نجد وصفا لهذه المدن التي ذكرها اليعقوبي (ت بعد292هـ/ 905م) في مصادر الجغرافيا والرحلات وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها لم تكن سوى قرى أو على الأقل مدن صغيرة.

وبعد مدينة هاز تحدث اليعقوبي (ت بعد292هـ/ 905م) على بعض المدن سكانها صنهاجة وزواوة[9]يقول: أنهم أصحاب عمارة وزرع، [10] وبالانتقال إلى صنهاجة يصبح الحديث عن بربر المدن بالمغرب الأوسط أكثر وضوحا، حيث تنسب الكثير من مدنه لصنهاجة وكتامة.[11]

---

(1) إيزرج: مدينة عظيمة تلي تاهرت. ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص88.

(2) مطماطة: من البربر البتر. ابن حزم المصدر السابق، ص490؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص66؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص211.

(3) أوزكا: مدينة قرب تاهرت. اليعقوبي: المصدر السابق، ص198.

(4) بنو مرة: ينسبهم اليعقوبي لزناتة. نفسه، ص198.

(5) هاز: مدينة قريبة من الصحراء. نفسه، ص198؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص86.

(6) بني يرنيان: من قبائل زناتة. ابن خلدون: العبر، ج7، ص10.

(7) العلويين: قريبة من تلمسان. ابن حوقل: المصدر السابق، ص89.

(8) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 196.

(9) زواوة: من بطون كتامة. ابن حزم: المصدر السابق، ص 501؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص181–262–308.

(10) اليعقوبي: المصدر السابق، ص191.

(11) كتامة: من قبائل البرانس من ولد كتام بن برنس وتتفرع بطونها من يسودة وغرسن. ابن حزم: المصدر السابق، ص 450؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص302. وتنسبها بعض المصادر للعرب من حمير. الطبري: المصدر السابق، ج1، ص207؛ البلاذري: أنساب، ج1، ص 107؛ السمعاني: المصدر السابق، ج8، ص337؛ الكلبي: نسب معد، ج2، ص548.

لقد سبق وأن أشرنا إلى الأسباب التي قدمها ابن خلدون (ت808هـ/1405م)، والتي جعلت البربر بعيدين عن بناء المدن والاستقرار بها، فكان من بينها: قلة تأثرهم بالدول التي حكمتهم؛ فإنه استثنى صنهاجة وكتامة حيث قال: "وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب، فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه، وكثر عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم." (1) فكانت كتامة الأكثر تأثرا بالحضارة الأغلبية.(2)

وذلك لامتداد نفوذ دولة الأغالبة، في أجزاء من مواطن كتامة(3) بالمغرب الأوسط ما أتاح لهم الاحتكاك أكثر من باقي القبائل البربرية بالحضارة الأغلبية، إلى جانب هذا فإنه يشير إلى الملك الأول لكتامة،(4)ووجود المدن والأمصار هو من عوائد الترف والدعة،(5) وبذلك قد يعود الاستقرار الكتامي المبكر بعدة مدن بالمغرب الأوسط؛ إلى تأثرهم بالحضارة الأغلبية التي كانت تجاورهم بما كان لهم من تراكم لسابق عهدهم بالملك.

(1) المقدمة، ص 406.

(2) بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص 432.

(3) كان جمهور كتامة موطنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج6، ص302. وأشرنا إلى امتداد نفوذ الأغالبة إلى بلاد الزاب. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 197؛ النويري: المصدر السابق، ص 273.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص175/العبر، ج6، ص303.

(5) نفسه، المقدمة، ص151.

ومن أهم المدن التي كانت لكتامة، مدينة قسنطينة[1] والتي تسمى أيضا القسطنطينية،[2]ومدينة سطيف[3]هي الأخرى كانت لكتامة،[4] وكذلك مدينة ميلة.[5]

ويضيف أيضا البكري (ت487هـ/ 1094م) تاناجللت[6]حيث يقول: «ومدينة تاناجللت لكتامة عامرة آهلة».[7] إضافة إلى المدن التي جعلها موسى لقبال كتامية[8].

أما صنهاجة فإضافة إلى تأثرها بالحضارة الأغلبية، فإن استقرارها بالمناطق الزراعية ربما ساعدها أكثر على الاستقرار بعدة مدن بالمغرب الأوسط، [9]والتي أخذت أسماءها من بطون قبائل صنهاجة أي اتخاذ المدينة اسم القبيلة مما يساعدنا لاحقا على قراءة طوبونومية مدينة المغرب الأوسط.[10]

---

[1] قسنطينة: مدينة أولية كبيرة ذات حصانة ومنعة وهي من مدن كتامة عند ابن حوقل: المصدر السابق، ص 95؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص245؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 167. وهي عند بعضهم من المدن الرومانية. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص56؛ كربخال: المصدر السابق، ج3، ص 11. اسمها القديم سيرتا عبد الرحمن الجلالي: المرجع السابق، ج1، ص 75.

[2] القسطنطينية: تسمي بعض المصادر مدينة قسنطينة بالقسطنطينية. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 95؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص244؛ خالد بن عيسى البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح الحسن السائح، ج1، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، (د م)، (د ت)، ص160.

[3] سطيف: مدينة كبيرة وجليلة أولية بينها وبين القيروان ستة عشر مرحلة وبينها وبين تاهرت عشرين مرحلة. الإصطخري: المصدر السابق، ص46؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص97؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 258؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 125؛ مجهول: الاستبصار، ص 166؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 220.

[4] الإصطخري: المصدر السابق، ص 39؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 97؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 245؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص 99.

[5] ميلة: مدينة عظيمة جليلة. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 245؛ مجهول: الاستبصار، ص 166؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص244. البكري: المصدر السابق، ج2، ص245.

[6] تاناجللت: تبعد بمرحلة عن سطيف وهي قريبة من ميلة. نفسه، ج2، ص 246.

[7] نفسه، ج2، ص 246.

[8] وهي سوق أهراس قالمة وايكجان. المرجع السابق، ص99.

[9] عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 72؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص 80.

[10] محمد حسن: المرجع السابق، ص 13.

ومن ذلك مدينة جزائر بني مزغنة،[1] فمزغنة؛ هي إحدى بطون صنهاجة[2] وكذلك مدينة المدية،[3] التي حملت إسم بطن من صنهاجة هو لمدونة،[4] إضافة إلى مدينة مليانة،[5] فهي الأخرى من المدن الصنهاجية.[6]

ولقد أرجع عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/1405م) بناء هذه المدن الثلاث إلى بلكين بن زيري الصنهاجي (ت 373هـ/984م)،[7]في حين تشير بعض المصادر أنه لم يقم سوى بتوسعيها وتجديدها.[8]

---

(1) جزائر بني مزغنة: مدينة قديمة كانت تسمى إيكوسين أو إيكوسيم. أحمد السليماني: المرجع السابق، ص 05. أما اسم الجزائر فهو نسبة إلى الجزر الصخرية التي كانت قبالة المدينة. عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج 1، ص 23. والملاحظ أن كلمة مزغنة قد وردت في المصادر بعدة أشكال مثل مزغني، مزغناي، مزغنان، مزغنا وهي مدينة جليلة قديمة البنيان. الإصطخري: المصدر السابق، ص 83؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 247؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 114؛ مجهول: الاستبصار، ص 132؛ أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1970م، ص 142؛ أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري: رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تح أحمد بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، (د ت)، ص 42.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 312؛ كربخال: المصدر السابق، ج2، ص362.

(3) المدية: بلد جليل قديم. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 247.

(4) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 210.

(5) مليانة: مدينة أزلية تقع على قنة جبل محاطة بأسوار عالية. ابن حوقل: المصدر السابق، ص92؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 241؛ مجهول: الاستبصار، ص 171؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 106؛ العبدري: المصدر السابق، ص 28.

(6) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 60؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص 169؛ رضا بن النية: صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ–699م/362هـ–973م)، رسالة ماجستير، إشراف بوبة مجاني، جامعة منتوري قسنطينة، 1426–1427هـ/2005–2006م، ص 53.

(7) ابن خلدون: العبر، ج6، ص314؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 60.

(8) البكري: المصدر السابق، ج2، ص241؛ مجهول: الاستبصار، ص171؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 60–61؛ دومنيك فاليري، المرجع السابق، ج1، ص169.

إلى جانب هذه المدن، كان لصنهاجة استقرار أيضا بمدينة حمزة[1]ومدينة سوق ماكسن[2]وربما هذا ما يفسر قول ابن خلدون صنهاجة الأمصار.[3]

– بربر الضواحي:

وإلى جانب بربر المدن والأمصار استعمل ابن خلدون (ت 808 هـ /1405م) كذلك مصطلح الضاحية أو الضواحي، في عرض حديثه عن القبائل البربرية، وأماكن انتشارها وتوزعها، وبيانه لنشاطها الاقتصادي ودورها السياسي.

فالضواحي: لغة هي ما بدا من جسده، وضحت للشمس ضحاء ممدود، إذا برزت وضواحي كل شيء نواحيه البارزة للشمس، والضواحي من النخل ما كان خارج السور وباع فلان ضاحية أرض إذا باع أرضا ليس عليها حائط،[4] فالضاحية هي المكان البارز والمكشوف والذي لا يتخذ الأسوار، وهو نفس ما ذهب إليه ابن خلدون في تعليله لسبب قوة أهل الضواحي، حيث رد ذلك لبعدهم من الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب وقيامهم بالمدافعة عن أنفسهم،[5]فهي إذن أماكن مكشوفة وربما هذا ما دفع كلود كوهن إلى وصف الضواحي بقلة التنظيم الهندسي،[6] في حين يسميها غابرييل كامب بالقرى المفتوحة،[7] ويبدو أن استقرار القبائل البربرية بالضواحي، يعود إلى أزمنة قديمة حيث أشار شارل أندري جوليان إلى دور البربر المجتمعين بالأكواخ في اعتراض التقدم الروماني.[8]

---

[1] حمزة: مدينة عليها سور وخندق نزلها حمزة بن الحسن بن سليمان (السليمانيين). البكري: المصدر السابق، ج2، ص 246؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص302. البكري: المصدر السابق، ج2، ص246.

[2] ماكسن: مدينة صنهاجية على نهر شلف. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 246.

[3] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 42.

[4] ابن منظور: المصدر السابق ج9، ص 122–123.

[5] المقدمة، ص 153.

[6] المرجع السابق، ص235.

[7] المرجع السابق، ص231.

[8] المرجع السابق، ص 76.

فقد كان البربر حسبه يجتمعون في قرى تتكون من تكاثف الأكواخ في أماكن لائقة قبل الاحتلال الروماني،[1] كما يشير كلود كوهن إلى الأهمية التي بلغتها الضواحي بعد ضعف المدن الرومانية.[2]

ويتحدث ابن خلدون (ت 808 هـ /1405م) عن ضواحي البربر، خلال ملك الإفرنجة لبلادهم حيث نزلوا بالأمصار،[3] في حين كانت زناتة وسائر البربر بضواحيهم،[4]وخلال مواجهة الملك جرجير[5] للفتح الإسلامي جمع من كان بأمصار إفريقية من الروم والإفرنج ومن بضواحيها من جموع البربر،[6]مما يعني استمرار التواجد البربري بالضواحي قبيل الفتح الإسلامي.

ومن خلال النصوص المتوفرة يمكننا القول أن الضواحي هي التي تحيط بالمدن والأمصار،[7] وتمتاز أيضا بالقوة والاستقلال عن الدول التي حكمت بلاد البربر، لقول ابن خلدون: «أما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم، إنما قطع الروم والإفرنجة إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية طاعة غير مستحكمة.»[8]بل كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوة، وعدة، وعدد ملوك، ورؤساء وأقيال[9]وأمراؤها لا يرامون بذل ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة.[10]

---

[1] شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج1، ص 76.

[2] كلود كاهن: المرجع السابق، ص 235.

[3] العبر، ج7، ص15/المقدمة، ص406؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص73.

[4] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 15/المقدمة، ص406.

[5] جرجير: ملك جزء من المغرب قبيل الفتح الإسلامي. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 159.

[6] ابن خلدون العبر، ج6، ص 215.

[7] نفسه، العبر، ج6، ص213–215؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 73؛ كلود كوهن: المرجع السابق، ص 253.

[8] المقدمة، ص 406.

[9] أقيال: هم الملوك دون الملك الأعظم. ابن منظور: المصدر السابق، ج11، ص 576.

[10] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 213؛ عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 128.

فكان للبربر بضواحيهم قوة وكثرة وملكا لكل قبيلة منهم، وأما عمران الضاحية، فقد كان عمرانا بدويا، عكس العمران الحضري بالأمصار والقرى والمدن التي يعتصم بها ويتحصن بجدرانها،[1]فكان عمران الضاحية يعتمد على الخيام،[2]ويتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أومن الطين والحجارة غير منجدة قصد الاستضلال.[3]

ومما يجب الإشارة إليه، أن الضواحي شكلت على ما يبدو حجر عثرة أمام تقدم حركة الفتح الإسلامي، فبعد انتصارات المسلمين على جرجير، انساحوا في البسائط بالغارات، فافترق أمر الفرنجة وصاروا إلى الحصون،[4]في حين وقع بينهم وبين البربر– أهل الضواحي– زحوف وقتل وسبي،[5] وربما هذا ما رمى إليه موريس لومبار، عندما قارن بين سهولة فتح العرب للمدن، واصطدامهم بمقاومة في الهضاب والجبال والصحاري،[6]لا سيما أن الضواحي كانت تمثل مركز تجمع هام للقبائل البربرية، فهي على حد وصف ابن خلدون بها ما شاء من القوة وعدة وعدد ملوك، فلا غرابة إذا في وقوع اصطدام بينهم وبين حملات الفتح الإسلامي،[7]وعلاوة على هذا، فإن أهل الضاحية شجعان يدافعون على أنفسهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون في كل جانب من الطرق.

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص71–72.

[2] العبر، ج6، ص27.

[3] المقدمة، ص 149.

[4] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 216.

[5] نفسه، العبر، ج6، ص215؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص84.

[6] الإسلام في مجده الأول من القرن2 –5هـ/8–11م، ترجمة إسماعيل العربي، ط3، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990، ص 82.

[7] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 213.

فكانت الضاحية كثيرة العدد وتتمتع بالاستقلالية إذ تعود كل واحدة منها إلى ملكها، فضلا على شجاعتهم لتفردهم عن المجتمع ولبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب.[1]
وقبل أن نخوض في النشاط الاقتصادي للضاحية، يجب أن نشير إلى مصطلح آخر، ربما يحمل نفس المعنى وهو البادية[2] وبذلك يكون نشاط أهل الضاحية، هو النشاط البدوي الذي يشمل الزراعة والرعي في آن واحد.[3] إلا أن الظعن في الضواحي لا يتطلب الإبعاد في الرحلة، وذلك لتربيتهم الغنم والمواشي فقط دون الإبل.[4]
وبذلك يكون أهل الضواحي من الرحالة الصغار، حيث يجمعون بين القيام بأعمال الزراعة والرعي في آن واحد، فهم يملكون الأراضي للزراعة وأراضي للرعي.[5]
يمكننا رصد الضواحي بالمغرب الأوسط خلف مدنه وأمصاره ومن ذلك: نذكر ضواحي مدينة جزائر بني مزغنة،[6] كما كان حول مدينة تاهرت الكثير من القبائل البربرية،[7] التي بلغت درجة كبيرة من الثراء، فيصفها ابن الصغير المالكي (عاش في القرن 3هـ): "كانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول، قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة."[8]

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص 153.

[2] البادية: قيل للبادية بادية لبروزها وظهورها وقيل للبرية بادية لأنها ظاهرة بارزة. ابن منظور: المصدر السابق، ج14، ص 67.

[3] ابن خلدون: المقدمة، ص 149.

[4] نفسه، ص149.

[5] محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984م، ص 22؛ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج1، ص 75؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص 272.

[6] الإصطخري: المصدر السابق، ص 38؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 81.

[7] ابن الصغير المالكي: المصدر السابق، ص 52؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص250.

[8] ابن الصغير المالكي: المصدر السابق، ص 63.

وحول مدينة المسيلة،[1] أيضا الكثير من القبائل البربرية،[2]وكذلك حول باغاية،[3] وقسنطينة [4] وبونة،[5] وعموما نجد الضواحي حول الكثير من مدن وأمصار المغرب الأوسط. [6]

– بربر الديار والأرياف:

أما النمط الثالث من الساكنة البربرية فقد ورد عند ابن خلدون (ت 808هـ /1405م) باسم الأرياف والديار، فالديار: هي كل أرض واسعة بين الجبال، وجمعها دور ودارات، كما تعني الدار؛ المحل الذي يجمع البناء والعرصة.[7]

وبذلك يكون بربر الديار هم الذين يتوزعون في البسائط والأراضي الواسعة التي تتخللها الجبال، ويكون لهم فيها مباني ومن ذلك ديار سدويكش،[8]في مواطن كتامة ما بين قسنطينة وبجاية

---

[1] المسيلة: مدينة استحدثها أبو القاسم بن عبيد المهدي وتسمى أيضا المحمدية بنيت سنة 315هـ/928م. أبو عبد الله محمد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، (د ت)، ص 45؛ أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح جمال الدين الشيال، ط1، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجنة إحياء التراث، (د م)، (د ت)، ص 72.

[2] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 89.

[3] اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190.

[4] ابن خلدون: العبر، ج4، ص 75.

[5] بونة: مدينة مقتدرة وهي على نحر البحر وهي مدينتان قديمة تعود للرومان وحديثة بناها عرب الفتح تسمى بلاد العناب. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 75؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 233؛ العبدري: المصدر السابق، ص 33. نفسه، ص 81.

[6] ضواحي مقرة، نقاوس، طبنة، تنس، وهران، بسكرة. أنظر اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 82؛ البكري، المصدر السابق، ج2، ص 228–255؛ مجهول: الاستبصار: ص 176.

[7] ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص 296–298.

[8] سدويكش: من بطون كتامة. ابن خلدون: العبر، ج6، ص303.

في البسائط منها[1]وبلاد بجاية وقسنطينة ديارا لزواوة وكتامة وعجيسة[2]وهوارة،[3]فكانت البسائط التي تحف بها الجبال ديارا للكثير من القبائل البربرية وبطونها.

أما الريف: فهو الخصب والسعة في المأكل والجمع أرياف ويعني أيضا كل أرض فيها زرع وخصب،[4] ومن أهم مميزات المغرب الأوسط الطبيعية؛ كثرة الأراضي الخصبة،[5] وهو ما أدى إلى وجود الأرياف وانتشارها في مختلف جهاته، بل شكلت الأرياف على ما يبدو مساحات واسعة من بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي،[6]ولقد استمر التواجد البربري في الأرياف بعد الفتح الإسلامي، حيث لم يفلح عرب الفتح في تغيير تركيبة سكان بادية الشمال الإفريقي وأريافه.[7]

وعموما نجد في المصادر الجغرافية ذكرا للكثير من أراضي المغرب الأوسط، التي اتسمت بالخصب وكثرة الزرع، ومن ذلك فحص متيجة الذي يصفه اليعقوبي(ت بعد 292هـ/905م) بالبلد الواسع وبأنه بلد زرع وعمارة،[8]ويسميه البكري(ت 487هـ/1094م) قزرونة ولها مزارع

(1)فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، ج4، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423هـ، ص394؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص303.

(2) عجيسة: من بطون البرانس من ولد عجيسة بن برنس. ابن خلدون: العبر، ج6، ص295.

(3) هوارة: من أبناء أوريغ بن برنس. ابن حزم: المصدر السابق، ص 450؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 283. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 65؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 149. وهناك من جعلها من العرب التيجاني: المصدر السابق، ص 192؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 93؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 180؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 207. ولقد دخلت بطون أداس بن زحيك (من البتر) كلها في هوارة وذلك لزواج أب هوارة بأم أداس. ابن حزم: المصدر السابق، ص 450؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 283–284؛ عمر تابليت: هوارة ودورها في تاريخ المغرب منذ بداية ثورات الخوارج أواخر القرن 1هـ/7م حتى نهاية ثورة مخلد بن يزيد بن كيدا (335هـ/946م)، ط1، دار الألمعية، قسنطينة، 2011م، ص 88. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 204.

(4) ابن منظور: المصدر السابق، ج9، ص 129.

(5) أمحمد بوشريط: الزراعة بالمغرب الأوسط الإمكانيات والخصائص، مجلة الناصرية، ع4/جوان 2013، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، معسكر، ص 370.

(6) موريس لومبار: المرجع السابق، ص 81؛ كلود كوهن: المرجع السابق، ص 232–233.

(7) عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 93؛ عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 126.

(8) المصدر السابق، ص 191.

ومسارح[1]ويصفه آخر بالفحص العظيم كثير الخصب،[2]وهو سهل يتربع على مساحة كبيرة فطوله يبلغ خمسة وأربعون ميلا وعرضه ستة وثلاثون ميلا،[3] إضافة إلى فحص سيرات الذي يبلغ طوله أربعة مائة ميل، تسكنه قبائل كثيرة من البربر كذلك فحص عجيسة الذي يوصف بالمديد،[4]كما تشرف مليانة على فحص مديد،[5]ولا يمكن ذكر كل الأراضي التي وصفتها المصادر بالخصب وكثرة الزرع بالمغرب الأوسط، نظرا لكثرتها ويحدد ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م)مجال توزع القائمين بالفلح والزراعة على القرى والجبال.[6]

فقد شكلت القرى المكان الذي اجتمع فيه بربر الأرياف،[7]والقرية مركز توطين ريفي يفتقر إلى مؤسسات إدارية وإلى سلطة سياسية هامة، وقد توجد في السهول والجبال على حد سواء فالقرية وحدة استغلال زراعي قائمة على الزراعات السنوية، والغراسات وتمتاز القرى الإفريقية بقلة سكانها.[8]

ونجد الكثير من القرى بالمغرب الأوسط ومن بينها نذكر قرى وادي شلف،[9]وقرية دكمة وأوجيست والغالب على سكانهما كتامة،[10]وقرية مهريتين تقع في فحص والغالب عليها البربر

---

[1] البكري: المصدر السابق، ج2، ص 247.

[2] مجهول: الاستبصار، ص 132.

[3] الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 37.

[4] مجهول: الاستبصار، ص 167-178.

[5] البكري: المصدر السابق، ج2، ص 251.

[6] ابن خلدون: المقدمة، ص 149.

[7] عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 95؛ عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 188.

[8] محمد حسن: المرجع السابق، ص 18-22.

[9]اليعقوبي: المصدر السابق، ص 197.

[10] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 90-91؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 85-86.

وهي لمزاتة،[1] ولكتامة وكانت لهم أيضا قرية تامسنت[2] كما كان بالزاب[3] الكثير من القرى،[4] ولا يقتصر وجود القرى في الأراضي السهلية والهضاب فحسب، بل توجد أيضا في الجبال،[5] بل يجعل أحد الدارسين الجبال خاصة بالمجال الريفي.[6]

ولقد شكلت الجبال بالمغرب الأوسط مركزا هاما لتوزع القبائل البربرية، وربما ساهمت السياسة الرومانية التي سعت إلى إحكام سيطرتها على الأراضي المستوية في توجه البربر نحو الجبال.[7]

وبذلك كانت الجهات الجبلية الأكثر ديناميكية والأكثر سكانا،[8] حتى اعتبر بعضهم الجبال الخزان الديموغرافي للمغرب،[9] ويمارس سكان الجبال أعمال الفلاحة،[10] إضافة إلى تربيتهم للمواشي في نفس الوقت،[11] حيث شكلت الجبال المكان الملائم لتربية الأبقار والأغنام، فقد كانت لجزائر مزغنة جبال فيها من البربر كثرة، وأكثر أموالهم من البقر والغنم سائمة في

---

(1) مزاتة: من أكبر بطون لواتة وهي من البربر البتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 497؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 90؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 85.

(3) الزاب: بلد واسع يضم الكثير من المدن والقرى مثل باغاية، بسكرة، طبنة، المسيلة. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190؛ مجهول: الاستبصار، ص 171–175؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 527؛ الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 123–124.

(4) البكري: المصدر السابق، ج2، ص 255؛ الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 49.

(5) محمد حسن: المرجع السابق، ص 18.

(6) واعمر اعشيوشن: المنطقة الريفية والمنطقة الحضارية في جنوب نوميديا، ملتقى وطني الريف والمدينة في الجزائر القديمة، 6و7نوفمبر2013م، العلوم الإنسانية، فرع الآثار، جامعة معسكر، ص 25.

(7) عقون محمد العربي: المرجع السابق، ص 171.

(8) دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص 238.

(9) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 235.

(10) محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 21–22؛ جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص 249؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص272.

(11) عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 198–199؛ رضا بن النية: المرجع السابق، ص 23.

الجبال ولهم العسل والسمن والتين،[1]وجبل الرحمان بجيجل[2]تسكنه قبائل البربر من كتامة وغيرهم وفيه مزارع ومراع مريعة،[3]وتنتشر قبائل كتامة في الجبال بين جيجل وبجاية[4]وبطون زواوة– بني غبرين– بجبل زيري،[5]وبطون أخرى بين جبال بجاية وتدلس [6]وكانت قبائل من صنهاجة بجبل تيطري.[7]

ومن أهم الكتل الجبلية التي شكلت مستقرا رئيسيا لأمم كثيرة من البربر بالمغرب الأوسط جبل أوراس،[8]الذي كان به المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة.[9]

---

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 81؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 114.

(2) جيجل: مدينة قديمة على البحر. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 269؛ مجهول: الاستبصار، ص 128.

(3) البكري: المصدر السابق، ج2، ص269.

(4) مجهول: الاستبصار، ص 128؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 124؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 37؛ العمري: المصدر السابق، ج4، ص 394؛ الحاج عبد الله بن الصباح: أنساب الأخيار وتذكرة الأخبار، ط1، دار أبي رقراق، الرباط، 2008م، ص 102.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 262.

(6)تدلس: مدينة تبعد عن بجاية بسبعين ميل برا وتسعين ميلا بحرا وهي مدينة لها سور حصين. الإدريسي: المصدر السابق، ص 115.

(7) نفسه، ص 153؛ ياقوت الحموي: المرجع السابق، ج1، ص 202.

(8) لقد جعلت المصادر جبل أوراس موطنا للكثير من القبائل البربرية مثل كتامة، لواتة، هوارة وبطون من زناتة وغيرها. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 214؛ الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 278؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص235–287/المقدمة، ص 90؛ موسى رحماني: الأوراس في العصر الوسيط من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر 27–362هـ/637–972م، مذكرة ماجيستر، إشراف بوبة مجاني، جامعة منتوري، قسنطينة، 1427–1428هـ/2006–2007م، ص 108–118؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 86؛ عمر تابليت: المرجع السابق، ص 24.

(9) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 120.

ويقدر طوله بـ اثنى عشر يوما،[1]وكان أهل الأوراس يملكون قطعان الماشية من الغنم والبقر،[2]وهم الرعاة الذين سماهم ابن خلدون بالشاوية،[3]فهم لا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة.[4]

وإلى جانب جبل أوراس كانت الكثير من القبائل البربرية تسكن بجبل ونشريس، ويبلغ طوله أربعة أيام.[5]وبذلك كان للقبائل البربرية انتشار واسع في الأرياف التي أقاموها في السهول والجبال ليزاوجوا بذلك بين ممارسة الفلاحة من جهة وتربية المواشي من جهة ثانية.

– بربر المجالات:

شكلت المجالات موطنا هاما للكثير من القبائل البربرية، والمجالات لغة؛ مأخوذة من مجل والمجل أثر العمل في الكف، يعالج بها الإنسان الشيء حتى يغلظ جلدها، ومجلت الكف وتمجل ومجلا نفطت من العمل فمرنت وصلبت وثخن جلدها وتعجر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل،[6]ذلك أن المجالات محل النزاع والصراع بين القبائل، أي موضع القلاقل قصد التوسع والسيطرة على أكبر قدر ممكن منها،[7]ولذلك كانت سببا في عداء القبائل البربرية وإثارة الحروب والفتن بينها.[8]ويحدد ابن خلدون(ت808هـ/1405م) الحدود المغربية الجنوبية بالعرق،[9]الذي هو حد المغرب من جهة القبلة، وهو سياج عليه من الجنوب مبتدئ من البحر

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 120.

(2) موسى رحماني: المرجع السابق، ص 142.

(3) الشاوية: رجل شاوي صاحب شاة. ابن منظور: المصدر السابق، ج13، ص 510.ويعرف ابن خلدون كلمة شاوي بالقائمين على الشاة والبقر. المقدمة، ص 149.

(4) نفسه، ص 149.

(5) نفسه، ص149.

(6) ابن منظور: المصدر السابق، ج11، ص 616.

(7) دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج2، ص183.

(8) الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج2، ص 177.

(9) العرق: الرمال المتهيلة الماثلة حجزا بين بلاد السوادن وبلاد البربر وتعرف عند العرب الرحالة بالعرق. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 197.

المحيط، وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد، إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر وعرضه ثلاث مراحل ويزيد،[1]وإلى العدوة الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل اللثام من صنهاجة.[2]

وفي العدوة الشمالية من هذا العرق مجالات البادية للبربر،[3]ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه وهي الجبال،[4]لتمتد بذلك مجالات القبائل البربرية من شمال هذا العرق إلى الجبال المحيطة بالتلول، فبين هذا العرق وهذه الجبال بسائط ومفاوز أكثر نباتها الشجر،[5]وخلال حديث ابن حوقل(ت367هـ/977م) عن المفاوز والقفار التي تمتد من أرض مصر إلى نواحي عمل إفريقية يقول: «فكانت هذه البراري والمفاوز التي بين بلاد السودان والمغرب يسكن البربر في أطرافها.»[6]

ويعد تاريخ دخول البربر إلى الصحراء واستعمالهم للإبل من الإشكاليات التي لا يزال الباحثون يخوضون فيها، إلا أن عبد الله العروي يرجع توغل البربر في الصحراء إلى سياسية روما التوسعية على حساب الأراضي الزراعية،[7]مرجعا في ذات الوقت سبب تفوق البربر على الزنوج في الصحراء إلى استعمالهم للجمل،[8]والذي يبدو أنه كان بأعداد كبيرة.

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 198.

(2) صنهاجة اللثام: وتسمى أيضا صنهاجة الجنوب وهم شعوب كثيرة منها كزولة، لمتونة، مسراتة، لمطة وريكة وغيرها كانت مجالاتهم جنوب العرق صحراء نيستر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها تجارة ما بين المغرب والسودان. ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 1492؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 74؛ النويري: المصدر السابق، ص 377–378؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 200–211–311/المقدمة، ص 88–90؛ العمري: المصدر السابق، ج4، ص100؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 152–153؛ إبراهيم القادري بوتشيش: مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين: ط2، مطبعة سجلماسة الزيتون مكناس، المغرب، 2014م ص 17–18.

(3)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 198.

(4) نفسه، العبر، ج6، ص198.

(5) نفسه، العبر، ج6، ص198.

(6) المصدر السابق، ص 87.

(7) المرجع السابق، ج1، ص 109.

(8) نفسه، ج1، ص109.

إذ يقول ابن حوقل (367هـ/977م): «وعندهم–البربر–من الجمال الكثير في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيهم في الكثرة إبل العرب.»[1]

وفي أواخر العهد البيزنطي عرفت المجالات التي يتردد عليها الجمالون اتساعا كبيرا،[2]مرده طبعا لفشل البيزنطيين في مد نفوذهم نحو الهضاب المرتفعة والمناطق الصحراوية حيث كانت القبائل الرحل تنتقل بكل حرية.[3]

وتربية الإبل والقيام عليها هو النشاط الغالب على بربر المجالات،[4]وهو الذي يدفعهم إلى الانتجاع والإظعان والإبعاد في القفر، ذلك أن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه المالحة، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد إلى دفاءة هوائه، وطلبا لمخاض النتاج في رماله إذ الإبل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفاءة فاضطروا إلى إبعاد النجعة كما أن وجود الحاميات في التلول قد دفعتهم إلى التوغل في القفر نفرة عن الضعة منهم،[5]فبربر المجالات أكثر رفضا للأحكام وبعدا عن الهضيمة وذل المغارم،[6]وربما هذا ما يفسر صعوبة التحكم في المنافذ الصحراوية، وبسط الدول يدها عليها،[7] ويحدد الوزان (ت 947هـ/1550م) إقامة البربر الرحل بثلاث أو أربعة أيام على أكثر تقدير، وذلك ريثما ترعى إبلهم كلأ المكان،[8]وهم ينتقلون في طرق متغيرة غير معروفة.[9]

---

[1]المصدر السابق، ص 98.

[2]موريس لومبار: المرجع السابق، ص 79.

[3]نفسه، ص 81.

[4]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 176/المقدمة: ص 150.

[5]نفسه، ص150.

[6]نفسه، العبر، ج6، 245.

[7]دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص 178.

[8]المصدر السابق، ج1، ص 59.

[9]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 21.

ويربط ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1405م) الظعن والانتجاع بكثرة العدد وقوة عصبيات القبائل،[1]فنتاج الإبل هو معاش المعتزين أهل الانتجاع والإظعان،[2]ولقد ساهمت البداوة التي تعيشها القبائل في المجالات والقفار في الحفاظ على قوة عصبيتها، إذ لم يتركوا البداوة والخشونة ولم يتورطوا في مهلكة الترف، ولا غرقوا في بحر النعيم،[3]وإلى جانب تربية الإبل فإن معاشهم أيضا يقوم على قطع السابلة وضلال الرماح، [4]وهو ما أدى إلى اشتداد الصراع بين القبائل الساكنة في المجالات.

ومن القبائل الناجعة ما ذكره ابن الصغير المالكي(عاش في ق 3هـ/9م)عن قبائل مزاتة وسدراتة،[5]وغيرهم الذين كانوا ينتجعون من أوطانهم في موسم الربيع إلى جهات تاهرت وأحوزها لما حولها من الكلاء، ثم يعودون بشياههم وبعيرهم إلى ظعنهم،[6]ومن أهم القبائل الناجعة بالمغرب الأوسط، قبيلة لماية؛[7]حيث كان جمهورهم بالمغرب الأوسط موطنين بتخومه ممايلي الصحراء،[8]حيث كانوا ضواعن [9]بأرض السرسو قبلة منداس،[10]وكانت قبيلة

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 175–176.

[2] نفسه: العبر، ج6، 175–176.

[3] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 07.

[4] نفسه، العبر، ج6، 176.

[5] سدراتة: من بطون لواتة فهم من ولد لوى بن لوى الكبير من البربر البتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496–497. ولقد دخل نسب سدراتة في مغراوة وذلك لزواج أب مغراوة من أم سدراتة فصار سدراتة أخا لمغرواة لأمهم واختلط نسبهم بهم. نفسه، ص496؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 66؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 235.

[6] المصدر السابق، ص 47؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 121.

[7] لماية: من بطون فاتن بن تمصيت بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180.

[8] نفسه، العبر، ج6، ص 246.

[9] نفسه، العبر، ج6، ص246؛ الدراجي بوزيان: ج1، ص 118.

[10] نفسه، ج1، 118.

زواغة[1]من ناحية الغرب عنهم،[2]وكانت مطماطة ومكناسة[3]وبطون من زناتة من ناحية الجوف من الشرق،[4]وهي نفس القبائل التي حدد البكري(ت 487 هـ / 1094م) موضعها بالنسبة لمدينة تاهرت.[5]

كما كان جيران قبيلة لماية بجهات تاهرت لواتة وهوارة،[6]حيث كان من لواتة أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة حيث كانوا ظواعن،[7]ووقعت فتنة بينهم وبين بني وجديجن،[8] ورغم أن السبب يعود إلى امرأة، إلا أن نتائج الصراع تعطي له أسباب أعمق بكثير، وأكبر من تعيير امرأة من بني وجديجن كانت عند لواتة بالقفر، حيث استولى بني وجديجن على مواطن لواتة بمنداس،[9]ففرت وانتهى بها الأمر إلى جبل دراك[10]وبذلك يكون الدافع الحقيقي لهذا الصراع، هو السيطرة على مواطن لواتة في المجالات التي قبلة تاهرت.

---

[1] زواغة: بنو سمكان بن يحي بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180.

[2] نفسه، العبر، ج6، ص 246؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 118؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 116.

[3] مكناسة: وهم من بنو ورسطف بن يحي بن ضري بن مادغيس الأبتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180.

[4] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 246؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 118؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 116.

[5] المصدر السابق، ج2، ص 249.

[6]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 246؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 118؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 116.

[7] ابن خلدون، ج6، ص 236؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 274.

[8] بنو وجديجن: بطن من زناتة من ولد ورتنيص بن جانا وكان لهم عدد وقوة وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط ومواطنهم منه بمنداس ما بين بني يفرن من الغرب ولواتة من جانب القبلة ومطماطة من جانب الشرق. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 103.

[9]نفسه، العبر، ج6، ص 237.

[10]نفسه، العبر، ج6، ص 237.

لا سيما وأن لواتة وبنو وجديجن كانوا جيرانا بمواطنهم في منداس[1]وبذلك أضاف بنو وجديجن مواطن لواتة التي كانت بأرض السرسو، إلى مواطنهم الأولى بمنداس،[2] إلى جانب بني وجديجن فقد كانت لمطماطة مع لواتة فتن وحروب،[3]إلا أنها دخلت في صراع جديد مع بني وجديجن، الذين تمكنوا من إخراج مطماطة أيضا من تلول منداس، ودفعها إلى جبل ونشريس.[4]

وبذلك أحكم بنو وجديجن سيطرتهم على المجالات التي بقبلة تاهرت إلى أن ضعفت عصبيتهم وخضدت شوكتهم فتغلب عليهم بنو يلومي[5]وبنو ومانو[6]كل من جهته،[7]أما قبلة تلمسان فنجد الكثير من القبائل البربرية الناجعة ومن ذلك مطغرة،[8]التي كانت على بعد ستة مراحل من تلمسان،[9]كما كانت الأراضي القفار التي تمتد بين ملوية وأرض الزاب لبطون من قبائل زناتة،[10]والتي كانت محل نزاع وصراع بين بطون بني بادين[11]وبني واسين.[12]

---

[1]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 237.

[2] نفسه، العبر، ج7، ص 318–319.

[3] نفسه، العبر، ج6، ص246.

[4]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 254؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 129.

[5] بنو يلومي: من بطون زناتة ومن توابع الطبقة الأولى منها ولا يرفع نسبهم إلى جانا لكن نسابتهم متفقون على أن بنو يلومي وورتاجين الذي هو أبو مرين إخوة، مواطنهم بالمغرب الأوسط بالعدوة الغربية من وادي ميناس بالبطحاء الجعبات وسيك وسيرات وجبل هوارة وجبل بني راشد. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 114.

[6] بنو ومانو: من بطون زناتة ومن توابع الطبقة الأولى ولا يرفع نسبهم إلى جانا مواطنهم بالمغرب الأوسط على الجهة الشرقية من وادي ميناس في منداس ومرات وأسافل شلف، نفسه، العبر، ج7، ص114.

[7] نفسه، ج7، ص 104.

[8] مطغرة: من ولد فاتن بن تمصيت بن حريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر. نفسه، العبر، ج6، ص 180.

[9] نفسه، العبر، ج6، ص245.

[10] نفسه، العبر، ج7، ص 127–128–129.

[11] بنو بادين: وهم من بطون زناتة وهم من الطبقة الثانية ينقسمون على أربعة بطون وهي بنو عبد الواد، بنو توجين، بنو زردال، ويضاف لهم بنو راشد الذي يعتبر أخوهم. نفسه، العبر، ج7، ص 129.

[12] بنو واسين: من بطون زناتة من الطبقة الثانية وهم بنو زاكيا بن ورسيك بن جانا وإخوة مغراوة وبنو يفرن. نفسه، العبر، ج7، ص 10.

وعموما فإن المتتبع لتاريخ ابن خلدون، يقف بوضوح على ملامح الصراع القبلي الدائر بقوة، حول المجالات وتوالي القبائل ذات العصبية، والكثرة على امتلاكها وتداولها على التحكم فيها وهو الأمر المرهون طبعا بقوة عصبيتها.

2–ميلاد مجتمع المغرب الأوسط في القرن 2هـ/8م:

ألمع ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) في سياق حديثه عن الأبعاد السياسية والاجتماعية والحضارية والجغرافية للمغرب الأوسط عن دور قبائل زناتة في رسم هوية المغرب الأوسط السياسية والاجتماعية والحضارية والجغرافية منذ القرن الثاني للهجرة / الثامن ميلادي وذلك نظرا للأدوار التي اضطلعت بها قبائل زناتة في الصراع العسكري والمذهبي والسياسي والاقتصادي الذي كان المغرب الأوسط مسرحا له، فمن أهم الإشكاليات التي تعترض الباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب الأوسط هي مظاهر الأبعاد التي طبعت بها قبائل زناتة المغرب الأوسط؟

أ–زناتة[1] المغرب الأوسط (القبيلة و الأبعاد):

يشير ابن خلدون(ت808هـ/ 1405مـ) في حديثه عن توزع القبائل الزناتية، إلى انتشارها الواسع فيذكر مواطنهم الموجودة في سائر مواطن البربر بإفريقية و المغرب، [2] لكنه يربط وبكل وضوح بين زناتة والمغرب الأوسط، الذي كان ديار لها، [3] فجمهورهم به حتى أنه ينسب إليهم، و يعرف بهم فيقال المغرب الأوسط وطن زناتة، [4]فالمغرب الأوسط عنده عبارة

---

[1] زناتة: هو جانا أو شانا بن يحي بن صولات بن ورماك بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن حزن: المصدر السابق، ص495؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص04. واختلفت المصادر العربية حول نسب زناتة حيث أرجعها البعض إلى النسب العربي. الإدريسي: المصدر السابق، ص112؛ التيجاني: المصدر السابق، ص142؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص200؛ أبو عبد الله محمد الخطيب ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر وماحسن مولانا أبي الحسن، تحماريا خيسوس بيغيرا، موفم للنشر، الجزائر،2011م، ص107؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص365. في حين ترجعها مصادر أخرى إلى النسب البربري. ابن حزم: المصدر السابق، ص495؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص180؛ عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج7، ص04؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص233؛ إسماعيل بن علي أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، ط1، ج1، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، (د ت)، ص 97؛ القلقشندي: نهاية الآرب في أنساب العرب، ص273.

[2] العبر، ج7، ص 04.

[3] نفسه، العبر، ج6، ص 203؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص 191.

[4] العبر ، ج7، ص 04؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 18.

عن كنية جغرافية تدل على المواطن التي كانت تستقر فيها القبائل الزناتية، [1] وهو الممتد من وادي ملوية غربا إلى واد الشلف والزاب شرقا، ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تاهرت جنوبا. [2]إن هذا التقسيم استند أكثر إلى توزيع قبلي صرف يعود إلى مرحلة ما قبل القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر ميلادي .[3]

حيث اختزل المغرب الأوسط بحدود القبائل الزناتية، وإن صدق ابن خلدون (ت 808 هـ /1405م) في تحديد مناطق زناتة بالجهات الغربية من المغرب الأوسط، [4]فإنه ومن الصعب ضبط حدود المغرب الأوسط بكل دقة، في ظل ديمومة حركة القبائل البربرية والعربية، وحالة القوة والضعف للدول التي تعاقبت على حكمه ودورها في استثمارها هذه القبائل لخدمة أغراضها السياسية والعسكرية ودعواتها المذهبية، ومطامعها الاقتصادية، رغبة في التوسع، والسيطرة والهيمنة. [5] وبذلك يكون التقسيم الخلدوني رهين زمن معين، لا يتجاوز على ما يبدو القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي.

ويؤكد ابن خلدون(ت808هـ /1405م) على أولية زناتة بإفريقية والمغرب، فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلا الله تعالى،[6]ويرجع محمد بن عميرة وجود اسم زناتة بالمغرب إلى العهد الروماني،[7]ويبدو أن بعض القبائل الزناتية قد حالفها

---

[1] الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7هـ/12و13م، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص 29.

[2] ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 04–203؛ الطاهر بونابي: التصوف، ص 29؛ عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، الجزائر، 1314هـ/2014م، ص 11.

[3] الطاهر بونابي: التصوف، ص 29؛ عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط، ص11.

[4] عن انتشار بطون زناتة بالجهات الغربية من المغرب الأوسط. أنظر اليعقوبي: المصدر السابق، ص198؛ الإصطخري: المصدر السابق، ص 44؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 259؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 111.

[5] الطاهر بونابي: التصوف، ص 29.

[6]العبر، ج7، ص14.

[7] دور زناتة، ص15.

الحظ في إنشاء إمارات محلية مستقلة، خلال العهدين الوندالي والبيزنطي[1] كما يلمح أيضا إلى افتراق رئاسة البربر في شعوبهم، بعد فرار الإفرنجة من المغرب، مبينا أن زناتة في ذلك الوقت من أعظم قبائل البربر وأكثرها جمعا وبطونا،[2]وهو ما أهل بعض بطونها إلى تسلق مراتب الملك قبيل الفتح الإسلامي، حيث كانت الكثرة والرئاسة في زناتة قبل الإسلام لجراوة،[3]ثم لمغراوة[4]وبني يفرن،[5]وخلال حديثه عن انتقال الملك داخل الأمة من جيل إلى جيل، يصف مغراوة بالملك الأول،[6]وأنهم أوسع بطون زناتة وأهل البأس ولمغراوة شعوب وبطون كثيرة مثل بني يلنت وبني زنداك وبني وراق وورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورسيفان ولغواط وبني ريغة، وغيرهم.[7]

وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط، من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها،[8]ليكون وادي شلف قرار عزهم ومنشأ جيلهم ومركزهم الأول،[9]بل كان نزول أجانا وهو أبو زناتة كلها بوادي شلف،[10]ولقد كان لبطون مغراوة انتشار واسع بضواحي وقفار المغرب الأوسط،[11]كما كان لمغراوة في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام، وهو الملك البدوي

(1) عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 113–114؛ موريس لومبار: المرجع السابق، ص 81–82؛ عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط، ص 14.

(2) العبر، ج7، ص 17.

(3) جراوة: من ولد كراو بن الديرت بن جانا مواطنهم بجبل أوراس رئاستهم خلال الفتح الكاهنة دهيا بنت بن نيعان بن بارو بن مصكسرى بن أفرد بن وصيلا بن جراو.ابن خلدون: العبر، ج7، ص10؛ موسى رحماني: المرجع السابق، ص 114.

(4) مغراوة: من ولد يصلتن بن مصرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا بن يحي ومغراوة جد بني مغراوة. ابن حزم: المصدر السابق، ص 497؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 50؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 131.

(5) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 15.

(6)نفسه، المقدمة، ص175.

(7) العبر، ج7، ص50.

(8)نفسه، العبر، ج7، ص50.

(9) نفسه، العبر، ج7، ص 130–131.

(10) نفسه، العبر، ج6، ص183.

(11) البكري: المصدر السابق، ج2، ص 254؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 96–101.

الذي لم يفارقوا فيه سكن الخيام والظعن وإيلاف الرحلتين،[1] فقد بقت صفة البداوة غالبة عليهم، وبيئة الصحراء تجذبهم، ومواشيهم وأنعامهم وخيولهم هي خير ما يملكون.[2]

وكان أمير مغراوة وزناتة عند الفتح الإسلامي خزر بن حفص بن صولات بن وزمار،[3]والذي اختلفت المصادر حول طريقة اتصاله بالخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، أكان عن طريق الأسر أم هاجر إليه؟،[4]لكن الذي يهمنا أكثر أن سيدنا عثمان رضي الله عنه عقد له على قومه ووطنه، [5]ويبدو أن ملك بني خزر قد قوي أكثر، وعظم شأنهم خلال الثورات والفتن، التي عرفها المغرب أواخر العهد الأموي مع مطلع القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي ، حيث استمر أبناء صولات بن وزمار في وراثة ملك مغراوة ،وزناتة بالمغرب الأوسط فكان الأمر بعده لأنه حفص ثم لابنه خزر.[6]

وبذلك نجاح زناتة ممثلة في أقوى بطونها مغراوة في الحفاظ على إمارة مستقلة بنواحي المغرب الأوسط، خلال القرن الأول ومطلع القرن الثاني من الهجرة، فقد هلك خزر حسب ابن خلدون (ت808هـ/1405م) خلال الفتنة التي عرفها المغرب، بعد أن فض أمر بني أمية بالمشرق 132هـ /750م،[7]لكن للأسف لا يقدم لنا الظروف التي هلك فيها ملك مغراوة خزر، بل نجده ينتقل مباشرة إلى الملك الذي تأتى أيضا لبني يفرن، والذين كان منهم بإفريقية وجبل

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 50–51.

(2) موسى لقبال: المرجع السابق، ص 59.

(3) ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 252؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 169؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 107؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 216؛ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي: تاريخ دولة الأدارسة –من كتاب نظم الدرر والعقيان–، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 53.

(4) حول اتصال صولات بن وزمار بالخليفة عثمان أنظر ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 252؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 169؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 216؛ التنسي: المصدر السابق، ص 53.

(5) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 50–51.

(6)نفسه، العبر، ج7، ص 50–51.

(7) نفسه، العبر، ج7، ص 51.

أوراس، والمغرب الأوسط بطونا وشعوبا.[1]لاسيما بنواحي تلمسان وبينها وبين تاهرت،[2] وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح الإسلامي أكثر قبائل زناتة وأشدها شوكة،[3]وكان رئيسهم خلال فترة انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس 132هـ/750مـ أبي قرة،[4]والذي نسبه ابن خلدون(ت808هـ/1405م) إلى بني يفرن رغم وجود اختلاف بين المؤرخين في ذلك. [5]

ومما يلاحظ أن حديث ابن خلدون حول إمارة أبي قرة اليفرينية كان بعد أن هلك خزر من جهة، وخلال المرحلة الانتقالية من الدولة الأموية إلى العباسية من جهة ثانية، وإن اختلف المؤرخون حول نسب أبي قرة غير أنهم أجمعوا على أنه من الثوار الصفرية،[6]ويبدو أنه لم يكن متشبعا بالعقيدة الصفرية، بقدر ما اتخذها ذريعة للاستقلال بالمنطقة.[7] ويشير ابن خلدون(ت808هـ/1405م) إلى أنه تولى أمر زناتة خلفا لثائر خالد بن حميد الزناتي.[8]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 15.

[2]نفسه، العبر، ج7، ص 22.

[3] نفسه، العبر، ج7، ص 35.

[4] نفسه، العبر، ج7، ص 22–24.

[5] نسب أبو قرة: تختلف المصادر حوله بين من يجعله من مغيلة ومن يجعله من بني يفرن. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 77؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص 225–226؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 169؛ السلاوي: المصدر السابق، ج1، ص 181.

[6] خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 389؛ الطبري: المصدر السابق، ج8، 42؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 829؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 169؛ النويري: المصدر السابق، ص 234؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 226. أما الصفرية فهي فرقة من الخوارج وهم اتباع زياد بن الأصفر. الشهرستاني: المصدر السابق، ص 110؛ رابح بونار: المرجع السابق، ص 65–66.

[7] عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 146؛ عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 174.

[8] العبر، ج7، ص 24، محمد بن عميرة: دور زناتة، ص86؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص 349. أما خالد بن حميد الزناتي فهو الذي تولى أمر الخوارج الصفرية بعد ميسرة المطغري 124هـ/ 740. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 354؛ عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، (د م)،1415هـ، ج1، ص 248.

فقد جمع حوله البربر بتلمسان،[1]ودخلت أكثر من قبيلة في إمارته خاصة بني يفرن ومغيلة،[2] وكذلك قومه سائر زناتة،[3]ولكن إمارته كانت بدوية الطابع، خلال القرن الثاني للهجرة / الثامن ميلادي،[4]

ومن الإشارات الأولى لنشاط أبي قرة هو توليه مقدمة جيش الثائر الخارجي عبد الواحد بن يزيد الهواري سنة 124 هـ/741م،[5]ليختفي أثره بعد انهزامهم في معركة الأصنام،[6]ويرجع ابن خلدون مبايعته إلى سنة 148هـ/765م، [7]في حين يجعلها صاحب مفاخر البربر سنة 129 هـ/744م، حيث ملك حسبه كثيرا من بلاد المغرب و بلاد مغيلة بجبل وانشريس، وعمل تاهرت وبالمغرب مما يلي تامسنا ومغيل،[8] وبذلك اشتملت إمارته على المغرب الأوسط وأجزاء من المغرب الأقصى،[9]ومن أبرز نشاطاته المشاركة في حصار الوالي عمر بن حفص[10] بمدينة طبنة بالزاب بجيش قوامه أربعون ألف مقاتل من الصفرية، وهو ما يفسر لنا عمل عمر بن حفص على رشوته دون غيره من المحاصرين له، والذي يهمنا هو رد أبي قرة على عرض الوالي عمر بن حفص. حيث قال له: أبعد أن سلم علي بالخلافة منذ أربعين سنة

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 255

[2] مغيلة: من أبناء تمزيت بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180– 239.

[3] السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 181.

[4] الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 169

[5]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 58؛ النويري: المصدر السابق، ص 217؛ الدراجي بوزيان، ج1، ص 250.

[6]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 87.

[7] العبر، ج7، ص 24.

[8] مفاخر البربر، ص 169.

[9] محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 86.

[10] عمر بن حفص: يلقب هزارمرد وتعني ألف رجل ولي على إفريقية سنة 151هـ /767م وقتل سنة 153هـ/770م. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 434؛ الطبري: المصدر السابق، ج8، ص 33–36؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 828.

أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا،[1]وهو ما يعني قدم مبايعته وقوة إمارته، وبعد رجوع عمر بن حفص إلى القيروان، أعاد أبو قرة محاصرة طبنة للمرة الثانية إلا أنه أنهزم و قتل من عسكره خلقا كثيرا.[2]

ثم ظهر للمرة الأخيرة على مسار الأحداث التاريخية من خلال المشاركة في حصار الوالي عمر بن حفص بالقيروان 153هـ/ 770م،[3]وبعد قدوم الوالي يزيد بن حاتم إلى إفريقية154هـ/771م تمكن من فض جمعهم و لحق أبي قرة بتلمسان،[4] ليختفي ذكره بعد هذه الأحداث من المصادر التاريخية.

وعموما يمكننا أن نسجل نقص اهتمام المصادر بنقل أخبار إمارة أبي قرة بالمغرب الأوسط خلال القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي، ما ترك فجوة كبيرة لاسيما فيما يتعلق بالأوضاع الداخلية للإمارة،[5]ولقد عادت إمارة تلمسان والمغرب الأوسط بعد أبي قرة إلى مغراوة ثانية حيث تولى الأمر محمد بن خزر المغراوي سنة 170 / 789 م،[6]وبذلك حافظ المغرب الأوسط على استقلاله خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي، من خلال تداول بطون زناتة مغراوة وبني يفرن على حكمه.

ويبدو أن إمارة مغراوة ممثلة في محمد بن خزر المغراوي قد استمرت رغم دخولهم في طاعة الأدارسة.[7]

---

[1] الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 174؛ ابن الأثير: ج5، 829؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص75–77؛ النويري: المصدر السابق، ص 234؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 226.

[2]الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 174؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 829.

[3] الطبري: المصدر السابق، ج8، ص 42؛ ابن خلدون: العبر ج7، ص 25؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص183.

[4] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 25.

[5] محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 90.

[6] نفسه، ص 90؛ عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 171.

[7] الأدارسة: دولة تنسب إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب حيث أفلت من وقعة فخ 169هـ/ ففر إلى المغرب ووصل إلى طنجة بمدينة وليلي وبايعه من بها من البربر. الطبري: المصدر السابق، ج8، ص 198=

فقد بايع هذا الأخير إدريس بن عبد الله، ودخل في طاعته مع سائر مغراوة و بني يفرن سنة 173 هـ /789م،[1] مقابل منحه الأمان ولسائر قبائل زناتة، [2]ومن هنا فإن قيام دولة الأدارسة والإمارات السلمانية،[3] بالمغرب الأوسط لم يقض على إمارة محمد بن خزر المغراوي، الذي ظل سيدا وأميرا على سائر بوادي وضواحي المغرب الأوسط وتلمسان،[4] في حين اقتصر حكم بني سليمان في أغلب الأحوال على بعض مدن المغرب الأوسط،[5]وهذا ما يتوافق مع التقسيم الذي نهض به السلاوي الناصري لدول المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي حينما جعل القوة السنية في ثلاث دول هي دولة الأغالبة بالقيروان وإفريقية ودولة بني خزر المغراويين بالمغرب الأوسط ودولة السليمانيين بتلمسان ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.[6]

الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 254–255؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص856؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الآبار: الحلة السيراء، تح حسين مؤنس، ط3، ج1، دار المعارف، القاهرة ،2013م، ص 51–52.

(1)ابن خلدون: العبر، ج4، ص 24؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 25؛ التنسي: المصدر السابق، ص 35؛ عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 171–172؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 142.

(2) ابن خلدون: العبر، ج4، ص 24.

(3) الإمارات السليمانية: هي عدة إمارات قامت بالمغرب الأوسط منذ أواخر القرن 2هـ/8م تنسب إلى سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وتشير بعض المصادر إلى دخول سليمان بعد أخيه إدريس إلى المغرب ونزوله بتلمسان. يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 166؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص 34؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 251. في حين تقول مصادر أخرى بأنه هلك بالمشرق وأن ابنه محمد هو من دخل إلى المغرب فمنحه ابن عمه إدريس بن إدريس عمل تلمسان. الطبري: المصدر السابق، ج8، ص 197؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 259–260؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 255؛ التنسي: المصدر السابق، ص 66. وبذلك تقاسم بنو سليمان ولاية تلمسان وأمصارها فكانت تلمسان لولد محمد بن سليمان وأرشكول لولد عيسى بن محمد وتنس لولد إبراهيم بن محمد وجراوة لولد إدريس بن محمد. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 35–52.

(4) نفسه، العبر، ج7، ص 52؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص149؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص 172؛ عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، دار هومة، الجزائر،2011م، ص 140.

(5) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 52.

(6)المرجع السابق، ج1، ص 193.

وبذلك نجحت زناتة في الحفاظ على ملكها البدوي رغم وجود دول وممالك بجورها حيث امتد ملك محمد بن خزر إلى ضواحي المغرب الأوسط حتى أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي.[1]

شفيعنا في ذلك حديث اليعقوبي (ت بعد 292هـ/905م .) على عدة إمارات تنتمي إلى بطون زناتة تقع ما بين تاهرت وتلمسان،[2] وبذلك يمكننا القول بقوة الحضور والنفوذ الزناتي على المناطق الواقعة ما بين تاهرت وتلمسان إلى أواخر القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي، كونها لم تكن تابعة سياسيا وإداريا للرستميين والسليمانيين.[3]

وإلى جانب البطون الزناتية كان هناك أيضا بالمغرب الأوسط قبائل مديونة،[4] ومواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد[5] إلى الجبل المعروف بهم (جبل مديونة) قبلة مدينة وجدة،[6] يتقلبون بظواعنهم في ضواحيه وجهاته،[7]وقبائل مغيلة حيث كان جمهورهم بالمغرب الأوسط عند مصب نهر شلف في البحر من ضواحي مازونة،[8]وقبائل

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 52؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 149.

(2) البلدان، ص 196؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 150.

(3) نفسه، ص 150.

(4) مديونة: من ولد فاتن بن تمصيت بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496، ابن خلدون: العبر، ج 6، ص180؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 189.

(5)جبل بني راشد: هو جبل يطل على تلمسان وسمي الجبل باسم أب بني راشد وهم من بطون بنو بادين الطبقة الثانية من زناتة فهم بنو بادين بن محمد بن زحيك بن واسين. ابن خلدون: العبر ج 7، ص 121 – 315. ويسمى أيضا جبل العمور. محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 20.

(6) وجدة: مدينة كبيرة مسورة قديمة أزلية. مجهول: الاستبصار، ص 177.

(7) ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 256.

(8) نفسه، العبر، ج 6، ص 254، 255.

كومية،[1]بمواطنهم عند سيف البحر من ناحية أرشكول[2] وتلمسان،[3]إضافة لقبائل مطغرة ما بين فاس[4]وتلمسان.[5]

ومطماطة بتلول منداس عند جبل وانشريس، وجبل كزول من نواحي تاهرت.[6]والجدير بالملاحظة أن كل هذه القبائل التي شاركت بني يفرن ومغراوة الزناتيين في المغرب الأوسط تلتقي في نسبها مع زناتة، باعتبارهم جميعا من ولد ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر[7]لكن الضواحي والمجالات بالمغرب الأوسط ظل حكمها متداولا بين بطون زناتة خاصة دون غيرها، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (ت 808 هـ /1405م) بقوله: "كان المغرب الأوسط لمغراوة وبني يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة ثم صار من بعدهم لبني ومانوا وبني يلومي ...»[8]

وبذلك كان المغرب الأوسط موطنا للكثير من القبائل الزناتية من جهة ورهين حكم بعض بطونها من جهة ثانية، وربما هذا ما يفسر ربط ومطابقة ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) بين المغرب الأوسط وزناتة دون غيرها وهكذا ساهمت زناتة في رسم الملمح الاجتماعي والسياسي والجغرافي للمغرب الأوسط خلال القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي.

---

[1] كومية: يعرفون قديما بصطفورة وهم من ولد فاتن بن تمصيت بن ضرى بن زحيك بن مادغيس. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العير ج 6، ص257.

[2] أرشكول: تسمى في المصادر أرشقول وهي مدينة على نهر تافنة تقع قرب تلمسان. البكري: المصدر السابق، ج2، 261.

[3] ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 257.

[4] فاس: مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى. الإصطخري: المصدر السابق، ص 39؛ مجهول: الاستبصار ص 180.

[5] ابن خلدون: العبر، ج 6 ص244.

[6] ابن خلدون: العبر، ج 6، ص251.

[7] ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 180.

[8] نفسه، ج 6، ص 204.

ب–النشاط واللسان:

ارتبطت الكثير من القبائل والبطون الزناتية بحياة الظعن والنجعة،[1]فالإدريسي(ت548هـ/1154م) يصف القبائل الزناتية المنتشرة بين تاهرت وتلمسان بأنهم أصحاب تلك الفحوص، وأنهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى غيره،[2] كما أدرجهم ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1405م) ضمن القبائل التي معاشهم من الإبل في قوله:« ... وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا ... وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة. »[3]فكانت منطقة الإبل بالبلاد الشرقية صحراء زناتة،[4]خاصة وأن جل القفار والمفاوز بالمغرب الأوسط قد كانت لبطون زناتة،[5] فضلا على تداولها في رئاسة ضواحيه أيضا،[6]ومن ثمة فلا غرابة في امتلاك الزناتيين لأعداد وفيرة من الإبل فقد كانت مكاسبهم الأنعام والماشية،[7]وإلى جانب حياة الترحال والقيام بالإبل فإن معاشهم، أيضا كان يقوم على قطع السابلة، وتحت ظلال رماحهم،[8]وهو التلازم الذي قال فيه ابن خلدون(ت 808هـ/1405م) أنه معاش قائم على حياة النجعة والقوة والبأس، ذلك لأن القفار أشد الناس توحشا،[9]ومن ذلك ما يرويه ابن الصغير المالكي(ت ق 4هـ/10م) على استعمال بني رستم لوجوه قبائل زناتة في سبيل حماية قوافلهم من خطر

(1) محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 21.

(2) المصدر السابق، ص 111؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 101.

(3) المقدمة، ص 150.

(4) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 200.

(5)ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 127، 128، 129.

(6) نفسه، العبر، ج 6، ص 104.

(7)نفسه، العبر، ج7، ص 124.

(8) نفسه، العبر، ج،6 ص 176.

(9) نفسه، المقدمة، ص 150.

إغارة القبائل الزناتية الأخرى،[1] هو ما دفع بعض الباحثين إلى وصـــف زناتة بالصــعلكة والفوضى.[2]

وهذا لا يعني أن كل زناتة رحالة يجرون وراء النجعة [3]حيث نعثر على بعض البطون المنتمية إليها قد فضلت حياة الاستقرار سواء بالمدن أو بالقرى،[4]وغالب نشاط هؤلاء المستقرين كان عملهم الجزارة حتى قيل فيهم أن " جد هم دم"[5]وكذلك لأنهم كانوا يستهلكون اللحم بكثرة،[6]كما كان لبعضهم مشاركة في الزراعة حول بعض المدن والقرى.[7]

أما اللغة فيعتقد بعض الباحثين أن اللغة البربرية هي اللغة التي كانت سائدة في منطقة المغرب منذ عهود بعيدة[8]ويجعل ابن خلدون (ت808هـ/1405م) شعار زناتة وميزاتهم بين البربر اللغة،[9] التي يتراطنون بها، فهي مشتهرة بنوعها بسائر رطانة البربر،[10]إذ تختلف اللهجات الزناتية عن باقي اللهجات البربرية،[11]والتي تعود في أصولها إلى السامية لما لها من

(1) ابن الصغير المالكي: المصدر السابق، ص 104.

(2) دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1 ص192؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 175.

(3) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 166.

(4) نجد بعض النصوص التي توحي باستقرار بعض بطون زناتة على غرار الاستقرار في مدينة تيجس وأفكان وترنانا وزكرام. البكري: المصدر السابق، ج 2 ص 244– 262– 263؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 145.

(5) محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 24.

(6) نفسه، ص24.

(7)يتحدث ابن حوقل على القبائل المجاورة لمدينة المسيلة والتي من بينها بنو برزال وهم من زناتة والذين كانت عليهم صدقات وخراج غزير. صورة الأرض، ص 89. كما يشير ابن سعيد المغربي الى اختزان مغراوة لطعامهم قرب شلف وأن محارثهم في تلك الجهات. المصدر السابق، ص 35.

(8) موسى رحماني: المرجع السابق، ص17.

(9) يرى محمد بن عميرة أن استعمال ابن خلدون لكلمة لغة زناتة خطأ ذلك أنها لم تكن تكتب والكلمة المناسبة حسبه هي لهجة أو لهجات زناتة. دور زناتة، ص24.

(10) ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 03.

(11) محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 25؛ الدراجي بوزيان: ج 1، المرجع السابق، ص 256.

خصائص مشتركة مع اللغة العربية،[1]و يحلل ابن خلدون(ت808 هـ/1405م) سبب إهمال كتابة وتقييد أحداث القبائل الزناتية وما كان لهم في محاربة الأحياء والقبائل لغلبة الخط العربي، فالكتابة والخط بلغة الدولة ولسان الملك،[2] لكن استعمال الخط العربي بحكم عربية الدولة لم يقوض اللسان البربري فقد ظل اللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده،[3]كون أهل المغرب لسانهم بربريا.

ويبدو أن القبائل الزناتية كانت من أكثر القبائل البربرية حفاظا على رطانتها ولهجاتها البربرية، ذلك أن الكثير من اللهجات البربرية الموجودة اليوم تنتمي وتعود إلى اللهجات الزناتية،[4]شفيعنا في ذلك إشارات ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م) إلى استعمال ملوك بني عبد الواد الزناتيين،[5] بالمغرب الأوسط للهجتهم الزناتية،[6]واستعمال زناتة للشعر في الحروب لبث الحماس، وكانوا يسمون ذلك الغناء –تاصو كايت–،[7]كما كان بنو غمرت[8]يتناقلون برطانتهم فيما بينهم خلال القرن الثامن هجري/ الرابع عشر ميلادي كلمات لكاهن من زناتة على طريق الرجز،[9]ما يعني تداول حفاظ الزناتيين للهجاتهم في خطابهم الاجتماعي والتواصل.

---

(1) عبد الرحمان الجيلالي: ج 1، ص 79؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص24؛ الدراجي بو زيان: ج 1، ص 156؛ موسى رحماني: المرجع السابق، ص 38.

(2) ابن خلدون: العبر، ج 7، ص، 124.

(3) نفسه، العبر، ج7، ص124.

(4) لا تزال اللهجات الزناتية إلى اليوم منتشرة في الواحات الموجودة بأطراف الصحراء وفي بعض المناطق الصحراوية وكذا بعض المناطق الجبلية المنعزلة التي تحيط بالمغرب الأوسط والأقصى. محمد بن عميرة: دور زناتة، ص24؛ موسى رحماني: المرجع السابق، ص.38

(5) بني عبد الواد: من الطبقة الثانية لزناتة من ولد بادين ويرتفع نسبهم إلى زحيك بن ورسيك بن جانا. يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 180؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 160.

(6)يتحدث ابن خلدون عن استمرار ملوك بني عبد الواد في استعمال اللهجة الزناتية ومن ذلك يمغراسن بن زيان، أبو حمو موسى بن عثمان وغيرهما، المقدمة، ص162 / العبر، ج7، ص،178.

(7)ابن خلدون: المقدمة، ص 241.

(8) بنو غمرت: وهم واغمرت ويسمون لهذا العهد (8 هـ/ 14م) غمرت إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا. ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 105.

(9) نفسه، العبر، ج 7، ص 105.

3–أثر الفتح وحروب الخوارج في بنيات وأشكال التوطين:

شكلت حركة الفتح الإسلامي وما أعقبها مطلع القرن الثاني للهجرة / الثامن ميلادي من صراع مذهبي وعسكري محطة تاريخية هامة في تاريخ المغرب الأوسط الاجتماعي والديني والسياسي والحضاري والاقتصادي لاسيما وأن القبائل البربرية قد لعبت أدوارا حاسمة في مختلف مجريات الأحداث العسكرية والمذهبية والسياسية. فما هي تجليات الفتح وحروب الخوارج على القبائل البربرية بالمغرب الأوسط على مستوى الحراك والعصبية؟

أ– حقيقة الحراك القبلي أثناء الفتح:

نعثر في مضان المصادر التاريخية على إشارات دالة على كثرة البربر وتشعب أفخاذهم وقبائلهم،[1] فالبربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى،[2] كما وصفهم ابن حوقل (ت 367هـ /977م) بقوله:«أما البربر السكان بالمغرب فقبائل لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم.»[3]

---

(1)ابن حزم: المصدر السابق، ص 495؛ البكري: المصدر السابق، ج 2، ص 249؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج 3، ص 372؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1 ص 25؛ المصمودي: مفاخر البربر ص 212؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1 ص179؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص 118؛ موريس لومبار: المرجع السابق، ص 85 –86.

(2)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 296.

(3)المصدر السابق، ص 101.

وكلهم حسب ابن خلدون (ت 808هـ /1405م) أهل عصائب وعشائر،[1] كما يشير أيضا إلى البطون البربرية ذات الكثرة والغلبة التي أدركها الفتح والمتمثلة في: أوربة،[2]وهوارة، وصنهاجة، من البرانس ونفوسة،[3] وزناتة ومطغرة ونفزاوة[4] من البتر.[5]

ولقد أرجع ابن خلدون (ت808هـ/1405م) سبب تراجع وتناقص الكثير من العصبيات البربرية إلى الملك الذي حصل لهم ونفقوا في سبيله وترفه،[6]غير أن من الباحثين من رفض القاعدة الخلدونية القائلة بأن الترف والملك نقيض للعصبية والبداوة،[7]ومن جهة أخرى فإن الطرح الخلدوني لا يمكن التعويل عليه في تفسير تقهقر جميع العصبيات البربرية، إذ لم يكن لجميعها طبعا الملك حتى يفنوا في ترفه، وهو ما يدفعنا إلى البحث عن عوامل أخرى أتت على أقوى العصبيات البربرية وأكبرها.

---

[1]المقدمة، ص 195.

[2]أوربة: هم من ولد أورب بن برنس وهم بطون كثيرة. ابن حزم: المصدر السابق، ص 450؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص194؛ ابن خلدون: العبر، ج6 ص 256؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص 88.

[3]نفوسة: من ولد زحايك بن مادغيس الأبتر ونفوس بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها من شعوبهم بني زمور وغيرهم. ابن حزم: المصدر السابق ص 450؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 230؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 72.

[4]نفزاوة: هم بنو نفروا بن لوى الكبير بن زحيك بن مادغيس الأبتر ولها بطون كثيرة منها بنو يطوفت وبنو آلهاصة. ابن حزم: المصدر السابق ص 496؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 66؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

[5]نفسه، العبر، ج6، ص 296.

[6]نفسه، العبر، ج7، ص 08 / المقدمة، ص 169 _ 170.

[7]عبد العزيز غوردو والطاهر قدوري: من تاريخ الدولة المركزية المغربية الوسيطية (ابن خلدون العصبية والارتزاق البحرية المجتمع الثقافة)، ط1، مطبعة الهلال، وجدة، المغرب الأقصى، 2006م، ص06.

وإن كان للجوائح والكوارث الطبيعية دورا في ذلك،[1]فلا يمكن أيضا التقليل من أثر الحروب في انهيار البنية الديموغرافية وترهل النشاط الاقتصادي والعمراني على حد سواء،[2] فالقبائل تنهار أو تنتشر أو تنكمش وفق ما تسفر عليه نتائج المعارك والحروب.[3]

ولقد ترتب عن الحملات الأولى لحركة الفتوحات الإسلامية أثر واضح على ما يمكن أن نسميه بالحراك القبلي، والمتمثل في هروب بعض القبائل من حملات ومعارك الفتح حيث اتجهت بعض القبائل من الشرق إلى الغرب،[4] خصوصا في العقدين الأخيرين من القرن الأول للهجرة/ السابع ميلادي، فمواطن هوارة لأول الفتح كان بنواحي طرابلس وما يليها من برقة،[5] ثم اتجهت شرقا وانتشرت في شمال إفريقيا،[6]وكذلك مكناسة التي فرت أمام عقبة ابن نافع إلى المغرب الأقصى، لأنها شايعت المسلمين أولا ثم ارتدت ، [7]أما منطقة الزاب فقد بقي البربر بضواحيهم ،[8] سنة 50هـ/670م[9]لكن في أثناء حملة عقبة ابن نافع الثانية 62

[1]نجد في ثنايا المصادر إشارات عديدة للجوائح والكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرون الأولى من الفتح وأثرها في كثرة الموتى. ابن عذارى: المرجع السابق، ج1، ص 60 _ 173_194؛ النويري: المصدر السابق، ص 220–328–340؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص119_ 120 _121 وغيرها.

[2]الحسين بولقطيب: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2002م، ص 24.

[3]شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج 1، ص 81.

[4] محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 18؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج2؛ ص65؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 163.

[5] ابن خلدون: العبر، ج6، ص284.

[6] عمر تابليت: المرجع السابق ص18؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص75.

[7] ابن خلدون: العبر، ج6، ص205.

[8] ابن خلدون: العبر، ج6، ص216.

[9] نجد اختلاف المصادر التاريخية حول تاريخ ولاية عقبة الأولى على افريقية سنة 41هـ/661م عند خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص204. سنة 46هـ/666م. ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 222. سنة 50هـ/ 670م ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص 481؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص10؛ النويري: المصدر السابق، ص187؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص42؛ محمد بن عميرة: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008، ص76.

هـ/681م كانوا قد فروا من منطقة الزاب،[1] ذلك أن عقبة ابن نافع قد اتجه خلال حملته الثانية نحو منطقة الهضاب المرتفعة التي يقل فيها الروم ويكثر فيها البربر،[2] وكذلك تسببت حملة موسى بن نصير الذي تولى أمر إفريقية في 78هـ/697م،[3] في حدوث حراك قوي وصفه الرقيق القيرواني(ت منتصف القرن 5هـ/11م) بقوله: "وخرج موسى من إفريقية غازيا إلى طنجة فوجد البربر قد هربوا من المغرب خوفا من العرب ..."[4] إذ لم يكن أمام تفوق موسى العسكري على القبائل البربرية سوى أنهم طلبوا الصلح، شرط تسليمهم الرهائن أو الفرار بحثا عن النجاة،[5]كما يشير ابن خلدون(ت 808هـ / 1405م) إلى أن حراكا قبليا مس بطون من لواتة وأجبرهم على الهجرة إلى نواحي تاهرت ،[6]وكان بنو يفرن لعهد الفتح منهم بإفريقية وجبل أوراس أمم كما أشرنا سابقا،[7]ثم انتشروا بالناحية الغربية لبلاد المغرب وذلك بسبب تقدم قبائل لواتة وهوارة جنوبا إلى صحراء تونس صوب ضواحي الأوراس.[8]

وإلى جانب هذا الحراك القبلي الناجم عن عمليات الفتح والذي كان المغرب الأوسط مسرحا له، فإنه يجب أن ننبه إلى الأثر الذي خلفته المعارك الكبرى على ديموغرافيا بعض القبائل البربرية،[9]لا سيما وأن منطقة الزاب كانت من أصعب جبهات القتال في وجه الفاتحين.[10]

---

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص527؛ الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 51.

[2]عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 122–123.

[3]ولي على افريقية سنة 78هـ/697م؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 276؛ ابن عبد الحكم: المصدر السابق ص231، ابن الآبار: المصدر السابق، ج2، ص332.وسنة 89هـ/707م. ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص603.

[4]تاريخ افريقية، ص 42؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص42؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 48.

[5]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 42–43.

[6]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 236.

[7]نفسه، العبر، ج7، ص 22.

[8]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص18.ويحدد البكري مواطن هوارة ولواتة قبل الفتح بطرابلس وأرض برقة. المصدر السابق، ج1، ص 249.

[9]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 16.

[10]عبد العزيز فيلالي: بحوث، ص 15.

ومع هذا يجب أن ننبه إلى أن أثر معارك الفتح قد اقتصر على بعض العصبيات القبلية دون غيرها وذلك نتيجة لسياسة الفاتحين في مواجهة كل قبيلة بموطنها[1] وعموما تتضح المواجهة بين البربر والفاتحين مع الفاتح عقبة ابن نافع، فقد قاتل البربر وتوغل في أرضهم على حد تعبير ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م).[2]

ولقد سبقت الإشارة إلى اختراقه خلال حملته الثانية منطقة الهضاب العليا،[3]ليصطدم بملوك البربر وأقيالهم في ضواحيهم وأريافهم،[4]خلافا لأبي مهاجر دينار سنة 55 هـ/675مـ،[5]والذي اهتم بالمدن وترك بربر الأرياف تحت قيادة أمرائهم التقليديين.[6]

ولقد واجه عقبة ابن نافع الروم في توجهه إلى مدينة باغاية،[7]كما فتح أعظم مدن الروم لميس،[8]ثم اتجه إلى بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدنها فقالوا له مدينة أذنة،[9] وحولها ثلاث مائة قرية كلها عامرة،[10]فحاربها عقبة وانتصر على البربر وقتل أكبر فرسانهم.[11] في حين تؤكد مصادر أخرى أن المواجهة في أذنة وماحولها جرت بين عقبة والروم وأن الهزيمة قد

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7، ص16.

[2] نفسه، العبر، ج4، ص 348.

[3] عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 122-123.

[4] الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 50؛ عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص128.

[5] النويري: المصدر السابق، ص 189؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص398.

[6] تشير المصادر إلى وصول أبي المهاجر في حملته إلى تلمسان وفتحه كل ما مر به لكن في المقابل لا تتحدث عن خوضه لمعارك. الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص46؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص399؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 92.وعن سياسة أبي المهاجر أنظر عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 128.

[7] الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص58؛ الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص48؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 527.وينفرد ابن أبي دينار بمواجهة عقبة للبربر والروم في باغاية. المصدر السابق، ص 42.

[8] النويري: المصدر السابق، ص 191. يسميها ابن خلدون لميس. العبر، ج4، ص 394. وهي مدينة قريبة من قسنطينة أكثر اشجارها التين والعنب والخوخ. ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 42.

[9] أذنة: هي مدينة بينها وبين المسيلة مرحلة. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 285. يسميها أبو عبد الله محمد علي بن حماد الصنهاجي بأذنه واسمها الجديد باتنة. المصدر السابق، ص 71.

[10] الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 60؛ النويري: المصدر السابق، ص 191.

[11] الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 60؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص 399.

أنهت عز الروم وملكهم من الزاب إلى آخر الدهر،[1] وعند رحيله إلى مدينة تاهرت يظهر التحالف البربري الرومي لكن الأمر انتهى بانتصار عقبة.[2]

إلا أن صاحب معالم الإيمان كان أحسنهم في وصف الواقعة إذ يقول: «فالتقى المسلمون معهم _الروم والبربر-...فقتلهم المسلمون قتلا ذريعا أبادوا فيه فرسان البربر وتفرق جمعهم وأقيالهم وقليل من نجا منهم»،[3] ورغم ما صحب حملة عقبة من قتل للبربر،[4]إلا أننا لا نقف على أثر مباشر لضعف عصبية قبلية بعينها.

إلا أن مقتل عقبة قرب تهوذة بالزاب سنة 63 هـ/683مـ،[5]من قبل الأمير البربري كسيلة الأوربي،[6] قد أدى إلى تكليف زهير بن قيس البلوي بأخذ الثأر لمقتل عقبة والذي نجح في تحقيق انتصار ساحق على كسيلة ومن معه من البربر سنة 69هـ/688مـ،[7]وخلفت هذه الهزيمة ما لا يحصى من القتلى البربر،[8]ففي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم.[9]

---

(1)الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 49؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 527.

(2)الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 60-61. ويشير الدباغ إلى تحالف بربري روماني أيضا في تلمسان. المصدر السابق، ج1، ص49.

(3)نفسه، ج1، ص 50.

(4)ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 327.

(5)خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 251؛ ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 227؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص323. وكان مقتله ومن معه من المسلمين بمدينة تهوذا وهي مدينة كبيرة قديمة تقع قرب بسكرة. مجهول: الاستبصار، ص 174؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 30.

(6)كسيلة الأوربي: كان أمير أوربة بين يدي الفتح سكرديد بن زوغي بن بارزت بن برزيات وأدرك الفتح وولي عليهم من بعده كسيلة بن لزم الأوربي حيث كان أميرا على البرانس كلهم. ابن خلدون: العبر، ج6، ص296-297.

(7)تحدد بعض المصادر تاريخ انتصاره على كسيلة بسنة 69هـ / 688م. الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 69-70؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص528؛ النويري: المصدر السابق، ص 195؛ الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص58؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 30. وهي سنة 67هـ/ 686م عند ابن خلدون: العبر، ج4، ص 400. وسنة 64هـ/683م عند ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 228؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 330.

(8)ابن خلدون: العبر، ج6، ص299؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 45.

(9)الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 69-70؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 528.

ويبدو أن وقع هذه الهزيمة كان أقوى على عصبية أوربة وتواجدها بالمغرب الأوسط باعتبارها طبعا قائدة الحلف البربري آنذاك، فقد كان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عددا وأشد بأسا وقوة.[1]

في حين يصف ابن خلدون (ت808هـ / 1405 م) عصبيتها بعد هزيمتها أمام زهير ابن قيس بقوله: "وخضدت شوكة أوربة من بينهم"،[2]مما يعني أن وقع الهزيمة كان عليها أكثر من غيرها من قبائل البربر، كما أدت الهزيمة أيضا إلى فرار أوربة نحو المغرب الأقصى، ففي سياق حديثه عن نتائج الهزيمة يقول:" واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن لهم بعدها ذكر." [3]وبذلك قل تواجد أوربة بالمغرب الأوسط،[4] حيث فرت واستقر أغلبهم في منطقة الريف،[5] إلا أن ضلوعهم في مقتل عقبة قد عاد عليهم بالوبال وكثرة القتل، ومن ذلك انتقام أبنائه منهم خلال حملة موسى بن نصير،[6]وفي هذا يقول البكري(ت 487هـ/1094م)"واشتد القتل فيهم فبادوا و قلت أوربة إلى اليوم".[7]

---

[1]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 296؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 23.

[2]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 300؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص112.

[3]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 300؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 112.

[4]نجد إشارات لمواطن أوربة في المغرب الأوسط بنقاوس. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190. وبجبل ونشريس. الإدريسي: المصدر السابق، ص 107. ومن مراكزهم بالمغرب الأوسط قرب تلمسان وكتلة جبل أوراس وبالزاب. موسى لقبال: المرجع السابق، ص 72.

[5]نفسه، ص72؛ عبد العزيز فيلالي: بحوث، ص 34؛ بشير يزير: القبائل البدوية في المغرب الأوسط من بداية الفتح إلى نهاية القرن 2هـ أوربة نموذج، رسالة ماجستير، إشراف عبد العزيز فيلالي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة، 2013/2012م، ص 14–15.

[6]خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 279؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 41.

[7]المصدر السابق، ج2، ص 294؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 227.

وإلى جانب هزيمة كسيلة فإن ثاني أكبر الهزائم التي مني بها البربر في خضم عمليات الفتح الإسلامي، والتي كان لها أثر طبعا على قوة بعض العصبيات البربرية المعركة التي انهزمت فيها الكاهنة أمام حسان بن النعمان الغساني سنة 74هـ/693م،[1]لا سيما وأنها ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر.[2]

كما انضم إليهم بنو يفرن ومن كان بإفريقية من زناتة وسائر البتر.[3]ويبدو أن مقتل كسيلة قد أعطى لها فرصة أكبر في جمع البربر حولها،[4]وبذلك كان للهزيمة وقعا على العصبيات القبلية المشاركة على الأقل في المعركة، حيث تجمع المصادر على كثرة القتلى،[5] بل شبهته بعض المصادر بيوم الفناء،[6]ويقدم لنا ابن خلدون عدد القتلى بعد اقتحام حسان لجبل أوراس بأكثر من مائة وأربعين ألف قتيل من البربر،[7]

ويتضح من كلامه أن وقع الهزيمة كان أكبر على عصبية جراوة أكثر من غيرها، فيصف قوتها قبل الهزيمة وما كان للكاهنة وقومها بجبل أوراس من الملك والعز والكثرة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب،[8]ويضيف قائلا:« فأثخن العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار.»[9]ليصل في الأخير إلى الوضع الجديد الذي عرفته عصبية جراوة فيقول: "ثم افترق فلهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم وافترق جراوة أوزاعا بين قبائل البربر.[10]ومن ثمة يمكننا القول أن أثر الفتوحات اقتصر في الغالب على القبائل التي دخلت

---

[1]خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 270؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 603؛ السلاوي: ج1، ص115؛

[2]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 218.

[3] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 18.

[4]ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 602؛ النويري: المصدر السابق، ص 197.

[5]ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 229؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج1، ص180؛ النويري: المصدر السابق، ص198.

[6]ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 603؛ التيجاني: المصدر السابق، ص 82.

[7]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 18؛ السلاوي: المرجع السابق، ج1، ص 115.

[8]ابن خلدون: العبر ج6، ص206.

[9]نفسه، العبر، ج7، ص 16.

[10]نفسه، العبر، ج7، ص 18.

في مواجهة مباشرة مع الفاتحين ونعني بها أورية ثم جراوة، كما نشير إلى سياسة اعتمدها الفاتحون والتي تمثلت في إشراك أمراء البربر ورجالاتهم في فتح الأندلس،[1] بهدف إحداث فراغ سياسي يمكن المسلمين من الاستقرار أكثر ويقلل من المواجهة فضلا على اعتمادهم مواجهة كل قبيلة بموطنها وعدم الدخول في حروب مع كل القبائل.

ب–واقع التوطين في ظل ثورات البربر وحروب الخوارج:

يبدو أن تحديد زمن معين لدخول الخوارج إلى المغرب مسألة صعبة،[2]فقد أدى الاضطهاد والبطش الذي تعرضوا له في المشرق إلى فرار عدد كبير من الدعاة إلى بلاد المغرب،[3] ولا يستبعد أن يكون دخولهم قد تم في العقود الأخيرة من القرن الأول الهجري/السابع ميلادي،[4] ونجد في مصادر الخوارج إشارات إلى أول الدعاة الداخلين إلى المغرب،[5]حيث انبثوا بين عامة البربر في القرى والوديان والجبال ونجحوا في حمل عامتهم على تقبل أفكارهم وآرائهم،[6]ليكون لهم بذلك دور فعال في دفع البربر إلى شق عصى الطاعة وإعلان الثورة،[7] ويقول في ذلك الطبري(ت 310هـ/922مـ):« فمازالوا–البربر– من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك أحسن أمة سلاما وطاعة حتى دب إليهم أهل العراق واستثاروهم

---

[1]ابن خلدون: العبر، ج6، ص220؛ عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1، ص 126.

[2]جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص25.

[3]عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص301؛ عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص208؛ موسى رحماني: المرجع السابق، ص75.

[4]جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص25.

[5]الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص11؛ الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص245.

[6]عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص5؛ موسى حماني: المصدر السابق، ص 76.

[7]يقدم الباحثون الكثير من الأسباب التي جعلت البربر يقبلون على الفكر الخارجي ومن ذلك الرغبة في الاستقلال. عبد الله العروي: المرجع السابق ج1 ص186؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص 171. وهناك من ربطها بالعوامل الاقتصادية. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص55. في حين يعول البعض على سوء سياسة الولاة وكره البربر لهم. عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص5؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص300 –301؛ عبد الرحمن الجيلالي: ج1، المرجع السابق، ص208.

شقوا عصاهم.»[1] فتتابعت الحروب بين البربر وولاة القيروان عنيفة وشديدة أزهقت فيها مئات الآلاف من أرواح المسلمين.[2]

وبذلك خلفت حروب الخوارج التي سرعان ما انتشرت في كل أرجاء المغرب،[3]آثارا واضحة على عصبيات بعض القبائل وعلى واقع التوطين بالنسبة على الأقل للقبائل المشاركة في أحداثها و مجريات الصراع العسكري لا سيما وأنها قد اتسمت بضراوة معاركها وكثرة خسائرها،[4]فمطغرة وهي قبيلة أول ثائر من الخوارج ببلاد المغرب ميسرة الصفري،[5]كانت من أوفر شعوب بني فاتن من بطون البتر،[6] انتهى بها الأمر إلى ركود ريحها وافتراق جمعها خلال القرن الثاني للهجرة/الثامن ميلادي.[7]

ثم ثار كل من عبد الواحد بن يزيد الهواري، وعكاشة الفزاري على الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي سنة 124هـ/742مـ،[8]وافترقا الثائرين بالزاب،[9] وقد تمكنا من تعبئة صفرية تلمسان،[10] وزحفا بأعداد عظيمة إلى القيروان،[11]لكنهما منيا بهزيمة نكراء في وقعتي القرن

(1)الطبري: المصدر السابق، ج4، ص254.

(2)عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص107.

(3)ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص714؛ ابن عذارى: المصدر السابق ج1 ص 52؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص 306.

(4)عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص107.

(5)ميسرة: يعد أول ثائر خارجي على المذهب الصفري ببلاد المغرب وإفريقية على الخلافة الأموية وواليها عبد الله ابن الحبحاب سنة 122هـ/740م ويرد اسمه في المصادر التاريخية بعدة أشكال منها، ميسرة المدغري، الحقير، السقاء، الفقير. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص353؛ ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 246؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج 5، ص 714؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1 ص52؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 221–240 وغيرها.

(6)نفسه، العبر، ج6، ص 118.

(7)نفسه، العبر، ج6، ص 244.

(8)خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص355؛ ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص250؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 143؛ ابن الأثير: ج5، ص714؛ النويري: المصدر السابق، ص216؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1 ص58.

(9)الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 143؛ النويري: المصدر السابق، ص 217.

(10)محمد حسن: المرجع السابق، ص 92.

(11)ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 58.

مع عكاشة والأصنام مع عبد الواحد وقدر عدد القتلى من البربر في الهزيمة الأخيرة بـ مائة وثمانين ألف،[1] وصفت الكثير من المصادر الهزيمتين بالمقتلة العظيمة.[2] ولا شك أن وقع الهزيمتين كان أكبر على هوارة باعتبارها رأس حركة الثائر المنهزم عبد الواحد بن يزيد،[3]لكن رغم ذلك نجد هوارة تواصل حروبها وثوراتها ضد ولاة القيروان،[4] مما يعني أن الهزيمة لم تقوض من عصبيتها فقد ضلت هوارة تلعب أدوارا هامة على مسرح الأحداث إلى غاية القرن الرابع الهجري /العاشر ميلادي.

في حين أدى دخول ورفجومة،[5]إلى القيروان سنة 141 هـ/758م، بعد أن لجأ إليها عبد الوارث بن حبيب الفهري،[6]وهم بجبل أوراس،[7]وأمام ارتكابهم المنكرات في القيروان،[8] زحف إليهم أبو الخطاب بن السمح المعافري،[9] وقتل سائر ورفجومة ونفزاوة من نفس السنة،[10]وهنا نلمس دقة ابن خلدون وتتبعه لمراحل العصبيات القبلية، فبعدما كانت ورفجومة من أوسع بطون نفزاوة وأشدهم بأسا وقوة،[11]افترق بنو ورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا

---

[1]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 59؛ النويري: المصدر السابق، ص 218؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 222–223.

[2]خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص 355؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 151؛ النويري: نهاية الأرب، ص218.

[3]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 221–222.

[4]نفسه، العبر، ج6، ص 286؛ عمر تابليت: المرجع السابق، ص 18.

[5]ورفجومة: من بطون نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاوة مواطنهم من جبل أوراس. ابن حزم: المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180.

[6]عبد الواحد بن حبيب الفهري: تمكن عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الاستيلاء على القيروان وإفريقية سنة 126هـ744م لكنه قتل من قبل أخواه عبد الوارث والياس فطلب ابنه حبيب الثأر ففر عبد الوارث إلى ورفجومة بعد مقتل أخوه الياس وبمقتل حبيب قوي أمر ورفجومة. ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 747–748–749.

[7]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 180.

[8]ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 749؛ النويري: المصدر السابق، ص 226.

[9]أبو الخطاب عبد الأعلى: من علماء الطبقة الأولى الإباضيين بالمغرب. الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص 245.

[10]ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 749؛ النويري: ص 227؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232.

[11]نفسه، ج6، ص 231.

أوزاعا في القبائل،[1]فهذه النماذج تؤكد تضرر القبائل البربرية في حروب الخوارج وفتنها خاصة أمام كثرة المعارك وتعددها.[2]

فلا يستبعد أن تكون لثورات البربر وحروب الخوارج اسهام في تغيير واقع التوطين بالنسبة للقبائل التي كان لها دور فعال في مختلف مراحل الصراع العسكري لكن وفي المقابل يجب أن ننبه إلى أن آثار الفتح وحروب الخوارج، لم تكن عميقة بما يكفي لرسم واقع ديموغرافي جديد في المغرب الأوسط، وفي أغلب الحالات كان الضرر يقع على العصبيات الأكثر مواجهة للفاتحين ثم للولاة.

---

[1]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 232–233.

[2]تقدر عدد المعارك بين الخوارج وولاة القيروان منذ قتل الوالي عمر بن حفص إلى انقضاء أمر الخوارج بـ 357وقعة. النويري: المصدر السابق، ص 238؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص227.

الفصل الثاني: مجتمع المغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م (التحولات)

1- الانهيار القبلي بالمغرب الأوسط:

أ- الانهيار القبلي عهد الدولة الفاطمية.

2- مجتمع الدولة الحمادية:

أ-التركيبة الاجتماعية:

- المجتمع الحضري (القلعة نموذج).
- انكماش المجتمع البدوي في الضواحي والمجالات.

ب- المنظومة الدينية واللغوية والعلمية:

- المنظومة الدينية.
- اللغوية والعلمية.

ج-السيمات الاقتصادية للمجتمع الحمادي:

- النشاط الزراعي.
- النشاط الحرفي.

1-الانهيار القبلي بالمغرب الأوسط القرن4هـ/10م :

عرف المغرب الأوسط مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي انهيار وضعف عصبيات أقوى قبائله البربرية جراء السياسة العسكرية والاقتصادية والمذهبية التي عملت الدولة الفاطمية (1) على تجسيدها بالمغرب الإسلامي عموما، والتي أفضت إلى واقع ديموغرافي واجتماعي جديد ومغاير تماما لما كان عليه المغرب الأوسط قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي فهذا الوضع الجديد أدى إلى جملة من التحولات عهد الدولة المركزية الحمادية(2)، والتي مست النسيج الاجتماعي للمغرب الأوسط والمنظومة الدينة واللغوية والعلمية والبنية الاقتصادية للنشاط الزراعي والحرفي للمجتمع الحمادي.

أ- الانهيار القبلي عهد الدولة الفاطمية:

من تداعيات قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي أن حدث تغير في التوازن السياسي أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي، إذ لم يبق بعد هذا الحدث السياسي

(1)الدولة الفاطمية: قامت ببلاد المغرب وإفريقية أواخر القرن 3هـ/9م ويعود الفضل في قيامها لأبي عبد الله الداعي صاحب دعوتهم حيث دخل بلاد المغرب سنة 280هـ/893م ونزل بإيكجان من بلاد كتامة حيث تمكن من التغلب على الأغالبة وامتلاك القيروان وإفريقية ليبايع بعدها لأول إمام فاطمي أبو عبيد الله المهدي برقادة سنة 297هـ/910م. ابن حماد: المصدر السابق، ص 35؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 92؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص 194؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 1116.

(2) الدولة الحمادية: هي شعبة من دولة آل زيري حيث عقد المنصور بن بلكين لأخيه حماد على أشير سنة 379هـ/989م وفي عهد ابن أخيه باديس ابن المنصور عقد لحماد أيضا على أشير 387هـ/996م وهي الولاية التي قوي فيها حماد وزاد استقلاله بالمنطقة بعد أن كلفه باديس ابن المنصور 365هـ/1004م بحرب زناتة وبعد بناء حماد لمدينته القلعة عبر عن رغبته في الاستقلال وبناء دولة تكون خالصة له ولأبنائه من بعده فأعلن الخلاف وخرج عن طاعة باديس بن المنصور 405هـ/1014م ورغم الهزائم التي مني بها إلا أنه تمكن من إبرام صلح سنة 408هـ/1018م حقق بفضله استقلاله ليفترق إثرها ملك صنهاجة إلى دولتين زيرية بإفريقية وحمادية بالمغرب الأوسط. ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص1324؛ النويري: المصدر السابق، ص324؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص262؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج2، ص132 ابن خلدون: العبر، ج6، ص34-349؛ عبد القادر بوعقادة: ميلاد الدولة الحمادية والمعايير المحددة لها، الملتقى الوطني حول الدولة المركزية في قلعة بني حماد 26-27أفريل 2005م، حوليات الآداب واللغات، ع03/ ديسمبر2013م، جامعة المسيلة، ص 131-142.

العظيم أية دولة قائمة من الدويلات الثلاث،[1]التي كانت تتقاسم بلاد المغرب إلى حد ذلك التاريخ،[2]فكان قوام السياسة العسكرية للدولة الفاطمية الاعتماد على القوة والشدة لإخضاع المغربين الأوسط والأقصى.[3]

وبذلك أحدثت الإدارة الفاطمية انقلابا في المجتمع المغربي، فقد أخمدت ذكر فئات وعناصر كان لها شأن في السابق،[4] حيث مارس الفاطميون سياسة العنف والشدة ضد خصومهم وحاولوا بالإكراه إدخال مذهبهم،[5]وفرض سياسة التبعية لهم،[6]إضافة إلى جور سياستهم المالية،[7] فأمام هذه السياسة الفاطمية المذهبية والتوسعية والاقتصادية تحول المغرب إلى مسرح للفتن والاضطرابات والصراعات الدموية، كان لها عميق الأثر في ضعف جل العصبيات البربرية واستنزاف قوتها.

ولقد ظهرت معالم إفراط الفاطميين في استعمال القوة والعنف في وقت مبكر، على ما يبدو فخلافا لابن عذارى(كان حيا712هـ/1312م) الذي يقول بدخول أبي عبد الله لمدينة تاهرت بالأمان،[8]وأن القتل اقتصر على الرستمية بقتل يقضان بن أبي اليقضان وجماعة من أهل

---

[1]أدى قيام الدولة الفاطمية إلى سقوط الدويلات التي كانت تتقاسم بلاد المغرب حيث سقطت دولة الأغالبة سنة 296هـ/909م ودولة بني رستم ودولة بني مدرار في نفس السنة ودولة الأدارسة 311هـ/923م. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 147-157-197-213.

[2] فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م) التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة حماد الساحلي، ط1، دار الغرب، بيروت، 1994م، ص202.

[3]رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن4هـ/10م، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2003م، ص 119.

[4]بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي وفلسفته في بلاد المغرب، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م، ص 83.

[5]توجد الكثير من الإشارات توحي بمحاولة الفاطميين فرض مذهبهم الإسماعيلي الشيعي. ابن حماد: المصدر السابق، ص50؛ الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص25؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص150و غيرها. وحول إحراق الفواطم لكتب الإباضية بتيهرت أنظر الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 95؛ الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص 365.

[6] رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 119.

[7]بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي، ص 44؛ الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص77-78.

[8]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص153.

بيته،[1] فإن الدرجيني (ت 670هـ/1271م) يقدم لنا صورة مغايرة تماما إذ يقول:« ودخل المدينة فانتهبها وانتهك حرمتها وأجلى كثيرا من أهلها»[2]وإن كان دخول هذا الأخير بعض مدن المغرب الأوسط بالأمان،[3]فإنه لا يمكن القفز على المجزرة التي خلفها في دخوله لمدينة الأربس،[4]وقتله لثلاثين ألف رجل بمسجدها.[5]

وبعد أن قام بالأمر أول خليفة فاطمي عبيد الله المهدي،[6] سنة 297هـ/910م،[7] أشار على أن سياسته ستكون معتدلة ولكنها صارمة،[8] فخلال السنة الأولى من توليه الأمر أوعز إلى عامله على تاهرت بحصار وهران،[9]فزحف إليها سنة 297هـ/910م واستباحها وأضرمها نارا،[10] وبعد سنة أي 298هـ/911م تجول أبو عبد الله الداعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزناتة وقتل الرجال وسبى الذرية وأحرق بعض المدن بالنار.[11]

أما تيهرت التي ثار أهلها على عامل الشيعة في 299 هـ/912م، فلقد أخرج إليهم عبيد الله جيش تمكن من المدينة فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية وانتهبوا الأموال وحرقوا المدينة بالنار وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف رجل،[12] فكانت صرامة المهدي تتمثل في قمع الثائرين

---

(1) ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 153.

(2)البكري: المصدر السابق، ج2، ص 249؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص94-95.

(3) مثل بلزمة طبنة باغاية. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 141-142

(4) الأربس: مدينة عليها سور من تراب بينها وبين القيروان ثلاث مراحل. الإدريسي: المصدر السابق، ص154-155

(5)ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 146.

(6)عبيد الله المهدي: اختلفت المصادر حول نسبه إلا أن ابن خلدون أكد صحة نسبه إلى آل البيت ولد سنة 260هـ/ 874م وتوفي سنة 322هـ/934م. ابن حماد: المصدر السابق، ص 35 ،49؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص91؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص64.

(7)ابن حماد: المصدر السابق، ص 41؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص 191؛ الزهري: المصدر السابق، ص110.

(8)فرحات الدشراوي: المرجع السابق، ص 183.

(9)وهران: مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الأندلسيين. مجهول: الاستبصار، ص 133.

(10)ابن خلدون: العبر، ج6، ص294.

(11)ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص162.

(12)نفسه، ج1، ص166.

وإرسال الحملات العسكرية نحو المغربين الأوسط والأقصى والتي كانت متتالية،[1]إذ لم تكن طاعة زناتة التي بعثت بها إلى أبي عبد الله الداعي سنة 296هـ/909م مستحكمة،[2]حيث سرعان ما أظهرت زناتة العداء والضغينة للدولة الفاطمية.[3]

ويبدو أن أسباب الصراع الزناتي الفاطمي كانت أكبر من الصراع المذهبي،[4] والتنافس على احتكار طرق تجارة الصحراء،[5]بل كانت له دوافع سياسية بالدرجة الأولى،[6] حيث كانت زناتة على علم بخطط الفاطميين ورغبتهم في الإطباق على جميع بلاد المغرب، وبذلك القضاء على كل وجود لقبيلة زناتة القوية في منطقة المغرب الأوسط التي تعتبرها منطقة نفوذها توارثتها عبر مئات السنين،[7]وربما هذا ما عبر عنه ابن خلدون (ت808هـ/1405م) بقوله: «ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن حزر إلى أن كانت دولة الشيعة.» [8]

فكان الصراع بينهما في وقت مبكر جدا،[9] ففي سنة 297هـ/910م خالف محمد بن حزر الفواطم،[10]فأرسلوا إليه الحملات العسكرية من أهمها حملة 299هـ/912م التي مروا بها على زناتة حيث قتل منهم عدد لا يحصى،[11] وإلى جانب الحملات العسكرية التي اعتمدها الفاطميون عملوا أيضا على سياسة التهجير، ففي سنة 309هـ/922م حاول المهدي

---

[1]رمضان التليسي: المرجع السابق، ص120.

[2]ابن خلدون: العبر، ج4، ص75؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1، ص65.

[3]بوبة مجاني: الإسماعيليون في بلاد المغرب العربي –الفكر والمؤسسات والعمران–، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م، ص 171.

[4]بوبة مجاني: الإسماعيليون، ص171.

[5]موريس لومبار: المرجع السابق، ص91؛ الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص84.

[6]رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 104.

[7]نفسه، ص104.

[8]العبر، ج7، ص52.

[9]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 175.

[10]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص155.

[11]نفسه، ج1، ص165.

تهجير عيالات سكان جبل أوراس، إلا أنهم تمكنوا من قتل القائد الشيعي ومن معه[1] وفي سنة 312هـ/924م خرج عامل الشيعة على تاهرت إلى بلد زناتة فقتل وسبي.[2]

وبعد انتصار محمد بن خزر الزناتي وتمكنه من قتل العامل الشيعي على تاهرت سنة 315هـ/928م،[3]أخرج عبيد الله الفاطمي حملة ضخمة بقيادة ابنه محمد بن عبيد الله،[4] من نفس السنة.[5]

ورغم فشل الحملة في تحقيق هدفه الرئيسي وهو القضاء على بني خزر بعد فرارهم إلى الصحراء،[6]إلا أنها حققت بعض النتائج حيث تمكنت من فتح جبل فيه بني برزال ومكلاتة،[7] كما تم فتح برقجانة،[8]وقتل كل من كان فيه.[9]

ومن أهم ما قام به محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله خلال حملته هذه بالمغرب الأوسط هو تهجيره لبني كهلان وهم بطن من هوارة من الموضع الذي بنا فيه المسيلة، حيث نقلهم إلى فحص القيروان،[10]وهكذا حاول الشيعة إفراغ الأرض من سكانها الذين يتوجسون منهم خطر،[11]

---

[1]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 187.

[2]نفسه، ج1، ص189؛ بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي، ص84.

[3]ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص312؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص81.

[4]أبو القاسم: هو أبو القاسم محمد بن عبيد الله الملقب بالقائم بأمر الله، ولد بسلمية سنة 273هـ/886م. أو 280هـ/893م تولى الحكم بعد أبيه سنة 322هـ/934م وتوفي سنة 334هـ/946م. ابن حماد: المصدر السابق، ص53؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص 285 وما بعدها؛ التيجاني: المصدر السابق، ص 268؛ النويري: المصدر السابق، ص298.

[5]ابن حماد: المصدر السابق، ص 45؛ ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 81.

[6]ابن حماد: المصدر السابق، ص 45.

[7]مكلاتة: بطن من نفزاوة بن لوا الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 191.

[8]برقجانة: حصن بمدينة تاهرت القديمة. نفسه، ج1، ص155.

[9]نفسه، ج1، ص192-193.

[10]ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 1154؛ ابن خلدون: ج 4، ص 82؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1، ص 72؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 65.

[11]بوبة مجاني: الإسماعيليون، ص 180.

كما امتدت حملة محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله لتطال الخوارج الاباضية والصفرية بنواحي تاهرت،[1]ويبدو أن الفاطميين قد حاولوا منذ البداية إضعاف الخوارج لاسيما الإباضية الذين كان لهم تواجد قوي بنواحي تاهرت ومن ذلك حصار الشيعة لورجلان سنة 297هـ/910م،[2]كما قتل الكثير من البربر الإباضية خلال حملة 298هـ/911م،[3] وبذلك كان للدولة الفاطمية دور فعالا في توجه الخوارج الإباضية أكثر نحو صحراء المغرب الأوسط،[4]وبالتالي كرست الدولة الفاطمية من خلال حملاتها العسكرية المتتالية سياسة القتل والتهجير في آن واحد، كما تسعى الحملة الواحدة إلى تحقيق عدة أهداف سياسية وعسكرية واقتصادية ومذهبية في نفس الوقت.[5]

لكن رغم ذلك فإنه وبمجرد انصراف محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله عادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، حيث تغلب محمد بن خزر سنة 317هـ/930م على الزاب كله،[6] بل ساءت الأمور أكثر ليتدخل بني أمية من الأندلس،[7]في شؤون المغرب.[8]والذي يهمنا هو تأجج الصراع أكثر وتشعبه ليرتفع بذلك عدد الضحايا وتزيد الخسائر البشرية، لاسيما في

(1)ابن خلدون: العبر، ج4، ص 82.

(2)الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 96.

(3)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 248.

(4)موريس لومبار: المرجع السابق ص 107؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص305.

(5)رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 120؛ الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص84.

(6)ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 194.

(7)بنو أمية من الأندلس: قامت الدولة الأموية بالأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الله سنة 138هـ/950م واستمرت إلى 424هـ1032م وآخر خلفائهم المعتمد بالله. ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص 39.

(8)بدأ التدخل الأموي في المغرب عهد عبد الرحمان الناصر سنة 317 هـ/949م الذي خاطب أمراء زناتة وملوك الأدارسة كما دخل في حلفه موسى ابن أبي العافية زعيم مكناسة. النويري: المصدر السابق، ص 115؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 104؛ أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح، احسان عباس، ج 1، دار صادر، بيروت، 1448هـ/ 1988م، ص 385.

صفوف القبائل البربرية التي كانت وللأسف الأدوات الحقيقية لهذا الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب.[1]

حيث ساهم التدخل الأموي في زيادة الحملات الفاطمية ومن ذلك إرسال عبيد الله المهدي لحملة جديدة سنة 321هـ/933م،[2] وصلت إلى مدينة فاس،[3] كما سارع ابنه محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله بعد توليه الخلافة إلى إرسال قائده ميسور،[4] ليصل إلى مدينة فاس سنة 323هـ/935م.[5]

إلا أن الحدث الأكبر في خلافة القائم بأمر الله هو اندلاع ثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي،[6] في سنة 332هـ/944،[7] والتي كانت لها آثار عميقة على قبائل المغرب عموما والمغرب الأوسط خصوصا، فقد كان انطلاق الثورة من جبل أوراس،[8]كما كان لقبائل المغرب الأوسط الدور الأكبر في ثورته حيث شكلوا عصب قوته فكانت قبائل جبل أوراس خاصة جنده، فهوارة وبني كهلان من أظهر القبائل لأبي يزيد،[9] ومن لواتة التي بجبل

[1]حول الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب أنظر عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية، ص145 وما بعدها؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 184 وما بعدها؛ الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص155.

[2]ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 54؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 102.

[3]ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 54.

[4]ميسور: قائد شيعي. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص 198، 209.

[5]نفسه، ج1، ص 209؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 104.

[6]أبو يزيد مخلد بن كيداد: من الخوارج النكارية (الذين أنكرو الإمامة على عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم) وهو من بني يفرن. الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 97؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص 290؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 210؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 216؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 170. وينسبه ابن حماد إلى بني جعفر وهم فرع من زناتة. المصدر السابق، ص 56.

[7]نفسه، ص 56؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ص 290؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 170؛ ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 28. وهي سنة 333هـ/945م عند المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1، ص 76.

[8]البكري: المصدر السابق، ج2، ص 277؛ ابن حماد: المصدر السابق، ص 50؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 99–100؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 214 –215؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص287.

[9]ابن الأثير: المصدر السابق، ج 8، ص 1218؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص287.

أوراس أمة عظيمة ظاهروا هم أيضا أبا يزيد،[1]كما حشد بجبال وسالات،[2]عددا كبيرا وجندا كثيرا،[3]فرغم اجتماع البربر حول أبي يزيد من نفوسة والزاب وأقاصي المغرب على حد وصف ابن خلدون،[4]إلا أن النصوص التاريخية توحي بالمشاركة القوية لقبائل المغرب الأوسط، والذي يجب الإشارة إليه أيضا أنه بعد ضعف ثورته وتخلي البربر عنه لم يبق معه سوى هوارة أوراس و بنو كهلان،[5]وربما هذا ما يفسر فراره إلى المغرب الأوسط، بعد انكساره أمام جيوش الخليفة إسماعيل المنصور،[6]فلا غرابة إذا أن تكون نتائج الثورة أكثر كارثية، على قبائل المغرب الأوسط سواء خلال سير الثورة أو بعدها، أي ما قام به المنصور الفاطمي من عمليات انتقامية.

وعموما تجمع المصادر على الدمار الهائل الذي خلفته ثورة أبي يزيد والخسائر الفادحة فيذكر أحد المصادر أن عدد القتلى في فتنة أبي يزيد بلغ أربعة مائة ألف قتيل،[7]وبلغ عدد القرى التي طالها الخراب ثلاثين ألف قرية،[8]ولعل قول ابن خلدون(ت 808هـ/1405م) يقدم وصفا دقيقا للآثار الاقتصادية والاجتماعية التي خلفتها الثورة: «وعظم القتل بضواحي إفريقية وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع. » [9]

ومن هنا يمكننا القول أن ثورة أبي يزيد كان لها دور في أن ترسم لنا واقع ديموغرافي جديد في المغرب عموما والمغرب الأوسط خصوصا، فقد جرت به آخر معارك الثورة والتي اتسمت بكثرة القتلى ومن ذلك نذكر هزيمته في فحص باتنة التي قتل فيها نحو عشرة آلاف

---

(1)ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 235؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 37.

(2)جبل وسالات: جبل قرب المسيلة. ابن خلدون: العبر، ج7، ص102؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 211.

(3)ابن حماد: المصدر السابق، ص 66.

(4)ابن خلدون: العبر، ج4، ص84.

(5)ابن الأثير: المصدر السابق، ج 8، ص 1218؛ ابن خلدون: العبر، ج 7، ص31.

(6)اسماعيل المنصور: هو ثالث خليفة فاطمي تولى الأمر بعد موت أبيه أبو القاسم سنة 334 هـ/946م وبذلك أكمل مواجهة ثورة أبي يزيد ولد بالمهدية توفي 341 هـ/952م. ابن حماد: المصدر السابق، ص 59؛ ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 95.

(7)ابن الأبار: المصدر السابق، ج1 ص، 290.

(8)الدرجيني: المصدر السابق، ج1 ص، 101.

(9)ابن خلدون: العبر، ج 7، ص30.

أكثرهم من بني كهلان وزناتة ويسمى يوم الرؤوس،[1] ثم توالت الهزائم على أبي يزيد إلى أن ألقي عليه القبض بقلعة كياتة،[2] وقتل أكثر أصحابه وقتل سنة 336هـ/947م،[3] فكانت المشاركة القوية لقبائل المغرب الأوسط من جهة، ولكونه مثل مسرح أحداث نهاية الثورة من جهة ثانية أن كانت آثار الثورة عميقة جدا بالمغرب الأوسط.

فعلاوة على الخسائر البشرية التي خلفتها معارك الثورة، فإننا نقف على سياسة انتقامية واضحة انتهجها الخليفة المنصور لتصفية القبائل الموالية لأبي يزيد، فبعد هلاكه سطا الخليفة إسماعيل المنصور على هوارة وبني كهلان فأثخن فيهم القتل وقطع ذكرهم،[4]ثم يضيف ابن خلدون(808هـ/1405م) ليؤكد انهيار عصبية بني كهلان فيقول:« ثم جرت الدول عليهم أذيالها و أناخت بكلكالها وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية.» [5]

فرغم مشاركة هوارة في حروب الخوارج وانكسارها عدة مرات، إلى أن ابن خلدون المتتبع لأطوار الظاهرة لم يتحدث قبل ثورة أبي يزيد عن انهيار عصبية بطن من بطونها بهذه الصورة، بل أدت سياسة الخليفة المنصور إلى تشريد بني كهلان وتفرقها في المغرب.[6]

كما هاجم الخليفة المنصور أيضا لواتة الذين فروا أمامه إلى الصحراء،[7]إضافة إلى قتله لقبائل أوغمرت،[8] الذين أوقع بهم وأثخن فيهم،[9] بل طال انتقام الخليفة المنصور كل

---

[1]ابن حماد: المصدر السابق، ص 71.

[2]قلعة كياتة: هي قلعة بجبل كتامة وعجيسة المطل على قلعة بني حماد. ابن حماد: المصدر السابق، ص 47-73.

[3]نفسه: ص 75-76؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 1222؛ التيجاني: المصدر السابق، ص 269.

[4]ابن خلدون: العبر ن ج6، ص 287.

[5]نفسه، العبر، ج6، ص287.

[6]نفسه، العبر، ج6، 287.

[7]نفسه، العبر، ج7، ص34.

[8]واغمرت: من بطون زناتة وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط وكان جمهورهم بالجبال من المنشتل إلى الدوسن. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 105.

[9]نفسه، العبر، ج7، ص105.

من ساعد أبي يزيد وأصحابه ومن ذلك قتله لهوارة الساكنين بمدينة الغدير،[1]لإخفائهم عمار الأعمى،[2]ناهيك عن تتبعه لقبائل بني يفرن إلى أن انقطع أمر الدعوة،[3]فلا شك في إضرار حروب الثورة وسياسة المنصور بالخوارج ككل الذين قتلوا وشردوا،[4]في حين حافظت قبائل مغراوة على قواها،[5]ومرد ذلك إلى انسحابهم من الثورة في الوقت المناسب،[6]ودخول زعيمهم محمد بن خزر في طاعة الخليفة المنصور، [7]ثم أوقف هذا الأخير حملاته العسكرية على المغرب إلى أن توفي في 341هـ/954م.[8]

أما آخر خليفة فاطمي بالمغرب الملقب المعز لدين الله(ت 365هـ/975م)،[9]فلقد اتسم عهده بالحملات العسكرية والصراعات الدموية التي زادت في ضعف العصبيات البربرية بالمغرب الأوسط ومن ذلك استئصال زعيم بني يفرن يعلى بن أبي محمد سنة 343هـ/955م لأزداجة،[10] بأمر من الخليفة الفاطمي فأصبحوا بعد هذه الوقعة في حال من الهضيمة والمذلة،[11]لكن سرعان ما تعرض بنو يفرن أنفسهم لهزيمة نكراء على يد جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي سنة 347هـ/959م، وذلك لخروجه عن طاعة الشيعة، فكان من نتائج الهزيمة أن قتل زعيم بني يفرن وتشريدهم فلم يعد لهم وجود بالمغرب الأوسط،

---

[1]الغدير: مدينة كبيرة أزلية تقع بالقرب من المسيلة سكانها هوارة يعتدون في 60ألف. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 246؛ مجهول: الاستبصار، ص 167.

[2]ابن حماد: المصدر السابق، ص 71؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص 202.

[3]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 35.

[4]بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي، ص 18؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 218.

[5]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 54.

[6]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 218.

[7]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 55.

[8]محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 227.

[9] المعز لدين الله الفاطمي: ولد سنة 319هـ/ 931م فتحت مصر في عهده. ابن حماد: المصدر السابق، ص 83؛ النويري: المصدر السابق، ص 298. توفي 365هـ /975م. ابن خلدون: العبر، ج4، ص 93.

[10]أزداجة: من بطون البرانس وكانوا مجاورين لمدينة وهران. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 294.

[11]نفسه، العبر، ج6، ص 295؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص 253.

حيث اجتمعوا على ابنه بالمغرب الأقصـــى،[1]كما تعرضـــت هوارة بعد ثورتها بجبل أوراس لهزيمة نكراء سنة 361هـ/971م، انتهت بها إلى الضعف والتشرد وفي هذا الصدد يقول ابن حماد(628هـ/1230م): «فهزمهم بلكين وفرق جموعهم وشتتهم فتمزقوا وتبددوا في بلاد الزاب وغيرها ومنهم من وصل إلى بلاد السودان فأقام بها فما التقى رائح منهم بمبكر.»[2]

كما نقل ابن حوقل (ت 367هـ/977م) حقيقة الوضع الذي آل إليه سكان جبل أوراس خلال القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي: وسكانه – أوراس – مستطيلين على من جاورهم من البربر وغيرهم فهلكوا وأتى الله بنيانهم من القواعد.[3]

وحتى مغراوة التي لطالما وقفت كحجر عثر أمام الحملات الفاطمية ومحاولاتها المتكررة لفرض هيمنتها على المغرب الأوسط، فإنها قد انكسرت أمام قائد الشيعة بلكين بن مناد الزيري، حيث كانت الحروب بين صنهاجة وزناتة سجالا،[4]وإذا كان من الصعب ذكر كل وقائعها ، إلا أن أبرز أحداثها هو نجاح بلكين بن مناد الزيري في حملته سنة 361هـ/971م، والتي مكنته من إجلاء زناتة من المغرب الأوسط إلى ما وراء نهر ملوية بالمغرب الأقصى،[5]وصف ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) وقائعها في قوله:« ومر بالمغرب الأوسط – بلكين بن مناد الزيري– واستلحم بوادي زناتة ومن إليهم ... فأفقر المغرب الأوسط من زناتة وساروا إلى ما وراء ملوية».[6]

---

[1]ابن خلدون: العبر ن ج7، ص 37–38؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 241.

[2]ابن حماد: المصدر السابق، ص 83؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 1269؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص 202؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص75

[3]المصدر السابق، ص88.

[4]حول الصراع الزناتي الصنهاجي واستفحاله في القرن 4هـ/10م انظر: المصمودي: مفاخر البربرّ، ص 105وغيرها؛ ابن عذارى: المصدر السابق ج2، ص 242وغيرها؛ النويري: المصدر السابق، ص 309وغيرها؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص57 وغيرها.

[5]النويري: المصدر السابق، ص 315؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 57؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص111؛ الوزان: المصدر السابق، ج 1، ص36.

[6]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 57.

ولم يقتصر بلكين على مغراوة فحسب بل أسقط الأمان على كل بربري ركب فرسا أو نتج خيلا،[1]فانتهج سياسة شديدة إزاء البربر، فإضافة إلى قسوته واعتماده على سياسة التقتيل فإنه سلك أيضا أسلوب النفي والتهجير وحرق المدن مثل باغاية، تاهرت وغيرها.[2]

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا أقدم بلكين على هذه السياسة القاسية، هل كان ذلك من أجل التوسع وتوطيد دعائم حكمه أم أنه طبق وصايا خليفته المعز؟[3]

ومهما كانت دوافع بلكين فإن نتائج سياسته قد انعكست مباشرة على ضعف جل العصبيات البربرية بالمغرب الأوسط وتردي أحوالها،[4]فيصف لنا ابن حوقل(ت367هـ/977م) بربر تاهرت بقوله:« وقد تغيّرت تاهرت عمّا كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت .»[5]

وهي الصورة المناقضة تماما لما قدمه ابن الصغير المالكي (ت ق 4هـ/9م) عن رخاء وقوة القبائل المجاورة لتيهرت خلال القرن الثالث الهجري / التاسع ميلادي.[6]

بل كانت لهذه الفتن والاضطرابات التي عرفها المغرب الأوسط، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي واشتدادها أكثر في نصفه الثاني مع بلكين بن مناد الزيري دور في تنشيط وتفعيل حركة الهجرة نحو الأندلس،[7]فكان من نتائج انهزام بني يفرن سنة 347هـ/959م أمام جوهر الصقلي هجرة جماعات منهم إلى الأندلس،[8]كما فرت الكثير من

---

[1]النويري: المصدر السابق، ص 309.

[2]حول سياسته في التهجير وحرق المدن أنظر النويري: المصدر السابق، ص 309؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص318.

[3]من وصايا المعز لبلكين ألا يرفع السيف عن البربر. الدرجيني: المصدر السابق، ج1، 140؛ النويري: المصدر السابق، ص 311؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 318؛ الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص 533.

[4]موسى لقبال: المرجع السابق، ص 322.

[5]المصدر السابق، ص 97.

[6] المصدر السابق، ص63.

[7]رغم وجود تيار الهجرة البربرية نحو الأندلس منذ الفتح إلا أنها عرفت منحى جديد خلال القرن 4هـ/10م وذلك لما ميزه من اضطرابات وفتن. موريس لومبار: المرجع السابق، ص 120؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص 254.

[8]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 37؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص 162-163.

القبائل خوفا من بلكين ومن ذلك بني برزال الذين كانوا بجهات المسيلة حيث هاجرت منهم جماعات نحو الأندلس.[1]

أما كتامة التي كانت من أشد قبائل البربر بالمغرب قوة وبأسا وأطولهم باعا في الملك[2] فقد جرى استنزاف قوتها العسكرية والمادية في إقامة الحكم الشيعي في مرحلة التأسيس[3] فضلا عن مشاركتها الفعالة في تجسيد مشاريع الفاطميين التوسعية وفي مواجهة الثائرين على حكمهم.[4]

إضافة إلى نقل الخليفة المنصور أربعة وعشرين ألف بيت كتامي من سطيف إلى عاصمته بإفريقية،[5] كما هاجرت إثر فتح مصر 362هـ/973م جماعات كبيرة من كتامة،[6] وهناك ذابت كتامة في ترف الدولة الفاطمية وبذخها[7] ولم يبق منهم في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط إلا بقايا من قبائلهم كلهم معبدون للمغارم.[8]

ومن أهم فروع كتامة التي بقيت بالمغرب الأوسط قبائل بني زلدوي وأهل جيجل وزواوة بالجبال وسدويكش بالبسائط[9] فقد عرفت عصبيتها انحدارا واضحا رصدها الإدريسي(ت 548هـ/1154م) قبل انصرام النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، حيث قدر قوتها بأربعة ألاف رجل مضيفا بأنها كانت قبل هذا عددا كثيرا وقبائل وشعوب.[10]

---

(1)ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 268؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص111-112.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص601؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص201.

(3) نفسه، ص201.

(4) شكلت قبائل كتامة العصب العسكري للدولة الفاطمية سواء خلال حكمهم لبلاد المغرب أو خلال انتقالهم إلى مصر الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص92؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 154؛ المقريزي: اتعاظ، ج1، ص54؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص201.

(5) بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي، ص19؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص201.

(6)ابن خلدون: العبر، ج6، ص302؛ دومنيك فاليري: المرجع السابق، ج1ن ص 189.

(7) ابن خلدون : العبر ،ج6، ص302؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص201.

(8)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 302-303؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص 117؛ عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 72.

(9) ابن خلدون: العبر، ج6،ص 303؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص201.

(10)الإدريسي: المصدر السابق، ص 126؛ الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص202.

وبذلك مثل القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي قرن انهيار العصبيات البربرية بالمغرب الأوسط (بني يفرن، هوارة، كتامة، أزداجة مغراوة وغيرها) لنصل بذلك إلى واقع اجتماعي وتوزيع قبلي جديد بالمغرب الأوسط اضطلعت صنهاجة بتكوينه.

2-مجتمع الدولة الحمادية:

مما لا شك فيه أن الواقع الديموغرافي الذي فرضته أحداث القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، كان له تجلياته في رسم الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الجديد بالمغرب الأوسط، والاسهام في حدوث جملة من التحولات على مستوى البنية الاجتماعية والاقتصادية والمنظومة الدينية واللغوية والعلمية لمجتمع المغرب الأوسط ضمن الدولة المركزية لبني حماد مع مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.

أ-التركيبة الاجتماعية:

كان لقيام دولة بني حماد في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي آثار وأبعاد مست الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمذهبية بالمغرب الأوسط، فهي تمثل عودة الحكم البربري الذي انقطع مساره من زمن الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين إلى مصر، إذن نهاية حكم الدولة العربية على أرض المغرب الأوسط وبداية التحولات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية بالمغرب الأوسط.

- المجتمع الحضري: (القلعة[1] نموذج)

تعود الدولة الحمادية بأصولها إلى قبيلة صنهاجة حيث شكلت بطون تلكالة وأنجفة العصبية القوية لقيام دولتها وهي من أهل المدر[2]على حد قول ابن خلدون (ت808هـ/1405م) مبينا أن المدر هي من أشكال العمران الحضاري إذ يعتصم بها

---

(1) مدينة القلعة: مدينة وقلعة لبني حماد يسميها البكري وصاحب الاستبصار قلعة أبي طويل وهي ذات منعة وحصانة وللمدينة قلعة عظيمة بنيت على جبل تاقربوست بناهاحماد بن بلكين سنة398هـ /1007م. المصدر السابق، ج2، ص117؛ مجهول: المصدر السابق، ص 167؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 117.ومن أهم مميزات القلعة أنها بنيت بعيدة عن المدن القديمة إضافة إلى حرص حماد على رفع أسوارها.

Allaoua Amara « l'animation de la façade maritime du Maghreb central (VIII-XIII Siècle) rêvé lettre et scies humaine N6 °/ ramadhan 1426-2005 p 07.

Léon Marie Eugene de beylie: la kalaa des beni Hammad(une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI éme siècle les presses de l'imprimerie hasnaoui ،Alger، ،2012 ،p 28.

(2)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 202-311.

ويتحصن بجدرانها،[1]فقد آثرت بطون من صنهاجة الاستقرار في السهول،[2] والأرياف والجبال منتظمين في شكل قرى صغيرة متخذين البيوت والمساكن،[3]قائمين على الزراعة والفلح فكان المقام عندهم أولى من الظعن وهم سكان المدن والقرى والجبال،[4]وبذلك كانت صنهاجة –تلكالة– قوة حضرية.[5]

وإلى جانب النمط الاقتصادي الزراعي الذي جعل منها قوة حضارية، فإن مجاورتها لدولة الأغالبة جعلها ترث نصيبا مما كان لها من الحضارة مع كتامة دون سائر قبائل البربر.[6]

وعموما فلقد ورثت دولة بني حماد مخلفات حضارية وعمرانية خلفتها الدول المتعاقبة على حكم المغرب،[7]وبذلك شكلت بطون تلكالة وأنجفة نواة المجتمع الحضري بالمغرب الأوسط لاسيما وأن قيام دولة بني حماد قد خفض من نسق تدفق الهجرة الصنهاجية إلى إفريقية الزيرية بل أوقفها تماما.[8]

ناهيك عن دورها في بناء المدن وتعمير المغرب الأوسط سائرة في ذلك على خطى زيري (ت360هـ/969م) وابنه بلكين(ت373هـ/984م) اللذان أخذا بزمام المبادرة في تعمير المغرب الأوسط من خلال تجديد بعض مدنه من جهة (جزائر مزغنة–المدية – مليانة) وبناء

---

[1]المقدمة، ص72.

[2]عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص72.

[3]رضا بن النية: المرجع السابق، ص 113؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج 2، ص127.

[4]ابن خلدون: المقدمة، ص 149.

[5]الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 71؛ موسى لقبال: المرجع السابق، ص 80.

[6]ابن خلدون: المقدمة، ص406.

[7]بو يحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص 432.

[8]الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 2، ص08؛ بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص439.

مدن جديدة من جهة أخرى على غرار مدينة أشير[1]، في حين ظل تعميره قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي صناعة عربية وأندلسية.[2]

فكان لدولة بني حماد الفضل الأكبر في وضع عصر الاستفاقة الحضارية للبربر ذلك أنهم لم يعيروا قبل القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين أدنى اهتمام بالعمران،[3]فكان من أولويات حماد بن بلكين(ت 419هـ/1928م) هو اختطاط مدينة القلعة بين 398هـ/1007م والتي كانت بعيدة عن المدن القديمة،[4]وتميزت بجمال مبانيها وكثرة قصورها،[5] والذي يعد مظهرا من مظاهر الترف والتحضر الذي بلغته دولة بني حماد.[6]

أما سكان المدينة الجديدة فلقد نقل حماد السكان من مدينة المسيلة وحمزة،[7]كما نقل جراوة الزناتية من المغرب وأنزلها بالقلعة،[8] وهو ما أدى إلى وجود تنوع بشري في مدينته الجديدة،[9]كما راعى حماد بن بلكين مسألة أزمة العصبية الصنهاجية، فاختار القبائل التي

---

[1] مدينة أشير: بناها زيري بن مناد سنة 324هـ/935م بجبل تيطري وهي مينة بحصن ولها سور حصين. ابن حوقل: المصدر السابق، ص92-93؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص240-241.

[2]الطاهر بونابي: قلعة بني حماد التأسيس والتداعي: أعمال ملتقى وطني حول الدولة المركزية لقلعة بني حماد الإشعاع الفكري والثقافي 26و27أفريل، حوليات الآداب واللغات، ع2013/3م، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، ص 80-81.

[3]نفسه، ص80-81. حول أسباب قلة اهتمام البربر بالبناء والتعمير أنظر ابن خلدون: المقدمة، ص 393-394.

[4] Allaoua Amara: l'animation la façade maritime Maghreb central، p07.

[5] تؤكد لنا مصادر الجغرافيا والرحلات جمال بيوت مدينة القلعة وقصورها، ومن القصور التي ورد ذكرها قصر دار البحر الذي كان مشرف على نهر وبه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وقصر العروسان الذي بناه الناصر بن علناس. الإدريسي: المصدر السابق، ص 109، مجهول: الاستبصار، ص168؛ التيجاني: المصدر السابق، ص123.

[6]ابن خلدون: المقدمة، ص406.

[7]حمزة: (البويرة) مدينة نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليها سور وخندق. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 246؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص302.

[8]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 350؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 1 ص 144؛ عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 74؛ Léon Marie Eugene p 28

[9]الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 2 ص99.

تعوزها القوة والعصبية وأسكنها بالقلعة تحسبا لأي منافسة،[1]واستمر تدفق المهاجرين نحو بلاد بني حماد وعاصمتهم خصوصا.[2]

فأصبحت القلعة على حد قول الإدريسي: «من أكبر البلاد قطرا وأكثر خلفا... وأحسنها قصور ومساكن.»[3]

ويبدو أن التطورات السياسية التي حصلت على مستوى مجتمع المدينة بالقلعة في علاقته بالحكم والنشاط الاقتصادي والتطورات العسكرية،[4]قد بلغ ذروته عهد الناصر بن علناس(ت481هـ/1088م)،[5]ففي أيامه كان استفحال ملك بني حماد ومنافسته لملك بن زيري في إفريقية،[6]لقول ابن خلدون (ت808هـ/1405م):« فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا وعظم شأن أيامهم فبني المباني العجية المؤنقة»، [7] وفي عهد ابنه المنصور ابن الناصر(ت498هـ/1104م).[8]أخرج المجتمع من طور البداوة إلى طور الحضارة، حيث نجح في نقل دولته نقلة حضارية نوعية جعلت من بني حماد في مصاف الدول الكبيرة في المنطقة،[9]ومن أشهر مبانيه في مدينة القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام.[10]

---

[1]الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص206.

[2]تزايد عدد المهاجرين من مختلف الجهات لا سيما الأندلس بسبب الفتنة البربرية ومن صقلية بعد سقوطها في يد النورمان ناهيك عن الهجرات التي تدفقت من إفريقية الزيرية بعد الاحتياج الهلالي. عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص74؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص89؛ Léon Marie Eugene p 28

[3]المصدر السابق، ص 109.

[4]الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص206.

[5]الناصر بن علناس: خامس ملوك بني حماد تولى الحكم سنة 454هـ/1062م توفي 481هـ/1088م.ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10 ص 301؛ النويري: المصدر السابق، ص 416؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج 2، ص132.

[6]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 357.

[7]نفسه، العبر، ج6، ص357.

[8]ابن عذارى: المصدر السابق، ص 302؛ النويري: المصدر السابق، ص 360؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج 2، ص 132.

[9]عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص81؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 325.

[10]ابن خلدون: العبر، ج6، ص358.

فقد كان المنصور مولعا بالبناء فتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين فهو الذي حضر ملك بني حماد،[1] ومن الطبيعي أن يرافق هذا الاتساع في العمران تفنن في المعاش وأطايب الحياة وازدهار صناعات الترف،[2] فكان بالقلعة الأكسية الصفيقة الحسنة المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبرسيم،[3] معطيا بذلك للمجتمع الحمادي بالقلعة مستوى من الحياة الحضرية انصهر فيها نشاطات التجار والعلماء والفنانون الذين كانوا يشكلون فئات معتبرة بالمجتمع القلعي،[4] ويبدو أن فئة العلماء والأدباء والفقهاء كانت تمثل الفئة الرابعة في المجتمع القلعي بعد الحكام ورجال الشرطة ورجال صنهاجة.[5]

-انكماش المجتمع البدوي في الضواحي والمجالات:

في حديث ابن خلدون (ت808هـ/1405م) عن البربر يقول: «والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر»،[6] وعموما فلقد تناولنا في عنصر بربر المدن والأمصار أن غالبيتهم كانوا يعيشون بالمفاوز والبراري والقفار منذ أزمة بعيدة قبل الفتح.[7]

ويحدد لنا ابن خلدون(ت808هــ/1405م)البدو من خلال النشاط الاقتصادي ليكون لدينا نوعان من البدو فمنهم من يقوم على الفلح من الغراســـة والزراعة وينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز،[8] وهم سكان الضـواحي ومنهم من كان معاشـه على الابل

(1)ابن خلدون: العبر، ج6، ص358.

(2)الخضر بولطيف: ملامح المنظومة القيمية للمجتمع القلعي الحمادي، أعمال الملتقى الدولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس، أيام 9-10 أفريل 2007م جامعة المسيلة، المسيلة، 2007م، ص 385.

(3) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 108.

(4)موريس لومبار: المرجع السابق، ج 4، ص390.

(5)عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 80.

(6)ابن خلدون: المقدمة، ص195.

(7)ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص91؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص 249.

(8)المقدمة، ص 148.

فهم أكثر ضعنا وأبعد في الفقر مجالا،[1]وهم سكان المجالات أو يسمون بالبدو الرحل عند الكثير من الباحثين،[2]وهم أعرق في البداوة وأحوالها من الصنف الأول،[3]إلا أن العنصر المشترك بين الصنفين أي سكان الضواحي وسكان المجالات إن صح التعبير هو انتباذهم للأسوار والأبواب وبعدهم عن سكن المدن والأمصار،[4]وصف لنا ابن خلدون(ت808هـ/1405م) مساكنهم بقوله: ويتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أومن الطين والحجارة غير منجدة إنما هو قصد الاستضلال والكن لا ما وراءه وقد يأوون إلى الغيران والكهوف.[5]

وفي موضع أخر يقول: أن عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا، أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال،[6] فالبدو يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها،[7] حيث يعد البربر من أعرق الأمم في البداوة.[8]

إلا أن التطورات السياسية والاقتصادية والحضارية التي عرفها المغرب الأوسط لاسيما خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، كان لها أثر واضح في اتساع وامتداد شريحة المجتمع الحضري وانكماش المجتمع البدوي سواء بالضواحي أو المجالات.

---

(1)المقدمة، ص 150.

(2)يقسم بعض الباحثين البدو الرحل إلى رحالة صغار وهم الذين يربون المواشي ويمارسون الزراعة ورحالة كبار وهم الذين يقومون على الإبل ويبعدون الرحلة.محمد بن عميرة: دور زناتة، ص21–22؛ جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص 249؛ موسى رحماني: المرجع السابق، ص 141.

(3)المقدمة، ص 150.

(4)نفسه، ص 153.

(5)نفسه، ص 149.

(6)نفسه، ص393.

(7)نفسه، ص393.

(8)نفسه، ص393.

فقد كان لسياسة التعمير وبناء المدن والأمصار وتجديدها، التي تبناها زيري وابنه بلكين ثم أمراء دولة بني حماد سببا ودافعا قويا في خروج البربر من الخيام والقياطين وكنن الجبال إلى تعمير المدن وتمصيرها.[1]

ناهيك على أثر السياسة الفاطمية ونتائج حملاتها العسكرية في ديموغرافيا القبائل البربرية عموما والبدوية خصوصا، ويمكننا أن نستشف السياسة الفاطمية القاسية اتجاه البادية من خلال الوصايا التي قدمه المعز لدين الله الفاطمي إلى خليفته على إفريقية والمغرب بلكين بن زيري (ت 373هـ/983م) بأن لا يرفع الجباية عن أهل البادية.[2]

إضافة إلى نجاح هذا الأخير في اجلاء بطون مغراوة وبني يفرن خارج المغرب الأوسط أي وراء وادي ملوية وذلك سنة 361هـ/971م،[3]وهما من القبائل البدوية بالمغرب الأوسط،[4]فلا شك في أثر هذا الاجلاء على النسيج القبلي البدوي بالمغرب الأوسط.

ففي عهد بني حماد ظلت حدودهم الغربية متاخمة لبوادي زناتة بضواحي تاهرت وتلمسان،[5]حيث أصبحت بطون أخرى من زناتة تتولى أمر الضواحي والقفار بالمغرب الأوسط بدلا من مغراوة و بني يفرن فأصبح لبني يلومي وبني ومانوا قوة وظهور،[6] وكان لبني توجين بمواطنهم بحوافي وادي الشلف،[7]دورا في حروب حماد وابن أخيه باديس فقد تحالفوا مع هذا الأخير ضد حماد،[8] وجندوا له ثلاثة آلاف مقاتل مما يوحي بقوتهم العسكرية خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.[9]

---

[1]الطاهر بونابي: قلعة بني حماد التأسيس والتداعي، ص 81.

[2]ابن خلدون: العبر، ج6، ص318؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص 533؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1، ص101؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص96.

[3]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 57.

[4]نفسه، العبر، ج7، ص 50.

[5]نفسه، العبر، ج 6، ص350.

[6]نفسه، العبر، ج7، ص 114؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص191.

[7]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 230.

[8]نفسه، العبر، ج6، ص 323.

[9]نفسه، العبر، ج7، ص 319؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص149.

أما علاقات بني حماد بهذه القبائل البدوية فإنها قد تراوحت بين السلم والتعاون تارة والصراع والتنازع تارة أخرى.[1] فمن مظاهر التوافق والولاء الذي كان لبني ومانوا مع الحماديين عهد الناصر بن علناس(ت481هـ/1088م)،[2] أن بلغت العلاقة بينهما حد المصاهرة فقد تزوج هذا الأخير من إحدى بنات بني ماخوخ وهم بيت رئاسة بني ومانوا.[3]

لكن عرفت هذه العلاقة التوتر بعد ظهور المرابطين ومحاولتهم التوسع على حساب المغرب الأوسط إذ لم يتوان بني ومانوا في مساعدتهم ودعم تقدمهم نحو المغرب الأوسط،[4]ليصل الأمر إلى دخول المنصور ابن الناصر(ت 498هـ/1104م) في حرب معهم انهزم خلالها ليقدم أثرها على قتل زوجته لأنها من بني ماخوخ.[5]

لكن ابنه العزيز (ت 515هـ/1121م) تزوج هو أيضا من إحدى بنات ماخوخ ليجدد بذلك علاقة المصاهرة التي كانت بينهما عهد جده وأبيه،[6] وكان من نتائج المصالحة أن اعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط على حد قول ابن خلدون.[7]

إن علاقة بني حماد وبني ومانوا تعد نموذج لعلاقات الحضر والبدو والتي يبدو أن المصالح هي التي كانت تتحكم في تحديد نوعها.

---

[1]تقدم بعض الدراسات العلاقة بين البدو والحضر علاقة صراع واختلاف دائم ومن ذلك شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج 1، ص 34-35.

[2]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 114؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 323.

[3]ابن خلدون: العبر، ج7، ص 114-115؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 323.

[4]ابن خلدون: العبر، ج6، ص359-360.

[5]نفسه، العبر، ج7، ص 115.

[6]نفسه، العبر، ج7، ص 115.

[7]نفسه، العبر، ج7، ص 115.

كما تأرجحت أيام بني حماد مع بنوا يعلى،[1]الذين تمكنوا من الرجوع إلى المغرب الأوسط بين السلم والحرب،[2] وذلك بعد نجاحهم في استرجاع جزء من نفوذهم على ضواحي تلمسان.[3]

ب-المنظومة الدينية واللغوية والعلمية:

لقد كان لوقائع القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي السياسية والعسكرية والاقتصادية الأثار العميقة على المغرب الأوسط، والتي لم تقتصر على قوى العصبيات البربرية وتفاعلها مع هذه الأحداث، بل امتدت لتمس الحياة المذهبية والعلمية في الصميم، مساهمة في رسم المنظومة الدينية والعلمية للمغرب الأوسط، ضمن الدولة المركزية الحمادية.

- المنظومة الدينية:

ظهر ببلاد المغرب ما ظهر ببلاد المشرق من فرق وأحزاب ومنازعات وانتفاضات كان صداها البعيد وتأثيرها الواضح في بناء هيكل الثقافة الإسلامية بهذه الربوع،[4] فرغم تسرب العديد من المذاهب إلى بلاد المغرب.[5] إلا أن الظهور كان لمذهب مالك ابن أنس،[6] فالتزام الناس به منذ زمن أسد بن الفرات (ت213هـ/828م)،[7]وتشبثت به الجماهير الشعبية،[8] ومع

---

[1]بنو يعلى: نسبة إلى يعلى الذي تولى أمر بني خزر المغراويين الذين تمكنوا من الرجوع إلى تلمسان إثر انتصارات زيري بن عطية المغراوي على صنهاجة في أواخر القرن 4هـ/10م. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 93.

[2]نفسه، العبر، ج7، ص 93.

[3]نفسه، العبر، ج7، ص 93.

[4]عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص 10.

[5]نفسه، ص 32.

[6]مالك بن أنس: من علماء المدينة المنورة ينسب إليه المذهب المالكي توفي 179هـ /795مـ، خليفة بن خياط: طبقات خليفة بن خياط، تح سهيل زكار، (د م)، 1414هـ/ 1993م، ص 479.

[7]أسد بن الفرات: يكنى أبا عبد الله أوله من خرسان من نيسابور ولد سنة 145هـ /762م وقيل 143هـ/760م توفي سنة 214هـ/828م. محمد بن أحمد بن تميم أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وكتاب علماء تونس، دار الكتاب اللبناني، لبنان، (د ت)، ص 81 –83؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج 2 ص380 – 381.

[8]عبد العزيز المجذوب: المرجع السابق، ص43. وعن انتشار المذهب المالكي بالمغرب أنظر الإصطخري: المصدر السابق، ص 45؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1431هـ/ 1991م، ص39-236.

قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط مع أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي حاولت بمختلف الطرق نشر مذهبها الشيعي.[1]

فكانت قبائل كتامة محتضنة المذهب الشيعي منذ مرحلة الدعوة السرية،[2] كما اعتنق كبير صنهاجة وزعيم تلكاتة زيري بن مناد المذهب الشيعي منذ الدعوة السرية،[3]ولا نقف عن الأسباب الحقيقية التي دفعت صنهاجة إلى التشيع إلا أن ابن خلدون(ت808هـ/1405م) قد جعل لصنهاجة ولاية لعلي ابن أبي طالب،[4]وهي الولاية التي قال هو نفسه أنه لا يعرف جذورها وأصلها،[5] كما لا يستبعد أن تكون الدوافع سياسية أكثر منها دينية،[6] ومع هذا لم يجد المذهب الشيعي الفاطمي طريقه عند عموم قبائل المغرب الأوسط.

وفي خضم الصراع الذي نشب بين حماد وابن أخيه باديس سنة 405هـ/1014م، قتل الرافضة وأظهر السنة وراجع دعوة آل العباس،[7] فكان بذلك بنو حماد أول كيان بربري إسلامي ببلاد المغرب تمذهب بالمذهب السني،[8] ورغم تأرجح ولاء بني حماد تارة للعباسيين وأخرى للفواطم،[9]وذلك طبعا وفق املاءات المصالح السياسية، فإن الذي يهما هو صدى هذا التحول

---

[1]ابن حماد: المصدر السابق، ص 50؛ الدباغ: المصدر السابق، ج، 1ص25؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، 159 وغيرها؛ رابح بونار: المرجع السابق، ص 170.

[2]ابن حماد: المصدر السابق، ص 38؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 92؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص128؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص63؛ المقريزي: اتعاظ، ج1، ص 47.

[3]بوبة مجاني: الإسماعيليون في المغرب، ص 174؛ رضا بن النية: المصدر السابق، ص 71.

[4]ابن خلدون: العبر، ج6، ص311.

[5]نفسه، العبر، ج6، ص311؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 36.

[6]رضا بن النية: المرجع السابق، ص 82-83-84.

[7]ابن خلدون: العبر، ج6، ص350-351، الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص 146؛ الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج2، ص 111.

[8]عبد القادر بوعقادة: التحول المذهبي في العهد الصنهاجي الحمادي الزيري وأثره على بلاد المغرب الأوسط، الملتقى الدولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398 هـ / 1007م، جامعة المسيلة، المسيلة، 2007م، ص 380.

[9]نفسه، ص 380؛ عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج 1، ص 360-361.

السني في أوساط العامة الذي حافظوا على مالكيتهم رغم كل المحاولات الشيعية فربما عمقت هذه القطيعة في تمسك أهل المغرب الأوسط أكثر بمذهب مالك. [1]

- المنظومة اللغوية والعلمية:

رغم نجاح صنهاجة ممثلة في تلكاتة منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي، في إقامة دولة بربرية والتي انقسمت مع مطلع القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي، إلى دولتين بربريتين إلا أن هذا لم يكن مصحوبا بتراجع الطابع العربي لصالح الحوزة البربرية.[2]

فرغم أن تعريب صنهاجة لم يكن كليا،[3]إلا أن الازدهار الذي عرفته دولة صنهاجة الزيرية والحمادية على حد سواء قد أدى إلى نجاح تعريب شرائح واسعة من صنهاجة،[4]فممارسة الحكم فرضت على أمراء صنهاجة وملوكها التمرن على اللغة العربية والتحكم فيها لا سيما أن لغة المدن وأمصار المغرب هي اللغة العربية.[5]

ويبدو أن نصيب بني زيري كان أوفر حضا في انتقالهم إلى اللغة العربية من بني حماد ومرد ذلك إلى سرعة اندماج بني زيري بسهولة في صلب المجموعة العربية البربرية المنصهرة من قبل ضمن بوتقة الحضارة القيروانية،[6]ومع ذلك فإنه ومما لا شك فيه أن التعريب سواء عند بني زيري أو بني حماد قد وصل لدرجة تتيح لثقافة اللسان العربي أن تنشأ وتزدهر.[7]

كما كان للنهضة العمرانية التي تميز بها بنو زيري، وبنو حماد على السواء في توجه البربر أكثر نحو الاستقرار بالمدن والتي كانت ثقافتها عربية على وجه الخصوص،[8] وهو ما سهل

---

(1)السلاوي: المرجع السابق، ج1 ص، 199.

(2)بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص 439.

(3)الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 2، ص 08.

(4)نفسه، ج2، ص 214-215.

(5)ابن خلدون: المقدمة، ص415.

(6)الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 2، ص 08.

(7)بو يحيى الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص477.

(8)نفسه، ج 2، ص 440.

الاحتكاك الثقافي أكثر فأكثر، بل يرى الهادي روجي إدريس أن انتشار التعريب عند بني زيري كان من بين العوامل التي دفعت المعز بن باديس(454هـ/1062م) أو على الأقل شجعته في إحداث القطيعة مع الفاطميين.(1)

لكن يجب أن ننبه أن مقاطعة الحماديين لدعوة الفواطم كانت قبل أبناء عمومتهم بنو زيري بعقود، فهل كان استحكام الثقافة العربية من العوامل التي شجعتهم على ذلك؟

أما فيما يخص الحياة العلمية والأدبية فلقد جعل أحد الدارسين النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي مرحلة النضج الثقافي بالمغرب الأوسط،(2)حيث أصبحت الكثير من مدنه مركز الإشعاع العلمي والثقافي ومن ذلك ازدهرت مدينة أشير 324هـ/935م، بالعلماء والفقهاء.(3)

وأصبحت مدينة القلعة قبلة للطلاب والعلماء، لقول ابن خلدون (ت808هـ/1405م): «ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف»،(4)فلا غرابة إذا في ازدهار الحركة الثقافية والعلمية خلال العهد الحمادي.

مع حرص ملوكهم على رعاية هذا النشاط والتقرب من العلماء والفقهاء والأدباء،(5) فكان الناصر بن علناس(ت454هـ/481هـ) يتقدم الأدباء إليه ويغدق صلاته عليهم،(6) كما كان العلماء يتناظرون في مجلس العزيز بالله(515هـ/1121م).(7)

وعموما نجد الكثير من الشواهد التي تؤكد على حالة الازدهار والنشاط التي بلغتها الحركة العلمية والثقافية والأدبية خلال العهد الحمادي وذلك بفضل التوغل العميق للحضارة

---

(1)المرجع السابق، ج1، ص214 – 215.

(2)رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 350.

(3)النويري: المصدر السابق، ص 305؛ رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 350.

(4)العبر، ج 6، ص 350؛ عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 80.

(5)رابح بونار: المرجع السابق، ص195.

(6)نفسه، ص 196.

(7)ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 362.

العربية في المجتمع الحمادي من خلال عناصر الدين واللغة والتي تعززت أكثر بانتصار المذهب المالكي.[1]

ج-السيمات الاقتصادية للمجتمع الحمادي:

كان لقيام الدولة المركزية لبني حماد بالمغرب الأوسط والتحولات التي عرفها النسيج الاجتماعي خلال عهدهم بالمغرب الأوسط تداعيات واضحة، على سيمات النشاط الاقتصادي الزراعي والحرفي على حد سواء، فما هي بنية اقتصاد المغرب الأوسط خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي؟

- النشاط الزراعي:

لقد ربط ابن حوقل(ت367هـ/971م) الإنتاج الزراعي في العديد من مدن وقرى المغرب الأوسط بالبوادي التي كانت حولها أو بالقرب منها،[2]حيث كانت هذه المدن والقرى تعتمد في التزود بالغلال الفلاحية ومختلف المنتوجات من بواديها.[3]

ويعزى انتشار الزراعة البدوية إلى السياسية المالية والاقتصادية التي كرستها الدولة الفاطمية وتحكمها في المواد الأولية،[4]بالمغرب الأوسط،[5]إضافة إلى أثر سقوط الدولة المركزية الأولى بتهرت على يد الفواطم وما صاحبه من ركود اقتصادي واسع.[6]

في حين نلاحظ التحول الزراعي من خلال ما أورده البكري (487هـ/1094م) إذ لم يأتي على ذكر البوادي بالمغرب الأوسط،[7] مما يوحي بتراجع اقتصاد البادية في المغرب

---

[1]الطاهر بونابي: قلعة بني حماد التأسيس والتداعي، ص 81.

[2]من المدن والقرى التي جعلها تتزود بالغلال الزراعية والمنتوجات الفلاحية من بواديها كل من: بونة، شرشال، تنس، باغاية، بلزمه، جزائر بن مزغنة. المصدر السابق، ص 76-93.

[3]الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص 204.

[4]من مظهر احتكار الفاطميين لبعض الموارد بالمغرب الأوسط احتكار المرجان بمرسى الخرز. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 75. وكذلك احتكار أجود أنواع التمور ببسكرة. البكري: المصدر السابق، ج2، ص 230-231.

[5]الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص 204؛ بوبة مجاني: المذهب الإسماعيلي، ص 86.

[6]الطاهر بونابي: القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ص 204.

[7]المصدر السابق، ج2، ص 229-263.

الأوسط خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، والذي حل محله ازدهار زراعة المدن وكثرة بساتينها فقط ربط هذا الأخير الإنتاج الزراعي بالبستنة وغلال المدن.[1]

حيث بلغ عدد المدن والقرى التي كانت تزود من بساتينها بمختلف الثمار والغلال في أكثر من اثنتي عشر مدينة وقرية،[2]وهذا راجع إلى أثر بني حماد في تمدين المغرب الأوسط، من جهة وإلى اهتمامهم وعنايتهم بالبساتين من جهة أخرى.[3]

ولقد أدت هذه التحولات إلى تغير في أنواع المحاصيل والغلال الزراعية وذلك طبعا تبعا لنوع التنظيم الزراعي السائد، حيث كان من أهم محاصيل القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي الحبوب إضافة إلى مختلف أنواع الثمار والفواكه،[4]في حين تميز القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي بكثرة المحاصيل من الفواكه والثمار وتراجع انتاج الحبوب والحنطة،[5] وإلى جانب الغلال الزراعية فإن تربية المواشي كانت حسب ابن حوقل(ت367هـ/977م) واسعة الانتشار في مختلف جهات المغرب الأوسط،[6]في المقابل نلاحظ تراجع ملموس للنشاط الرعوي خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.[7]

- النشاط الحرفي:

يربط ابن خلدون(ت808هـ/1405م) وجود البضائع باستحكام الحضارة وطول أمدها ويبرر قتلها بالمغرب لبداوته وقلة عمرانه وأمصاره،[8]لكنه يعود ويشير إلى آثار للصنائع في قلعة بني حماد كنموذج على التلازم بين الصنائع والحضارة والعمران فيقول: « وكذا نجد

---

[1]البكري: المصدر السابق، ج2، ص 229-263.

[2]ورد ذكر البساتين في كل من: طبنة، بوبة، المسيلة، الخضراء، تاتش، مستغانم وفي مدن طولقة الثلاث، تهوذا، ندرومة أفكان بسكرة هنين. نفسه، ج2، ص 229 – 263.

[3]مجهول: الاستبصار، ص 130؛ فضل الله العمري: المصدر السابق، ج 4، ص 146.

[4]أنظر الملحق رقم 1 ص170-171.

[5]أنظر الملحق رقم 2 ص172-173.

[6]ابن حوقل: المصدر السابق، ص 75-96.

[7]البكري: المصدر السابق، ج 2، ص 227-260.

[8]المقدمة، ص 440.

بالقيروان و مراكش وقلعة ابن حماد أثرا باقيا من ذلك –الصناعات – وإن كانت هذه كلها اليوم خرابا أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس، فيجد من هذه الصنائع آثارا تدله على ما كان بها، كأثر الخط الممحو في الكتاب.» [1]

وعن تعدد الصناعات والحرف عهد بني حماد يقول الإدريسي في سياق حديثه عن مدينة بجاية: «وبها من الصناعات والصناع ما ليس لكثير من البلاد ... وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة.»[2]

حيث ازدهرت الحرف في عهد بني حماد وتنوعت، ومن أهمها حرفة النسيج التي أكد صاحب الاستبصار تخصص أهل بجاية في صناعة العمائم قائلا: «كانت لملوك صنهاجة عمائم مذهبة تساوي العمامة الخمسمائة دينار وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي كأنها تيجان. ببلدهم صناع لذلك فأخذ الصنائع عل تعميم عمامة منها دينارين و أزيد وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس تعمم تعمم عليها تلك العمائم ... ».[3]

إضافة إلى صناعة السفن حيث وجد ببجاية دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي،[4] ويشير الإدريسي إلى توفر بجاية على المواد الأولية (الخشب، الزفت، القطران والتي كانت حسبه عالية الجودة فضلا عن الصناعات المعدنية،[5]والخزف، فقد عثر بمدينة بجاية على بعض الأواني البالغة الرقة والمصنوعة من طين مطلي كما عثر أيضا ببجاية ومدينة القلعة على عدة شقفات من الخزف المتعدد الألوان وكانت على وجه العموم

---

[1] المقدمة، ص 439.

(2) المصدر السابق، ص 116.

[3] المصدر السابق، ص129؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4 ص 390؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 200.ونلمس انتشار الصناعات النسيجية في عدة مناطق من المغرب الأوسط على غرار تلمسان وجبل وانشريس وغيرهما. الزهري: المصدر السابق، ص 113؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص140–141؛ الحسن الوزران: المصدر السابق، ج2، ص 14؛ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص 296.

[4] الإدريسي: المصدر السابق، ص116. وهي عند صاحب الاستبصار داران. المصدر السابق، ص 130؛ عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 250.

[5]الإدريسي: المصدر السابق، ص 116؛ مجهول: الاستبصار، ص 130.

ذات لون بني وأخضر وأحيانا أصفر وأزرق [1]ولقد استرسل الأستاذ رشيد بوروبية في وصفه لخزف وفخار كل من مدينتي بجاية والقلعة [2].

وبذلك أعطت الدولة الحمادية توجها جديدا لاقتصاد المغرب الأوسط الزراعي من خلال التخلي عن اقتصاد البادية وتعزيز زراعة المدن والحصون ومن خلال أيضا اهتمامهم بالنشاط الحرفي ومختلف أنواع الصنائع التي تعد من توابع الحضارة.

---

[1] الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص252.

[2] المرجع السابق، ص 274-290.

الفصل الثالث: الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط (المتغيرات والعلائق)

1- دخول العرب الهلالية الى المغرب الاسلامي:

أ- الظهير الفاطمي وأثره في رسم توزيع الساكنة الهلالية.

2- العرب الهلالية بالمغرب الأوسط:

أ- حيازة الأرياف والضواحي والمجالات.

ب- انحصار الساكنة الصنهاجية بالمدن والحصون والجبال.

3- الثقافة الهلالية الوافدة إلى المغرب الأوسط:

أ- اللهجة الهلالية.

ب- الشعر الهلالي.

ج-إشكالية المذهب الديني عند بنو هلال.

د-اللباس الهلالي.

هـ-المسكن الهلالي.

و-العادات والتقاليد.

4- مظاهر العلاقات والاندماج البربري الهلالي:

أ- المصاهرة وتبدل اللسان.

ب-ثنائية البداوة والاستقرار.

ج- التوبة الهلالية.

د- العادات والتقاليد.

هـ-الزي واللباس.

1-دخول العرب الهلالية بلاد المغرب الإسلامي:

شكل العقد الرابع من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي حدثا مفصليا في تاريخ المغرب الإسلامي، وذلك نظرا لما عرفه من تغيرات جذرية مست مختلف جوانب الحياة، فرضها طبعا دخول قبائل العرب الهلالية، لا سيما على مستوى التوزيع القبلي والوضع السياسي والأمني وكذا الاقتصادي، إضافة إلى الجانب الحضاري في إطار التفاعل بين البربر والعرب الهلالية.

أ-الظهير الفاطمي:

كان من تداعيات قطع المعز بن باديس (ت453هـ/1061م)، الدعوة للفاطميين مذهبيا وسياسيا ودخوله في طاعة بني العباس وإعلانه المذهب السني،[1]وحمل الناس على المذهب المالكي،[2]أن عاقبه الفاطميون بالسماح لبني هلال،[3]وبني سليم،[4]باجتياز نهر النيل والعبور إلى بلاد المغرب.[5]

---

[1]محي الدين عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت،1426هـ/2006م، ص250؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص1438؛ الدباغ: المصدر السابق، ج 1، ص25؛ التيجاني: المصدر السابق، ص54؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص275-276؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 28-29.

[2] ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 81.

[3] بنو هلال: هم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان ابن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر ولهم بطون كثيرة منها الأثبج، قرة، زغبة، رياح. ابن حزم: المصدر السابق، ص282؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص36؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص443/ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت) ، ص394؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص282.

[4] بنو سلم: هم بنو منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان وفيهم بطون كثيرة هي زغب، ذياب، هبيب، عوف: ابن حزم، المصدر السابق، ص282، ابن خلدون: العبر، ج 6، ص141؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج1 ص 399.

[5] إذ لم يكن يسمح لهم بتخطي النيل إلا بعدما كان من المعز. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص288؛ التيجاني: المصدر السابق، ص54. وإضافة إلى القطيعة السياسية والمذهبية التي أحدثها المعز فإن سماح الفاطميين للعرب الهلالية بدخول المغرب له دوافع أخرى منها اقتصادية واجتماعية. راضي دغفوس: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، ط1، دار الغرب، بيروت،1425هـ/2005م، ص154.

ومنحهم وفق ذلك ظهيرا جاد فيه قوله: «قد أعطيتم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق» [1]،حيث أباح لهم من برقة،[2] إلى ما بعدها، [3]ولم يكن ذلك وحسب بل إن المقريزي(ت845هـ/1491م) يتحدث على إشراف الخليفة المستنصر بالله الفاطمي[4] على تقسيم المغرب على شيوخ القبائل الهلالية وزعمائها.[5]

وهو ما يعني أنه منحهم حق امتلاك البلاد وخيراتها، لذلك اعتبرت العرب الهلالية هذا الظهير سندها الشرعي في الولوج إلى المغرب وحسبنا أنهم نادوا بعد وصولهم إلى المغرب بشعار الخليفة المستنصر.[6]

ويحدد عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/1405م) وصول القبائل العربية إلى المغرب بسنة 441هـ/1049م.[7]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج 6، ص31.

(2) برقة: مدينة في مرج واسع عليها سور وأبواب وخندق بينها وبين مصر 20 مرحلة. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 131، الإصطخري: المصدر السابق، ص 46. وهي عند المقدسي بين مصر وإفريقية. المصدر السابق، ص216.

(3) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 105.

(4) المستنصر بالله: اسمه معد وكنيته أبو تميم لقبه المستنصر بالله حكم بعد أبيه الخليفة الطاهر ولد سنة 420هـ/ 1030م توفي 487هـ/1095م وكان دخول العرب الهلالية لبلاد المغرب خلال عهده. ابن حماد: المصدر السابق، ص 104؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، 184-332.

(5) تقسيم الخليفة الفاطمي لبلاد المغرب: كان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية جعل لمؤنس بن يحي المرداسي ولاية القيروان وباجة، وأعطى زغبة طرابلس وقابس وجعل للحسن بن مسرة في ولاية قسنطينة. المقريزي: اتعاظ، ج2، ص218. الهادي روجي ادريس، المرجع السابق، ج1، ص251.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص217.

(7) ابن خلدون: العبر، ج 6، ص30. في حين يجعل ابن عذارى والنويري سنة دخولهم للمغرب ونزولهم ببرقة 442هـ/1050م. ابن عذارى: المصدر السابق، ج1ص 288؛ النويري: المصدر السابق، ص343.

كما يشير أيضا إلى دخول بطون قبائل أخرى، غير بني هلال و بني سليم،(1)لكن صار اسم بني هلال غالبا لهذه الجماعات المتنوعة المتحالفة،(2)ومن أهم الملاحظات التي سجلتها بعض المصادر، قلة عدد القبائل البربرية لحظة دخول العرب، ففي هذا الصدد يقول ابن الأثير (ت630هـ/1232م): «فلما حلوا بأرض برقة وما ولاها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل لأن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز »،(3) وهي إشارة واضحة على انهيار عصبيات القبائل البربرية وتراجع ديمغرافيتها جراء السياسة العسكرية التي اعتمدها المعز بن باديس ضد خصومه.(4)

وربما كان ذلك من العوامل التي سهلت دخول القبائل العربية وتقدمها نحو إفريقية،(5) حيث تقارعوا على البلاد فحصل سليم على الشرق ولهلال الغرب،(6)وبذلك أقامت بطون من سليم وأحلافها بأرض برقة، في حين تقدمت بطون بني هلال ومن معهم نحو إفريقية.(7)

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 36.

(2) المقريزي: البيان والإعراب، ص36.

(3) المصدر السابق، ج9، ص 1439، النويري: المصدر السابق، ص343؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص131.

(4) حول الحملات العسكرية التي أرسلها المعز بن باديس الصنهاجي إلى زناتة وتكبدها لخسائر بشرية فادحة بجهات طرابلس وبرقة أنظر ابن عذارى: المصدر السابق، ج 1، ص 274-275.

(5) فوزية كرراز: صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازها: ملتقى دول حول قلعة بني حماد أيام 5-10-11أفريل 2007-المسيلة،2007م، ص342.

(6) ابن خلدون: العبر، ج6، ص31.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج 2، ص217.

ويبدو أن وصول القبائل الهلالية إلى إفريقية كان سنة 443هـ/1052م،[1]وبعد الهزائم المتتالية التي مني بها المعز بن باديس،[2]أخذت هذه القبائل في التوسع معتمدة على أسلوب التحرك البطيء والتوسع التدريجي بامتلاك أطراف المدن،[3]إذ لم يكن دخولهم في شكل جيش زاحف بل كان في شكل قبائل تحتل بلد مفتوح ثم تتفرق من جديد لتتقدم بعدها في سائر الأنحاء.[4]

وفي سنة 446هـ/1055م اقتسمت العرب بلاد إفريقية وتصرم الملك من يد المعز بن باديس.[5]

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص31.

(2) حول هزائم المعز بن باديس أمام قبائل بني هلال. أنظر النويري: المصدر السابق، ص347.

(3) نفسه، ص345؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص253؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص174.

(4) نفسه، ص174.

(5) مر تقسيم إفريقية بمرحلتين الأولى كان لزغبة طرابلس وماايليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها أما التقسيم الثاني فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان. ابن خلدون: العبر، ج6، ص33-34، المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص217.

2-العرب الهلالية بالمغرب الأوسط:

لقد سبق وأن تحدثنا عن الظهير الفاطمي الذي منحه الخليفة الفاطمي للقبائل العربية، والذي بمقتضاه تم تقسيم ملك المغرب على شيوخ القبائل الهلالية، فكان أن صارت ولاية قسنطينة للحسن بن مسرة،[1] أمير قبائل دريد،[2] الأمر الذي شرع لهم الاستمرار في التقدم نحو الغرب.[3] رغم الطابع الجبلي الذي يميز طبوغرافيا المغرب الأوسط.[4]

ومن مقدمات الوصول الهلالي إلى المغرب الأوسط حديث ابن خلدون(ت808/1405م) عن امتلاك أبا مسعود من شيوخ بني هلال لمدينة بونة صلحا،[5] ويبدو أن العلاقات التي أقاموها مع بعض ملوك بني حماد قد ساعدتهم أكثر في التوسع بالمغرب الأوسط.[6]

ونجد أول تدخل للعرب الهلالية في الشؤون السياسية الداخلية لبني حماد سنة 447هـ/1056م وذلك عندما حاول محسن ابن القائد(ت447هـ/1056م) استعمال قوما من العرب لقتل ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد(ت454هـ/1062م).[7]

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص218؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص251.

(2) دريد: بطن من بطون الأثبج الهلالية وهم يتألفون من قبائل كثيرة منهم أولاد عطية، أولاد سرور، أولاد جار الله. ابن خلدون: العبر، ج6، ص50-51.

(3) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص166.

(4) راضي دغفوس: المرجع السابق، ص211.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص33.

(6) راضي دغفوس: المرجع السابق، ص212.

(7) النويري: المصدر السابق، ص344؛ راضي دغفوس: المرجع السابق، ص212؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص286.

كما استعمل هذا الأخير في حملته على زناتة سنة 450هـ/1050م بطون الأثبج،[1]وعدي.[2]

إلا أن الحدث الأكبر والذي أدى إلى رسم واقع اجتماعي وسياسي واقتصادي وثقافي جديد تماما بالمغرب الأوسط هو الهزيمة التي لحقت بالناصر بن علناس (ت481هـ /1081م) في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م،[3]فقد جمع هذا الأخير جيشا من صنهاجة وزناتة ومن العرب عدي والأثبج وحاول الاستيلاء على ملك بني عمه بني زيري بإفريقية إلا أنه انكسر وانهزم أمام قبائل رياح،[4]وزغبة،[5]وسليم.[6]

فبعد هذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد،[7]كما تغيرت الوضعية الاقتصادية للقبائل العربية المنتصرة بفضل الغنائم والذخائر التي استولوا عليها من محلات الناصر بن علناس الحمادي.[8]

---

[1] الأثبج: من بطون بني هلال وكانوا عند دخولهم المغرب الأوفر عددا والأكثر بطونا. ابن خلدون: العبر، ج6، ص48.

[2] عدي: لا يجزم ابن خلدون بنسبهم إلى بني هلال: نفسه، العبر، ج6، ص36. ابن الأثير: المصدر السابق ج9، ص 1439؛ النويري: المصدر السابق، ص347؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص273.

[3] حول هزيمة الناصر بن علناس في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م أنظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1472؛ النويري: المصدر السابق، ص351.

[4] رياح: هم رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. ابن خلدون: العبر، ج6، ص69.

[5] زغبة: هم إخوة رياح من أبناء بني ربيعة بن نهيك بن عامر. نفسه، ج6، ص85.

[6] النويري: المصدر السابق، ص351؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص355.

[7] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1472.

[8] نفسه، ج10، ص1472؛ النويري: المصدر السابق، ص351.

في حين رجع الناصر بن علناس إلى القلعة في فل من عسكره لم يبلغوا مائتا مقاتل،(1)فقد بلغ عدد القتلى من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألف قتيل،(2)فقل المحامي على البلد،(3)وأخذ الوجود الهلالي بالمغرب الأوسط وضعا جديدا حيث تخطى العرب أعمال بني حماد وأحجروهم بالقلعة،(4)كما بدأوا بعبثهم وعيثهم في قرى ومدن المغرب الأوسط.(5)

ولم يقتصر الصراع الهلالي مع ملوك بني حماد فحسب بل سرعان ما انتقل ليشمل زناتة، فبعد أن غلب العرب صنهاجة اجتهدت زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للبأس والنجدة بالبداوة،(6)فحاربهم أمير تلمسان آنذاك بحتي من ولد يعلى المغراوي الزناتي وفي هذا يقول ابن خلدون (808هـ/1405م):« فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد. »

وعقدوا على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سعدى خليفة بن اليفريني، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب وما إليه من بلاد إفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم.

وبذلك انهزمت قبائل زناتة أمام بني هلال وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك.(7)

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص355.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1472؛ النويري: المصدر السابق، ص355.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1472.

(4) ابن خلدون: العبر، ج7، ص93.

(5) نفسه، العبر، ج6، ص43.

(6) نفسه، العبر، ج6، ص42.

(7) نفسه، العبر، ج6، ص42/ج7، ص 128؛ الهادي روجي إدريس: ج1، ص289.

وبعد ظهور معالم الحدود الجغرافية بين زناتة والقبائل الهلالية بجبل راشد-العمور-ومصاب من بلاد المغرب الأوسط، ووضعت الحرب أوزارها،[1] لتتضح صورة التوزيع القبلي لبطون القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط.

أ-حيازة الأرياف والمجالات والضواحي:

رغم دخول العرب الهلالية إلى المغرب الأوسط في وقت مبكر إلا أن هزيمة سبيبة457 هـ/ 1061م قد أحدث فارقا حقيقيا في طبيعة الوجود الهلالي، فبعد فشل بني حماد في مواجهتهم عسكريا وكذلك فشل قبائل زناتة إضافة إلى فشل التحالف العسكري الصنهاجي الزناتي في دحر القبائل الهلالية،[2]اضطر بنو حماد إلى الاتفاق معهم،[3] ومصالحتهم على التنازل لهم على ملك الضواحي،[4]وكذلك البوادي.[5]

فقد كان بنو هلال متطلعين منذ خروجهم من صعيد مصر إلى الحصول على الغنائم والسيطرة على المجالات والمناطق الواسعة من البلاد،[6]وربما هذا ما عناه ابن خلدون(ت808هـ/1405م) بقوله: "و لم يزل هذا دأب العرب حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي إفريقية والزاب".[7]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص42.

(2) يقول ابن خلدون عن التحالف الصنهاجي الزناتي: «وعظمت حاجة بني حمّاد إليهم في ذلك عند ما عصفت بهم ريح العرب الضوالع من بني هلال بن عامر، وصرعوا دولة المعزّ وصنهاجة بالقيروان والمهديّة والإيواء عن مدّهم، وزحفوا إلى المغرب الأوسط فدافعوا بني حمّاد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعتهم أيضا، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد». العبر، ج7، ص128.

(3) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص289.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص42.

(5) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص289.

(6) راضي دغفوس: المرجع السابق، ص208.

(7) ابن خلدون: العبر، ج6، ص35؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص218.

إذ لم يكتف بنو هلال بضواحي صنهاجة، التي أصبحوا يتحيفون بجوانبها بل امتدت أعينهم إلى ضواحي زناتة أيضا والتي غلبوها وأزاحوها من الزاب وما إليه من بلاد إفريقية وبذلك تغلبوا على الضواحي في كل وجه.[1]

وفي أثناء تخلي البربر تدريجيا عن الأراضي المستوية – السهول –كان العرب يمعنون في التوغل بالبوادي المغربية.[2]

وبذلك تحولت مساحات واسعة من أراضي المغرب الأوسط إلى ضواحي ومجالات تقطنها الساكنة الهلالية، لقد كان استقرارهم بها سريعا جدا،[3]علله ابن خلدون (ت808هـ/1405م) بسهولة استيلاء العرب على البسائط لفقدانها الحامية وضعف الدولة.[4]

فأصبحت المنطقة الممتدة من قسنطينة إلى القل للعرب الهلالية،[5]ومن بونة إلى دار ملول،[6]التي بها حصن ينظر منها إلى مجالات العرب،[7]إضافة إلى تحكم العرب الهلالية في الأراضي المحيطة بكل من بونة وميلة ومرسى الخزر وحصن باديس،[8]وتغلبهم أيضا على الطريق بين القل وجيجل،[9]كما يبين ابن سعيد المغربي(ت685هـ/1268م) أنه من حد قسنطينة إلى بجاية مجالات العرب الهلالية،[10]وما بين جبل أوراس إلى بونة أيضا في شمالي

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص35-42.

(2) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص46؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص174-233.

(3) دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص193.

(4) المقدمة، ص178.

(5) الإدريسي: المصدر السابق، ص123؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص105.

(6) دار ملول: مدينة كانت عامرة بينها وبين نقاوس ثلاث مراحل وبينها وبين جبل أوراس مرحلة وزائد. الإدريسي: المصدر السابق، ص 120.

(7) نفسه، ص120.

(8) نفسه، ص121-153-154.

(9) نفسه، ص 125.

(10) المصدر السابق، ص37؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص204.

الصحراء جهة جبل وسلات وحول المسيلة كلها، أصبحت مجالات لبطون من عرب بني هلال،[1]وما بين تبسة وسطيف بادية يسكنها العرب الهلالية.[2]

أما أهم البطون الهلالية التي استقرت ببلاد المغرب الأوسط، فقد كان لبطون الأثبج وهي الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة،[3]الحضور الأقوى وذلك لاستخلاص بني حماد للأثبج دون قبائل بني هلال،[4]إضافة إلى قوتهم وتقدمهم على سائر قبائل بني هلال عند دخولهم المغرب،[5]حيث كانت مواطنهم حيال جبال أوراس من شرقيه،[6]فنزلت عياض في جبال قلعة بني حماد،[7]واستقرت كرفة بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا.[8]

أما دريد فإنها انتشرت ما بين بلاد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفز،[9]وكان تجمع بطون الضحاك بالزاب.[10]

---

(1) ابن سعيد: المصدر السابق، ص37؛ دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص190.

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص13.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص30.

(4) نفسه، العبر، ج6، ص43؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص309.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص48.

(6) نفسه، العبر، ج6، ص48.

(7) نفسه، العبر، ج6، ص535.

(8) نفسه، العبر، ج6، ص50.

(9) نفسه، العبر، ج6، ص51.

(10) نفسه، العبر، ج6، ص53.

وإضافة إلى الأثبج فقد دخلت بطون زغبة الهلالية على غرار أولاد حصين والسويد وبنو عامر وبني يزيد واستقرت هي الأخرى بالمغرب الأوسط.[1]

ويحدد ابن خلدون(ت808هـ/405م) مواطن زغبة بقبلة تلمسان،[2]قرب بني يعلى أمرائها[3].

ولحق العمور،[4]بالأثبج وسكنوا بالضواحي وصارت مواطنهم ما بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد وكان كل ذلك من ناحية الحضنة والصحراء،[5]أي اتجاه قبائل العمور نحو المفاوز والقفار.

واستوطن الثعالبة وهم من بطون المعقل،[6]بالمنطقة الممتدة من تيطري إلى المدية،[7]أما أرض بونة فكانت في حصة بطون بني سليم.[8]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص105وغيرها.

(2) نفسه، العبر، ج6، ص105.

(3) نفسه، العبر، ج7، ص93-94.

(4) العمور: يغلب على الظن أنهم من ولد عمر بن عبد مناف بن هلال؛ نفسه، ج6، ص55.أما التيجاني فجعلهم فخذ من الوشاحيين وينسبون إلى عمور بن وشاح أخو جارية بن وشاح أخو المحاميد. المصدر السابق، ص189.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 55.

(6) المعقل: من البطون اليمنية القليلة العدد دخلوا إلى المغرب مع بني هلال وبنو سليم. نفسه، العبر، ج6، ص118.

(7) نفسه، العبر، ج6، ص126.الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص95.

(8) ابن خلدون: العبر، ج6، ص144؛ دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص195.

أما بطون رياح فقد ازدادت قوة بعد ضعف عصبية الأثبج،[1]كما ساهم بنو سليم في ازاحتهم من إفريقية،[2] وتوغلهم نحو المغرب الأوسط،[3]وتغلبهم على الضحاك بالزاب بينما صارت مجالات كرفة قرب جبل أوراس.[4]

ويحسن الذكر أن هذا التوزيع القبلي للعرب الهلالية بالمغرب الأوسط لم يستقر على حاله، نظرا للأحداث السياسية والعسكرية التي عرفها المغرب الإسلامي برمته ثم إن القبائل والبطون الهزيلة كانت تتخلى عن مواطنها أمام القبائل الأقوى الوافدة عادة من إفريقية غالبا ومن هنا ضل الحراك القبلي الهلالي دائم الاضطراب وغير مستقر.

ماعدا استقرار أكثر البطون الهلالية بالمناطق الشرقية من المغرب الأوسط ما بين بونة طبنة قسنطينة والزاب وميلة والقلعة،[5] بسبب الفراغ الديموغرافي الذي خلفه انهيار أقوى العصبيات البربرية وأعني بذلك كتامة وهوارة.[6]

أما الجهة الغربية من المغرب الأوسط، فبالرغم من انتصار العرب الهلالية إلا أن قبائل زناتة تمكنت من إعاقة تقدمها نحو الغرب لفترة من الزمن حيث شكلت قبائل بني بادين الزناتية سياجا على التلول القبلية، الممتدة ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المدية في الشرق.[7]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص45.

(2) نفسه، العبر، ج6، ص 72.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص72.

(4) نفسه، العبر، ج6، ص49-50.

(5) فوزية كرراز: المرجع السابق، ص343.

(6) عللت فوزية كرراز عدم مواجهة قبائل كتامة للوجود الهلالي بمواطنها بسببين هما: -إما لمكاتبة الدولة الفاطمية لهؤلاء بعدم التعرض للعرب، -وإما التقرب منهم من تلقاء أنفسهم نكاية في صنهاجة. نفسه، ص343.

(7) ابن خلدون: العبر، ج6، ص95.

وبذلك يمكننا القول بتحول الأراضي والبسائط بالجهات الشرقية من المغرب الأوسط إلى مراعي ومجالات لقبائل العرب البدوية في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي في حين امتد النزوح الهلالي غربا في القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي.[1]

ويبدو أن ظاهرة استيلاء العرب على الضواحي واتساع مساحات المجالات لم تكن قاصرة على المغرب الأوسط فحسب، بل تحولت برقة التي درست معالمها وخربت أمصارها إلى مجالات للعرب، كما أصبحت كل البسائط ما بين طرابلس وإفريقية لهم.[2]

ب – انحصار الساكنة الصنهاجية بالمدن والحصون والجبال:

لقد أدى امتلاك القبائل الهلالية للضواحي والأرياف والمجالات إلى انسحاب الساكنة البربرية منها تدريجيا نحو المدن والاحتماء بالحصون أو الاستقرار بالجبال،[3]وهي الصورة التي نقلها إلينا عبد الرحمن ابن خلدون(ت808هـ/1405م) عن حالة انكماش الساكنة البربرية بقوله: «وتحيز فلهم–البربر– الذين غلبهم العرب على الضواحي إلى الحصون والمعاقل.»[4]

إضافة إلى تقلص أراضي الدولة–الحمادية–في البلاد الشرقية بعد استيلاء العرب الهلالية على البوادي والسهول بحد السيف حتى لم يبق بيد الدولة إلا ما ضمته أسوار المدن،[5]فبعد هزيمة سبيبة تخطى العرب أعمال بني حماد وأحجروهم بالقلعة،[6]فانحصر نفوذ بني حماد وولاتهم في المدن والأمصار وحالهم في ذلك حال سائر صنهاجة بإفريقية والمغرب

---

(1) فوزية كرراز: المرجع السابق، ص343.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص204.

(3) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص234.

(4) ابن خلدون: العبر، ج7، ص97.

(5) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص130.

(6) ابن خلدون: العبر، ج7، ص93.

لقول ابن خلدون (ت 808هـ/1405م): «وهجروا –أي العرب–ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار.»[1]

وباستثناء ظاهرة استباحت العرب الهلالية للقيروان 449هـ/1057م،[2] فإنه وبفضل حصانة أسوار باقي المدن لم تتمكن العرب الهلالية من اقتحامها كما أن ذلك يعود أيضا إلى صيغة التفاهم التي نجح الحماديون من خلالها في الحفاظ على مدن المغرب الأوسط واستمرار الساكنة بها.[3]

لقد توقف العرب الهلالية خلف المدن مع ابقاء ضغطهم على مسافة محترمة من المدينة.[4]بل أن هذه القبائل الهلالية لعبت دورا هاما في التحول الصنهاجي نحو إعمار المدينة بالمغرب الأوسط والتوجه نحو البحر الأبيض المتوسط، فالكثير من النصوص تبرر بناء مدينة بجاية،[5]بوصول الهلاليين.[6]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص43.

(2) نفسه، العبر، ج6، ص326؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص106.

(3) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص255.

(4) دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص255.

(5) بجاية: مدينة بناها الناصر بن علناس في سنة 460هـ/1067م وانتقل إليها سنة 461هـ/1068م. ابن خلدون: العبر، ج6، ص357. وصفتها المصادر الجغرافية بمدينة المغرب الأوسط وقاعدة ملكه وكان لها سور أحاط بالجبل العظيم المتعلقة به وهي من أهم مدن المغرب حيث وصفتها الكثير من مصادر الرحلات والجغرافيين. الإدريسي: المصدر السابق، ص116؛ العبدري: المصدر السابق، ص23–24؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص156؛ فضل الله العمري: المصدر السابق، ج4، ص145؛ ابن الصباح: المصدر السابق، ص102؛ الحسن الوزران: المصدر السابق، ج2، ص 50؛ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص 276–377.

(6) تجعل بعض المصادر سبب بناء مدينة بجاية إلى الضغط الهلالي الذي لحق ببني حماد وتضييقهم عليهم في عاصمتهم القلعة فكان اختيار موضع بجاية قرب الساحل وبجبل عالي بهدف ضمان منعتها على القبائل الهلالية. مجهول: الاستبصار، ص129؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص43–358. في حين تجعل مصادر أخرى سبب بنائها إلى رغبة الناصر بن علناس في التوسع على حساب مملكة بني عمه بإفريقية ومحاصرتهم لعاصمتهم المهدية التي كانت من المدن الساحلية برا وبحرا انطلاقا من مدينة بجاية الساحلية حيث تشير المصادر إلى حصانة المهدية وصعوبة اقتحامها برا. ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص1473؛ النويري: المصدر السابق، ص 352–353؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 339.

أضف إلى ذلك انتشار الحصون وكثرتها بالمغرب الأوسط وهو ما نلمسه في وصف الإدريسي (ت548هـ /1154م) للطريق الرابط بين بجاية وقلعة بني حماد والذي امتاز بكثرة الحصون المنيعة التي وقفت في وجه غارات العرب.[1]

وإلى جانب انحصار نفوذ دولة بني حماد بالمدن والأمصار خلف الحامية والأسوار، فإن الوجود الهلالي وانتشاره بالمغرب الأوسط قد دفع البربر إلى التوجه نحو المناطق الجبلية الوعرة، التي شكلت معاقل وملاجئ يلوذ بها السكان الذين كانوا يتخلون تدريجيا عن المناطق المستوية للعرب،[2]وعلل ابن خلدون (ت808هـ/1405م) سبب امتناع الجبال عن العرب لوعورة مسالكها على رواحلهم الناجعة.[3]

وبذلك فر البربر من الهضيمة ومن عبث العرب وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال،[4] حيث نقل لنا الإدريسي(ت504هـ/1154م) كيف توقف العرب الهلالية أمام جبل سحاو،[5]الذي يصفه بأعظم الجبال علوا وأسماها ارتقاء وأصعبها مسلكا وهذا الجبل لا تتعداه العرب إلى غيره ولا تتجاوزه،[6]الأمر الذي يفسر ارتفاع الكثافة السكانية للبربر بالجبال.[7]

---

[1] المصدر السابق، ص118.

[2] غابرييل كامب: المرجع السابق، ص234؛ فوزية كرراز: المرجع السابق، ص345.

[3] ابن خلدون: العبر، ج6، ص75.

[4]ابن خلدون: العبر، ج6، ص43.

[5] جبل سحاو: يبعد ثمانية أميال على حصن كلديس والذي يبعد عن مدينة قسنطينة بعشرين ميل. الإدريسي: المصدر السابق، ص123.

[6] نفسه، ص123-124.

[7] غابرييل كامب: المرجع السابق، ص234.

ومن هذه المتغيرات العسكرية والسكانية يبرز نوعا من التاريخ الاجتماعي الصنهاجي بالمدن المسورة والحصون المنيعة والجبال وما نتج عنه كذلك من تحول في بنية النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري وخصوصا فيما تعلق بالطرق الموصلة إلى هذه المدن في ظل اقتحام العرب الهلالية سيطرتها على الأرياف والضواحي والمجالات.

3-الثقافة الهلالية الوافدة إلى المغرب الأوسط:

إن أغلب الدراسات التي تناولت الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط أواخر القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي، تركزت على التاريخ العسكري للظاهرة وأهملت الرصيد الهلالي الثقافي والديني والحضاري وأثره على مجتمع المغرب الأوسط الصنهاجي والزناتي.

حيث انصب اهتمام المصادر الوسيطية بوصف الخراب الذي طال إفريقية والمغرب الأوسط،(1)وانقسم المستشرقون بين مؤيد لهذا الطرح،(2)وبين معارض له أومقلل من دورهم.(3)

(1) تقدم المصادر الوسطية صورة سوداء وقاتمة جدا للوجود الهلالي بإفريقية والمغرب حيث تنسب لهم الفوضى والدمار ولا أمن، لكن نلاحظ تركيز المصادرة القديمة زمنيا على أثرهم في تخريب مدن وقرى وضواحي إفريقية أكثر من باقي المناطق الأخرى. ابن حماد: المصدر السابق، ص104؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 250؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 1439. أما الإدريسي فإنه يجعل الضرر الهلالي بالمغرب الأوسط بمناطق محددة دون غيرها. المصدر السابق، ص118-119 -137. في حين يسترسل ابن خلدون في وصف أضرارهم بجهات القلعة وتخريبهم للكثير من مدن المغرب الأوسط ومن ذلك قوله: «**ثم** لحق – العرب–بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد.» العبر، ج6، ص 43-358-362. كما نجد مصادر الرحلات المتأخرة تتحدث في استمرار الضرر الهلالي بالكثير من جهات المغرب الأوسط. البلوي: المصدر السابق، ج1، ص15؛ ابن الصباح: المصدر السابق، ص96-97؛ الحسن وزان: المصدر السابق، ج1، ص56.

(2)L'éon de Beylie: p33 ; G, Rotez, Antoine Michel Carette : L'Algérie– l'univers à l'histoire et des cription de tous les peuples, leurs religions moëres, etc. paris, éd firnin didot, 1850, p 392, 393 ; Mequesse : « notice sur la Kallaa des Beni Hammad– étude tirée des récites des autres français et d'Ibn Khaldoun, écrivain arabe», revue Africaine, Vol 30 / 1886, p297.

(3) كلود كاهن: المرجع السابق، ص211، دومينيك فاليري: المصدر السابق، ج1، ص185.

وفي هذا الصدد نجد عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ / 1405م) يربط الوجود العربي بالمغرب بدخول بني هلال وبني سليم فيقول في ذلك: «لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال.»[1]

لا جدال في أن استقرار عرب الفتح بالمدن دون البوادي،[2]لم يضف إلى أي احتكاك ثقافي كبير بينهم وبين أمة البربر بوجه عام كون أعدادهم قليلة.[3]

وهذا ما عناه ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) في أن العرب لم يكن لهم في الأيام السابقة بوطن – أي المغرب–وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وهنا يفرق ابن خلدون بين عرب الفتح الذين جاؤوا بالدين الإسلامي والقرآن وبين عرب هلال الذين تسببوا عسكريا في تغيير أحوال بلاد البربر–المغرب الإسلامي–.

فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم حين طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم،[4] فكان لمشاركة بني هلال البربر في مواطنهم السبب المباشر في حدوث المتغيرات والعلائق بين الطرفين.

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص08.

(2) نفسه، ج6، ص27.

(3) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص30؛ دومينيك فاليري: المصدر السابق، ج1، ص192؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص226.

(4) المقدمة، ص64.

فقد شكلت المناطق الشرقية من المغرب الأوسط مسرحا هاما، لهذه المتغيرات والعلائق وذلك لانتشار بطون بني هلال في وقت مبكر من بونة وقسنطينة إلى مشارف قلعة بني حماد.[1]

وإن كان لانهيار العصبيات البربرية في تلك الجهات دورا في سهولة الانتشار الهلالي، فلا يستبعد أن يكون لضعف العصبيات البربرية دور أيضا في تفعيل العلاقات وتسهيلها بين البربر والعرب الهلالية.[2] في مستويات اللهجة الهلالية والأشعار والمذهب الديني واللباس والمسكن والعادات والتقاليد (ما عبرنا عنه بالثقافة الهلالية الوافدة).

أ-اللهجة الهلالية:

رغم أن الكثير من الدراسات تناولت دور بني هلال في تعريب بلاد المغرب، إلا أننا لا نجد في ضمنها مميزات اللغة التي أتى بها الهلاليون.

لا سيما وأن عبد الرحمن ابن خلدون(ت 808هـ/1405م) قد تناول فساد اللسان العربي بعد اختلاطهم بالعجم،[3]مبينا حصول التغير في لسان مضر ومن ذلك شأنهم في النطق بالقاف والتي ينطقونها متوسطة بين الكاف والقاف خلافا لما هو مذكور في كتب العربية،[4]مبينا استعمال الجيل الباقين من ولد منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن بكر بن هوزان لهذه اللغة،[5]وربما

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص50-51-52؛ فوزية كرراز: المرجع السابق، ص343.عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص94-198.

[2] حول ضعف عصبية كتامة أنظر الإدريسي: المصدر السابق، ص126.ابن خلدون، العبر، ج6، ص302.

[3] المقدمة، ص633.

[4] نفسه، ص635.

[5] نفسه، ص635.

هذا ما دفع غابرييل كامب إلى وصف العربية اللهجية بعد دخول بني هلال بالتنوع الكبير في المغرب فهي حسبه تنحدر من اللغة البدوية التي أدخلتها القبائل الهلالية.[1]

ومن هنا نعتقد أن لسان الهلاليين واللغة التي نشروها ببلاد المغرب لم تكن فصيحة بل كانت أقرب منها إلى اللهجة.

لأن التعريب مقترن بعلم اللغة العربية وبالتالي فهم أبعد عن تعريب المجتمع الصنهاجي والمجتمع الزناتي بالمغرب الأوسط، والذي اقترن ارتباطه باللغة العربية من خلال حفظ القرآن والاندماج في منظومة العلوم الإسلامية الأخرى.

ب-الشعر الهلالي:

كانت لغة الشعر قبل الوجود الهلالي بالمغرب لغة تقليدية تلتزم بالنمط الكلاسيكي بشكل صارم وتخضع للقواعد وتخلو من أساليب التعبير المحلية ومن الصيغ الشعبية الدارجة،[2]في حين تميز الشعر الهلالي بوجود أساليب الشعر وفنونه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول من المبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب.[3]

وأوزانه المستعملة من أشهر البحور وأكثرها حيوية وخفة ويزيد توخي الجوازات الشعرية في الحد من مداها،[4]وليس من اليسير أن ننفي أو نؤكد وجود فن شعبي بالمغرب قبل الوجود الهلالي، لكن يمكننا التأكيد على ارتباط الشعر المرتجل الذي يستعمل ألفاظ دارجة بالشعراء

---

(1) المرجع السابق، ص230.

(2) بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص585.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص633/ العبر، ج6، ص664؛ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص64.

(4) بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص595.

الهلاليين،[1]أما الهادي روجي إدريس فلقد جعل الوجود الهلالي سببا في اتجاه جديد نحو اكتساب الشعر صبغة بدوية.[2]

ويشير ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) إلى استحسان المغاربة لشعر الزجل الذي ولعوا به وأضافوا له أنواعا جديدة.[3]

فكان المغاربة الأكثر اعتناء بالأزجال إذ لم تكن المشارقة تحسنه،[4]وإضافة إلى الجانب الإبداعي في هذا الشعر الهلالي فإنه كان سجلا لأحداثهم وأخبار أبطالهم وحروبهم و وقائعهم وضبط لأسماء رجالاتهم وأحوالهم،[5]إلا أن اعتمادهم على الصنعة جعله يفتقد لصحة الرواية.[6]

كما تناول الشعر الهلالي يوميات صيدهم وعواطفهم في الغزل بغاية الرقة والطرف،[7]ورغم اتسامه بالجمال والإبداع فإن النخبة من العلماء – الخاصة من أهل العلم بالمدن– كانوا يحتقرونه ويزهدون في روايته وذلك لما فيه من خلل الإعراب الذي هو أصل البلاغة عندهم،[8]وهو ما يرفضه عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ /1405م) الذي أقر ببلاغة المصنوع من أشعارهم،[9]والتي وجد منها أيضا المطبوع والمنتحل وأشعارهم عموما حسبه محكمة المباني متفقة الأطراف.[10]

---

(1) بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص597-598.

(2) المرجع السابق، ج2، ص40.

(3) المقدمة، ص686.

(4) البلوي: المصدر السابق، ج2، ص135.

(5) ملحق رقم03 ص 174-175.

(6) ابن خلدون: العبر، ج6، ص40.

(7) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص62.

(8) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 40؛ بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص444.

(9) ابن خلدون: العبر، ج6، ص40.

(10) نفسه، العبر، ج6، ص39.

إلا أن هذا الواقع الثقافي وإن لم يكن يرحب به في المدن والأمصار في المغرب الأوسط فإنه طبع الواقع الثقافي بالبادية وأضحى من سماتها الأساسية رغم استهجانه من طرف النخب والشيوخ بالمدن، إلا أنه وبعد القرن السابع الهجري /الثالث عشر ميلادي يأخذ طريقه في التسرب إلى مدينة المغرب الأوسط عن طريق الطلبة الهلالية الذين أخذوا يقصدون المدينة لنهل عن المشيخة إلا أن ذلك كان له نتائج غير مرضية على اللغة ورسم الخط وغيرها.

ج-إشكالية المذهب الديني عند بني هلال:

يطرح المذهب الديني للقبائل الهلالية عند دخولها بلاد المغرب الإسلامي إشكالية لا يزال يحيط بها الكثير من الغموض والابهام، فنقف عند ابن خلدون (ت 808هـ / 1405م) على إشارة هامة حول المذهب الديني للقبائل الهلالية في قوله: «فلما غلبوا صنهاجة على الأمصار وملك كل ما عقد له سيمت الرعايا بالأمصار عسفهم وعيثهم...إذ الوازع مفقود من أهل هذا الجيل العربي منذ كانوا.»[1]

فهل يمكن أن ننطلق من هذا النص الخلدوني ونقول إن العرب الهلالية وعند دخولهم بلاد المغرب لم يكونوا على مذهب ديني معين؟ أم أنه نص ينم على كثير من المبالغة والإفراط في تفسير العبث الهلالي وإفسادهم لا في وصف مذهبهم وتحديده؟

لا سيما وأن دخول العرب الهلالية إلى المغرب قد كان بعد مضي خمسة قرون من ظهور الإسلام وانتشار المذاهب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وأرجائه، فرغم دخول بني هلال وبني سليم في الدين الإسلامي الحنيف ومصاهرة النبي صلى الله عليه وسلم لبني هلال في اثنين من نسائه،[2]إلا أن ذلك لم يمنعهم من الإغارة والإفساد وهم بالمشرق.[3]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص42.

[2] إبراهيم إسحاق إبراهيم: المرجع السابق، ص32.

[3] ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

بل كان بنو سليم لا يتورعون في الإغارة على مواكب الحج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة،[1]كما دخلوا في حلف القرامطة،[2]الذين يوصفون بفساد المذهب والدين،[3] فأدخلوهم في فتنتهم.

وهو ما يجعلنا نتساءل أكثر على المذهب الذي كان عليه بنو هلال وبني سليم بالمشرق، لاسيما وأن عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) قد أشار أيضا إلى دخولهم بعد انقراض أمر القرامطة في دعوة الشيعة –الفاطميين–.[4]

فهل يمكن أن نعتبر هذا التحول من طرف إلى آخر بأن ولاء بني هلال وبني سليم ودخولهم في طاعة القرامطة ثم الفاطميين، لا يعبر عن مذهبهم الديني بقدر ما يعبر عن املاءات الواقع السياسي والعسكري للمشرق آنذاك؟

ومع ذلك فإنه وليس من اليسير أن نبرر بسهولة انتقالهم من مذهب إلى آخر، وذلك بمجرد ربط الأمر بالظروف السياسية والعسكرية، لأن سرعة التحول والانتقال من مذهب إلى آخر يعبر أيضا على ضعف الوازع الديني عندهم وبالتالي يكون ابن خلدون محقا في وصفه لهم بأن الوازع مفقود عندهم منذ كانوا.[5]

وفي نفس السياق نجد ألفرد بل يصف إسلام بني هلال بالسطحي وبشدة تعلقهم بالحياة المادية عند دخولهم بلاد المغرب،[6] فلم تكن درجة تقواهم بشديدة عكس جيل الفتح.[7]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص216.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص142.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص1084.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص142.

(5) نفسه، العبر، ج6، ص 42.

(6) الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ط2، ترجمة، دار العرب، لبنان، 1981، ص83.

(7) نفسه، ص78.

ونقف عند صاحب الملعبة على أبيات من الشعر تعكس ضعف الروح الدينية عند العرب الهلالية وعدم حرصهم على القيام بالعبادات الدينية.

ومنها قوله:

وإِذْ جَا الليل وَطَلْعَتْ الزَّهْرَا

يُنْظُر الأرض بَحْر من ثِيرَان

وفِي وقت الصُبح ضَجت الغَبرَا

بِصيَاح الإبل لا مْنْ الآذَانْ[1]

وعن اعتراضهم الحجاج ببلاد المغرب يقول أيضا:

أما عُربَان فْريقيَا تَعْلَمْ

آرَّبْ ما جْرْتْ بِهِ الأَقْلاَمَ

عَانِيتْ المَعصِيَة صْحِيح عَنْدهُم

وأَموَال الحَاج بالصْحِيحْ تْغْنَام

أقوام تَعْطِي السْلم عْلى المُسلِم

حتى يَأتِي بْحَجَة الإسلام[2]

ويوجد بين طيات الملعبة عدة أبيات ترمي لتأكيد اعتداء بني هلال على الحجاج وتهاونهم في ارتكاب المعاصي والتقصير في العبادات،[3]لكن يجب أن ننبه إلى الملعبة التي كتبها صاحبها

---

(1) الكفيف الزرهوني: ملعبة الكفيف الزرهوني، تح محمد بن شرفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1407هـ/1987م، ص107.

(2) نفسه، ص112.

(3) نفسه، ص74-107-108.

لم تكن خالية من خلفيات سياسية تبرر الحملات المرينية،[1]على المغرب الأوسط وإفريقية بفساد بني هلال وعبثهم بالأمن.

ورغم ذلك فلا مناص من اعتمادها الكتابة الشاهدة على استمرار ظاهرة الحرابة وقطع السابلة في السلوك الهلالي إلى عصر المؤلف لنخلص إلى أن ارتباطهم بالمذهب الديني قد حصل بعد ذلك بالمغرب الإسلامي من خلال توافد أبناء القبائل على مجالس الدرس ببجاية وقسنطينة وتلمسان ومازونة لتعلم كتب المذهب المالكي،[2] وحسبنا أن سلوكهم وقسم كبير من حياتهم صارت مادة الفقه المالكي وتشريعه كما تبينه كتب النوازل الفقهية.[3]

د-اللباس الهلالي:

يعد موضوع اللباس من القضايا التي لا يزال يحيط بها الكثير من الغموض وذلك لقلة تناول المصادر التاريخية لمثل هذه القضايا من جهة، وإغفال الكثير من الأبحاث والدراسات التي تناولت الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط لمثل هكذا من المواضيع.

فيقول الهادي روجي إدريس أن لباس بني هلال الذي لا نعرف عنه شيء كان يشبه ملابس أهل البادية،[4]ولقد جعل ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) لباس أهل البادية يقتصر على النسج والخياطة،[5]حيث كانت ملابسهم أكثر بساطة من ملابس الحضر الذين يقومون بتفصيلها ثم بخياطتها،[6]ويبين في موضع أخر أن العرب الناجعة يكسبون الأنعام ويتخذون

---

(1) قام ملوك بنو مرين – من شعوب بنو بادين من زناتة–بعدة حملات على المغرب الأوسط وإفريقية بهدف إلحاقها بحضرة الملك المريني ومن ذلك حملة أبو الحسن المريني ثم ابنه أبو عنان في القرن 8هـ/14م. ابن خلدون: العبر، ج7، ص338.

(2) الطاهر بونابي: ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع2011/12م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، ص148.

(3) أبو زكرياء يحي بن موسى المغيلي المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح مختار حساني وزواوي كرشوش، ج2، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص284–285.

(4) لمرجع السابق، ج2، ص209؛ فوزية كرراز : المرجع السابق، ص348.

(5) المقدمة، ص448.

(6) ابن خلدون: المقدمة، ص448.

الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها،[1]فربما هذا يدفعنا إلى الاعتقاد ببساطة اللباس الهلالي. وعموما نجد عند صاحب الملعبة من الاهتمام بلباسهم ما يعكس لباس النساء الهلاليات بقوله:

ما تْشهِيكْ غير بْرَاقْعْ العَذْرَا

كِفْ تْسْقُط مْعَ عْمَايم الفُرسَان[2]

فيكون البرقع هو غطاء للرأس من ألبسة النساء الهلاليات والعمائم للرجال وأمام سكوت المصادر تذهب بعض الدراسات إلى أن لباسهم كان يتخذ من وبر الإبل وصوف الأغنام.[3]

ولقد تناول الحسن الوزان (ت947هـ/ 1550م) لباس العرب، فكان لباس من يعيشون في الشمال أجمل ممن كانوا في الصحراء،[4]ويصف لنا أيضا لباس النساء العربيات لا سيما ما كن يضعن على وجوههن فيقول: "تضع هذه النساء أمام وجوههن ثوبا صغيرا مثقوبا أمام العيون فإذا رأين رجلا ليس من أهلهن احتجبن فورا بهذا اللثام وأمسكن من الكلام[5]أي استعمالهم لحجاب الوجه إضافة إلى اختلاف حلل النساء العربيات قليلا عن حلل النساء النوميديات،[6]وهو ما يعني وجود نوع من التمايز بين لباس العربيات والبربريات .

---

[1]ابن خلدون: العبر، تح خليل شحادة، ط2، ج2، دار الفكر، بيروت، 1407هـ/1988م، ص16.

[2] ملعبة: الكفيف الزرهوني، ص31.

[3] فوزية كرراز: المرجع السابق، ص348. ونلمس هذا عند ابن خلدون الذي أكد أن لباس العرب الناجعة إنما يكون من وبر أنعامهم وأشعارها. ابن خلدون: العبر، ج2، طبعة دار الفكر، ص16.

[4] المصدر السابق، ج1، ص63.

[5] نفسه، ج1، ص64.

[6] نفسه، ج1، ص62.

هـ-المساكن الهلالية:

من المتعارف عليه تاريخيا واجتماعيا على أن مساكن أهل البادية هي الخيام،[1]والتي كانت مسكنا للهلاليين باعتبارهم من أعرق الأمم في البداوة،[2]ولقد سبق وأن تناولنا إشارات ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م) حول مساكن ومباني أهل البادية المتخذة من الشعر والوبر أو الشجر.[3]

ويشير الوزان(ت 947هـ/ 1550م) على استمرار العرب في اتخاذ الخيام مسكنا لهم مع مرور الزمن،[4]والتي يصفها بالجمال والعظمة،[5]فأدى دخول قبائل بني هلال إلى أن تغطت سهول المغرب بخيامهم،[6] ما يعكس اكتساح الظاهرة البدوية للمغرب الأوسط.

و-العادات والتقاليد الهلالية:

من بين العادات التي أتى بها الهلاليون إلى بلاد المغرب نقلهم النساء معهم في حروبهم،[7]وذلك حتى تزداد شجاعتهم ويقل خوفهم،[8]ويورد صاحب الملعبة أبيات تؤكد وجود النساء في معارك العرب الهلالية.

ومن ذلك قوله:

---

(1) يرى الهادي روجي إدريس أن خيام البدو كانت تشبه الخيمة المعروفة في العصر الحديث. المرجع السابق، ج2، ص23.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

(3) نفسه، المقدمة، ص49.

(4) المصدر السابق، ج1، ص47.

(5) نفسه، ج1، ص62-63.

(6) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص23.

(7) الكفيف الزرهوني: المصدر السابق، ص92؛ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص64.

(8) نفسه، ج1، ص64.

صَاحْتْ فِي هْوَادْجْ بْنَاتْ عْذَرَا

يَا لْهْلاَلْ يَا لْكَوْكَبْ عَسَانْ[1]

ويضيف أيضا:

وانْهزْمُوا وحَرْفُوا الخَيْمَات لَوْرَا

يَحَامُوا بالسِيفْ عن تْسِيدْنَانْ[2]

كما نقل إلينا الوزان(ت 947هـ/ 1550م) الطريقة التي كان العرب ينقلون بها نساءهم، حيث كانوا يحملون على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة جدا وهي هوادج صغيرة لا تسع إلا امرأة واحدة،[3]ويخبرنا أيضا عن بعض عادات النساء العربيات في أخد الزينة التي لا يبدينها إلا لبعولتهن و أبناءهن،[4]حيث كانت النساء اللواتي يعشن في الصحراء يستعملن الحنة في معظم أجسادهم، في حين كانت النسوة اللواتي كن من أشراف البلاد محتفظات ببياضهن الطبيعي،[5]بل يستعملن في بعض الأحيان خضابا مصنوعة من عتنى لوز العصفة والزعفران ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار وبين الحاجبين شكلا مثلثا وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون.[6]

---

(1) الكفيف الزرهوني: المصدر السابق، ص31.

(2) تسيدنان: النساء في لغة زناتة. نفسه، ص92.

(3) المصدر السابق، ج1، ص64.

(4) نفسه، ج1، ص65.

(5) نفسه، ج1، ص64.

(6) نفسه، ج1، ص64.

4-مظاهر العلاقات والاندماج بين القبائل البربرية والقبائل الهلالية:

لم يحمل بنو هلال عند دخولهم المغرب الأوسط السيوف والرماح فقط، بل وفدت معهم أيضا ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم والتي أخذت منحى آخر بفضل الاحتكاك والاندماج البربري الهلالي.

فلا ريب أن مشاركة العرب الهلالية للقبائل البربرية بالمغرب الأوسط، في أوطانهم من جهة،[1]وتشابه نشاطهم القائم على النجعة مع شرائح واسعة من مجتمع المغرب الأوسط من جهة ثانية،[2]قد أدى إلى وجود الاندماج والتفاعل في بناء علاقات التأثير والتأثر التي كان لها عميق الأثر على بنية مجتمع المغرب الأوسط بعد الحضور الهلالي.

أ-المصاهرة وتبدل اللسان:

لقد لعبت قبائل بني هلال دورا حضاريا بارزا في انتشار اللهجة العربية الهلالية، ببلاد المغرب وهي مختلفة عن تجربة التعريب التي تعود لمرحلة الفتح الإسلامي، وارتباط مدن المغرب الأوسط وعلمائه بالمشيخة في المشرق لكن ذلك قد اقتصر في الغالب على المدن والحصون لا أكثر.[3]

بينما تسللت اللهجة الهلالية في الضواحي والبوادي والأرياف،[4] إلى القبائل البربرية الضعيفة من حيث العصبية وذلك بحكم مجاورتهم لهم،[5]ومن قرائن ذلك انتقال قبائل هوارة

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص64.

(2) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص231-323.

(3) موريس لومبار: المرجع السابق، ص145؛ رمضان التليسي: المرجع السابق، ص187؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص93؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص230؛ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج1، ص66.

(4) راضي دغفوس: المرجع السابق، ص214.

(5) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص66.

التي بتبسة،[1] إلى اللسان العربي حيث نسوا رطانتهم،[2]وكذلك انتقال المثالنة الهواريين الذين كانوا ظواعن بين تبسة وقرطاجة وباجة أيضا إلى اللسان العربي،[3] ويعلل الحسن الوزان (ت 947هـ/ 1550م) سبب انتقال الكثير من قبائل هوارة إلى لسان العرب لاتصالهم الشفوي المستمر والتواصل معهم.[4]

وكذلك انتقلت قبيلة ولهاصة،[5]التي كانت ببسيط بونة إلى أيضا لسان العرب الهلالية ونسوا رطانتهم البربرية.[6]

وكانت مجاورة السدويكشيين الكتاميين الذين كانوا بالبسائط بين قسنطينة وبجاية،[7]للعرب الهلالية إلى انتقالهم أيضا إلى اللسان العرب وتخليهم من رطانتهم البربرية،[8]كما أدى استقرار بطون عياض من الأثبج بجوار قبائل عجيسة بضواحي القلعة إلى تأثرهم أيضا باللسان العربي.[9]

والملاحظ أن الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط، كانت الأكثر تفاعلا بين العرب والبربر وذلك للأسباب التي سبق لنا الإشارة إليها لكن هذا لم يمنع من انتقال العلاقات ومظاهر الاندماج البربري الهلالي أيضا، إلى الأجزاء الغربية لكن في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي وذلك نظرا لتأخر الامتداد الهلالي بهذه الجهات والذي كان من نتائجه التعريب

---

(1) تبسة: مدينة قديمة بينها وبين سطيف ستة مراحل. الحموي: المصدر السابق، ج2، ص13.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص288.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص598.

(4) المصدر السابق، ج1، ص39.

(5) ولهاصة: من بطون نغراوة بن لوى الكبير بن لوى الصغير بن مادغيس الأبتر وهي عند ابن حزم ألهاصة. المصدر السابق، ص 497؛ المصمودي: مفاخر البربر، ص187؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص180.

(6) نفسه، العبر، ج6، ص233.

(7) نفسه، العبر، ج6، ص288.

(8) موسى لقبال: المرجع السابق، ص124.

(9) نفسه، ص71.

حيث مس قبائل زناتة بالبادية،[1] حيث كان تشابه النشاط –الظعن–عاملا قويا في هذه المثاقفة اللسانية بين الطرفين،[2] وكذلك تخلي بني يفرن عن رطانتهم والتحاقهم باللسان العربي.[3]

وفي المقابل ننبه إلى أن هذا التأثير لم يكن من جانب واحد فقد تأثرت اللغة العربية أيضا على المستوى الصوتي والتركيبي باللهجات البربرية،[4]فصار اللسان العربي الذي لهج به بنو هلال في معظم الأماكن لهجة شعبية، فهي لهجة خشنة تخالطها مفردات من البربرية.[5]

ولقد تناول ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م) هذا التمازج اللغوي بين اللهجة العربية والبربرية في قوله: «أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم ... فغلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة».[6]

ويضيف أيضا في نفس الصدد عن أثر قيام دويلات البربر الزناتية مثل بني –عبد الواد–على فساد اللسان العربي فيقول: «وربما تملك العجم ... وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك ... فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لو ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة».[7]

وربما نلمس هذا الانصهار اللغوي والتمازج إن صح التعبير من خلال الأشعار التي أوردها صاحب الملعبة والتي استعمل فيها ألفاظ عربية وبربرية في نفس الوقت،[8] انتهى هذا التمازج إلى انصهار لغوي لا يزال متداولا بيننا.

---

(1) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص166.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص231–232.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص204.

(4) محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، ط 1، جذور للنشر، الرباط،2006م، ص105.

(5) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص230.

(6) المقدمة، ص637.

(7) نفسه، ص415.

(8) الملعبة: المصدر السابق، ص92 وغيرها.

إذ كان التعريب الألسني يتم بتحصيل اللغة ومعانيها الدلالية، فإن التعريب الجنسي إنما يتم بالتزاوج والمصاهرة بين العرقين العربي والبربري.

ولقد كان للباحثين المستشرقين في هذه القضية أراء هامة، سنحاول أولا الوقوف عليها ومن ذلك الملاحظات الأثنوغرافية التي تؤكد على التنوع الاجتماعي بالمغرب الأوسط والتي تبناها كل من روزيه وكاريت،[1] مؤكدين على طابع اجتماعي متعدد القوميات في المغرب الأوسط.[2]

ويفصل شارل أندري جوليان بين التعريب الألسني والجنسي فيرفض أن يكون الناطقون بالعربية والناطقون بالبربرية يعكسان تقابل عربي وبربري، حيث انتقل البربر إلى لسان العرب لا إلى جنسهم وعرقهم،[3] فقد ظل الواقع الجنسي بالمغرب بربريا رغم الهجرة الهلالية وذلك لقلة عدد الوافدين وانتشارهم في المكان من جهة أخرى،[4] في حين ترد إشارات في بعض المصادر تؤكد دخول بني هلال بأعداد معتبرة إلى بلاد المغرب.[5]

كما يرفض ألفرد بل الفصل بين التعريب الألسني والجنسي، فهو يرى أن التعريب كان ألسنيا وجنسيا في آن واحد فالاندماج الاجتماعي يؤدي بالضرورة إلى الاندماج العرقي بالمصاهرة والتزاوج بين القبائل،[6] وعارض أحد الباحثين الفصل بين الناطقين بالعربية وبين عروبة جنسهم،[7] بل يضيف أن الأفارقة استعربوا نسبا أو انتسابا أولغة،[8] ورغم تأكيد بعض الباحثين إلى علاقات المصاهرة والتزاوج العربي البربري،[9] إلا أننا لا نجد في مضان المصادر

---

(1) G, Rozet, Antoine Michel Carette : p204-205.

(2) G, Rozet, Antoine Michel Carette, p 205.

(3) المرجع السابق، ج1، ص230.

(4) نفسه، ج1، ص67؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص230.

(5) التيجاني: المصدر السابق، ص54؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص288. ويقدر الوزان عددهم بخمسين ألف رجل محارب والنساء والأطفال لا يكاد يحصون. المصدر السابق، ج1، ص45-46.

(6) المرجع السابق، ص214-215.

(7) الخليل النحوي: إفريقيا المسلمة –الهوية الضائعة–، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ص28.

(8) نفسه، ص20.

(9) عبد السلام همال: هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 5هـ/11م من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية(1830-1962)، ملتقى دولي مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس=

الوسطية سوى إشارات قليلة إلى إشكال المصاهرة التي فتح بابها المعز بن باديس (ت481هـ/ 1088م) من خلال زواج بناته بثلاث من أمراء العرب الهلالية.[1]

فهل يمكن أن نعتبر هذه المصاهرة بداية الانصهار العربي البربري أم أنها مصاهرة سياسية فرضتها الأوضاع أكثر منها اجتماعية؟

لا سيما وأن عمليات المصاهرة على المستوى الاجتماعي العام يجعلنا نقف على مسألة تعد بالغة الأهمية خلال العصر الوسيط والمتعلقة بمسألة خطاب الشرف من جهة الأم العربية الهلالية وأثره في تسريع وتيرة الاندماج الهلالي البربري.

ونلمس خطاب الشرف عند قبائل بني هلال من خلال بعض الأبيات الشعرية التي أوردها صاحب الملعبة ومن ذلك قوله:

فْتْلاَطْتْ العْرَبْ وزادْ أَمْرا

حتى قَالُوا عْجْبْ لْذَا الانسَان[2]

نَحْنُ هْنَا مْنْ زْمْنْ عُمَر وعْلِي

وكْثْرْنَا مْنْ سْلاَلْةْ الصُحَبْا[3]

وخلال حديث عبد الرحمان ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م) عن مسألة الشرف، أشار إلى ادعاء بنو سعيد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق.[4]

أيام 9-10-11 أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م، ص311؛ الخليل النحوي، المرجع السابق، ص20؛ راضي دغفوس: المرجع السابق، ص214.

(1) التيجاني: المصدر السابق، ص54

(2) يعنون به السلطان أبو الحسن المريني والذي قاد حملة نحو المغرب الأوسط وإفريقية.

(3) الكفيف الزرهوني: المصدر السابق، ص90.

(4) المقدمة، ص162.

ويتعرض الحسن الوزان (ت947هـ /1550م) إلى خطاب الشرف من خلال تقسيمه العرب إلى حكيم وهلال وهما حسبه من أبناء إسماعيل بن إبراهيم، أما المعقل فهم من اليمن ينتسبون إلى سبأ وآل إسماعيل أشرف من السبئيين،[1] فكان هذا سببا للمنافرة التي لا تنقطع بين الشعبين، بل بلغ الأمر أن شطر شعراء كل فريق قصائد مفاخرة يذكرون فيها مفاخر قومهم،[2]وهنا حق لنا أن نتساءل عن أثر هذا الخطاب في تفعيل علاقات البربر بالعرب الهلالية ؟ فهل كان خطاب الشرف حافزا شجع البربر على التزاوج معهم؟ أم أنه شكل حجر عثرة صعب من عملية بناء علاقات التصاهر الاجتماعي البربري العربي؟

لكن وفي المقابل ألم توجد أساليب أخرى سهلت من عملية التصاهر، على غرار الحماية ومن ذلك أن يطلب شخص أو جماعة إجارته فيذودون عنه دون النظر للعواقب، وهوما أشار إليه ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) في إجارة بطون من قبائل بني هلال، لأمراء من الأسر الحاكمة من البربر.[3]

ومن الأسباب التي أدت إلى تيسير الاندماج هو حصول الفخذ من البربر إذ صار تابعا لقبلة عربية على الحق في أن يحمل اسم جد هذه الأسرة أو القبيلة كأنما هو اندماج جماعي.[4]

---

(1) المصدر السابق، ج1، ص54.

(2) الوزان: المصدر السابق، ج1، ص57.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص218-295 وغيرها.

(4) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص231.

ورغم أننا لم نعثر على شهادات في الرواية المغربية تعكس التصاهر الهلالي البربري في المغرب الأوسط، إلا أننا نجد إشارات عن اختلاطهم وتداخلهم مع بعضهم البعض حتى في النسب ومن ذلك ادعاء بطون سدويكش الانتساب إلى بني سليم،[1]وادعاء بطون من بني توجين أنهم أيضا من بني سليم.[2]

وعموما يلمح ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) إلى هذا التمازج بين العرب والبربر، لاسيما خلال حديثه عن هوارة وولهاصة في جهة بونة وتبسة وغيرها.[3]

كما يشير أيضا إلى دخول بطون عربية في عداد القبائل البربرية ومن ذلك دخول بطن من رياح، ينتمون إلى عتبة ابن مالك في عداد هوارة وكذلك بطن من مرداس بني سليم يعرفون ببني جيب،[4]حيث اندمجت هذه البطون في هوارة،[5]وعن العلاقات البربرية الهلالية وفي سياق حديثه عن تفاعل هوارة مع بطون بني هلال يقول:« وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم إلى أن أصبح من العسير التمييز بينهم.»[6]

ولا يستبعد أن تكون العلاقة الوثيقة التي قامت بين زغبة وبني بادين –زناتة–ذات أبعاد اجتماعية في مستوى التزاوج والمصاهرة، حيث يصف ابن خلدون علاقتهم بقوله: «وانعقد ما بينهم –زغبة–وبين بني بادين حلف على الجوار والذب عن الأوطان وحمايتها من معرة العدو في احتيال غرتها وانتهاز الفرصة فيها فتعاقدوا على ذلك واجتوروا وأقامت زغبة بالقفار وبن بادين بالتلول والضواحي.» ويبدو أن العلاقة قد بلغت مداها بين زغبة والبربر عندما يقول إن زغبة قد اعتزلت العرب من بني هلال ودخلوا مع البربر.[7]

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص304.
(2) نفسه، ج7، ص 335.
(3) نفسه، العبر، ج6، ص233–288؛ العمري: المصدر السابق، ج4، ص394.
(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 288–289.
(5) عمر تابليت: المرجع السابق، ص17.
(6) ابن خلدون: العبر، ج6، ص204–233–288.
(7) نفسه، العبر، ج6، ص46–47.

وكذلك خلال حديثه عن أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأثبج وعلاقتهم بسكان بسكرة، وذلك بعد نزولهم بقرية باشاش ومخالطتهم أهل البلد في أحوالهم وامتزاجهم معهم بالنسب والصهر.[1]

ب-ثنائية البداوة والاستقرار:

يسعى بعض المستشرقين إلى تأكيد أثر بني هلال في توسيع حياة الترحال والبداوة بالمغرب الأوسط،[2]ورغم إشارتنا سابقا إلى تحول الكثير من سهول وأراضي المغرب الأوسط، لاسيما في جهاته الشرقية إلى مجالات للعرب.[3]

فإنه ينبغي التذكير أيضا بدورهم في دفع الكثير من البربر إلى سكن المدن والحصون والجبال هربا من ضيم العرب،[4]والذي يعد عاملا قويا في تعزيز توجه البربر بالمغرب الأوسط إلى حياة الاستقرار والتمدن. بل والأكثر من هذا فإنه يجب ألا نتجاهل الحياة البدوية للكثير من القبائل البربرية بالمغرب الأوسط، قبل الوجود الهلالي أصلا، فمن الخطأ أن نجعل البربر حضر مستقرون والعرب الهلالية بدو رحل.

ومن جهة أخرى فرغم وقوفنا على إشارات لمشاركة بطون من البربر لاسيما منها هوارة وزناتة العرب الهلالية في رحلتهم وظعنهم،[5] فإننا وفي المقابل نجد أيضا ما يوحي بدور العرب الهلالية في تخلي الكثير من البربر على حياة الرحلة والظعن وانفراد العرب بملك المجالات دونهم.

---

(1)ابن خلدون: العبر، ج6، ص916.

(2) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص212؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص244؛ دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص184.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ص120؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص42؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص37.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، ص93-97.

(5) نفسه، العبر، ج6، ص204-288-598.

ومن القرائن الواضحة لسعي العرب في الانفراد بملك المجالات والقفار حيث يقول ابن خلدون (808هـ/1405م): "بعد تغلب العرب الهلالية على الضواحي قبلة المسيلة، وصدوا بها غمرت عن الظعن وتركوا القيطون إلى سكن المدن."[1] فأمام هذه الشواهد يمكننا القول بأن الوجود الهلالي قد زاد في تدعيم النسيج القبلي البدوي،[2] لكن أدى الاحتكاك البربري الهلالي من جهة،[3] وضعف العصبيات البربرية من جهة ثانية،[4] إلى حدوث التوازن القبلي،[5] لا سيما بعد جنوح الكثير من بطون القبائل البربرية ثم من بني هلال إلى الاستقرار بالقرى والمدن مع مرور الزمن.

ولعل أقدم إشارة عن هذا الاستقرار المبكر لبطون من العرب الهلالية بالقرى والمدن ما أورده الإدريسي (ت548هـ/1154م) عن حصن – بشر –من أعمال بسكرة والذي كانت عمارته في أيدي العرب،[6] ثم يتناول ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م) نزول بطون الأثبج –عياض– لطيف –الضحاك– بقرى الزاب ومدنه بعد عجزهم عن الظعن والنجعة.[7]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص105.

(2) راضي دغفوس: المرجع السابق، ص214.

(3) فوزية كرراز: المرجع السابق، ص347.

(4) يربط ابن خلدون بين النجعة والظعن وقوة العصبية والتي يؤدي ضعفها إلى النزول بالقرى والمدن. المقدمة، ص150–156/ العبر، ج6، ص71–117.

(5) محمد حسن: المرجع السابق، ص42.

(6) المصدر السابق، ص120.

(7) ابن خلدون: العبر، ج6، ص54–71–914.

وإن ارتبط استقرار القبائل الناجعة عند ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م) بضعف عصبيتها، وبالتالي عدم قدرتها على الرحلة والإبعاد فيها[1]، لكننا نجده يلمح خلال حديثه عن استقرار بطون بني يزيد من زغبة بجهة تيطري أن توليهم لبلاد الريف وخصبه قد دفعهم إلى استطانه فقل أهل الناجعة منهم،[2]وهو ما يدفعنا إلى طرق موضوع هو في الحقيقة نتيجة للاستقرار الهلالي من جهة ولتأثرهم بالبربر من جهة ثانية وهو تحديد أثرهم على الاقتصاد الزراعي بالمغرب الأوسط، ثم مشاركتهم فيه والذي يعد من أبرز مظاهر اندماجهم.

فرغم اتساع النشاط الرعوي بالمغرب الأوسط إثر الوجود الهلالي،[3] باعتبارهم من الأمم الناجعة[4] فإن هذا لم يكن منافيا لاستمرار النشاط الزراعي ذلك أن ضررهم وعبثهم بالمحاصيل الزراعية لم يدم طويلا ويعود هذا لنجاح المنصور بن الناصر (ت 498هـ/1104م) في مصالحة العرب مقابل أن يجعل لهم نصف غلة البلاد،[5]وهو ما جعلهم يستفيدون من استمرار الإنتاج الزراعي،[6]وإلى جانب هذا لا يمكن أيضا أن نتجاهل دورهم في تعزيز التحول الاقتصادي الزراعي من البوادي والأرياف التي أحدثوا بها أضرارا بالغة،[7]نحو اقتصاد المدينة القائم على البستنة داخل أسوار المدن والحصون.[8]

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص 150-156.

[2] نفسه: العبر، ج6، ص60.

[3] دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص272؛ كلود كاهن: المرجع السابق، ص211؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص07.

[4] ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

[5] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص166.

[6] عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص158.

[7] دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص255؛ محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987م، ص13.

[8] عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص193-194. حول انتشار البساتين والزراعة داخل أسوار المدن. الإدريسي: المصدر السابق، ص 116-154؛ مجهول: الاستبصار، ص131-179.

وربما هذا ما يبرر شهادات الإدريسي(ت548هـ/1154م) باستمرار النشاط الزراعي بالمغرب الأوسط،[1]بل يقدم هذ الأخير شهادات هامة مفادها مشاركة العرب في النشاط الزراعي بقسنطينة،[2]ما يوحي على الأقل ببداية التحول ولو بالنسبة لبعض البطون من الاقتصاد البدوي الرعوي إلى الاقتصاد الزراعي والذي سيكون بوتيرة أسرع ولو بعد قرون،[3]ونلمس التأثر الهلالي بالبربر في المجال الاقتصادي بترك بعضهم الإبل الذي اختصوا به واتخاذهم البقر.[4]

ولا يمكن الوقوف على كل مظاهر الاندماج الهلالي اقتصاديا وعلاقاتهم وتأثرهم وتأثيرهم بالبربر في هذا الجانب، لاسيما وأن المصلحة المشتركة وتبادل المنفعة كانت محركا أساسيا لها،[5]فجاءت شهادات الإدريسي(ت548هـ/1154م) لتؤكد هذا الواقع بتوافقهم وتعاملهم في مواضع وتصادمهم واختلافهم في مواضع أخرى بالمغرب الأوسط.[6]

وإلى جانب النشاط الزراعي فإن الاستقرار الهلالي قد أدى طبعا إلى اتخاذهم للمنازل والمساكن وتخليهم عن الخيام،[7]ومع مرور الوقت كان للعرب الهلالية دورا ومساهمة في تعمير المغرب الأوسط من خلال القصور التي بنوها في بلاد الزاب.[8]

---

(1) أنظر الملحق، رقم4، ص176-177.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ص121؛ فوزية كرراز: المرجع السابق، ص346.

(3) يتحدث الحسن الوزان في عدة مواضع عن قيام بطون من العرب الهلالية بأعمال الزراعة في عدة أنحاء من المغرب الأوسط. المصدر السابق، ج1، ص51-5652؛ غابرييل كامب: المرجع السابق، ص232-233.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص52.

(5) فوزية كرراز: المرجع السابق، ص 346.

(6) الإدريسي: المصدر السابق، ص 116-154.

(7) فوزية كرزاز: المرجع السابق، ص347.

(8) حول هذه القصور أنظر: إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة محمد بن شقرون، ط1، دار الغرب، بيروت، 1990م، ص 413-415-422 وغيرها؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص42-43.

ج-التوبة الهلالية:

قبل أن نخوض في غمار موضوع التوبة الهلالية، يجب أن ننبه إلى اقتصارها على بعض القبائل الهلالية لا على جميعها،[1]كما أنها قد عرفت مع مرور الزمن تطورا ومحطات جديدة لكننا نرمي في هذه النقطة الإشارة إلى بدايات التوبة الهلالية بالمغرب الأوسط ودور العلاقات البربرية الهلالية بجنوح بعض قبائلها إلى الاستقرار والتخلي من الرحلة والظعن،[2]حيث وصف ألفرد بل الذي وصف إسلام العرب الهلالية بالسطحي فانه وفي نفس الوقت وصف البربر بأنهم أكثر الناس تمسكا بالدين إلى درجة التعصب، ومع حصول الاندماج الاجتماعي بين هذين القطبين فقد تولد عنه إحياء ديني عند العرب الهلالية،[3]عرف بالتوبة والتي تعكس على الأقل بداية الاندماج الهلالي في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي بالمغرب الأوسط.[4]

كما شكل الرباط والتصوف أبرز مظاهر التوبة الهلالية بالمغرب الأوسط،[5]ويجدر بنا أن نشير إلى بعض الصعوبات التي حالت أو أدت على الأقل إلى تأخر التوبة الهلالية واندماجهم في الحياة الدينية بالمغرب الأوسط ومن ذلك غياب تأطير نفعي أو سياسي ينظر إلى فكرة التوبة الهلالية وأثر الاندماج الهلالي في المنظومة الاجتماعية والدينية والسياسية بالمغرب الأوسط.[6]

---

(1) نستشف هذا من خلال استمرار بعض القبائل الهلالية في أعمال الحرابة وقطع الطريق والاعتداء على المسافرين وذلك من خلال استمرار شهادات الرحالة والجغرافيين على عبثهم بأمن الطرقات في بعض أرجاء المغرب الأوسط. العبدري: المصدر السابق، ص09؛ ابن الحاج النمري: المصدر السابق، ص96-97؛ الكفيف الزرهوني: المصدر السابق، ص16؛ ابن الصباح: المصدر السابق، ص 96-97.

(2) الطاهر بونابي: الاندماج الهلالي، ص142-143.

(3) المرجع السابق، ص215-216.

(4) الطاهر بونابي: الاندماج الهلالي، ص141.

(5) نفسه، ص148.

(6)نفسه، ص161.

كما تعكس لنا نصوص النوازل مدى صعوبة تطبيق فتاوى الفقهاء على كل حرابي، يريد الدخول في سلك التوبة والإصلاح سواء الفقهاء المالكية،[1]أو الإباضية الذين كانت لهم مواقف صلبة في تعاملهم مع العرب الهلالية.[2]

د-العادات والتقاليد:

لقد أكد الباحثون الأوربيون مثل روزيه وكاريت على التنوع الاجتماعي بالمغرب الأوسط من خلال اختلاف العادات والتقاليد،[3]مؤصلين للتناقض والاختلاف بين العرب والبربر عاملين على نفي أي روابط لغوية أو دينية أو عادات وتقاليد مشتركة ولا حتى مصالح مشتركة.[4]

وربما تأثر هؤلاء برواية ابن خلدون وطريقته في معالجة الحضور الهلالي بالمغرب

وأسلوبه في رصد العلائق الاقتصادية والاجتماعية واللغوية والسياسية التي جمعت العرب والبربر والتي اكتفى فيها بعبارات "وتحلوا -البربر-بشعارهم -العرب-في جميع أحوالهم."[5]وتارة أخرى "يأخذون -البربر- بمذاهب العرب"،[6] وإذا كان النص الخلدوني في مسألة التفاعل بين الطرفين قد بدى ضيقا.

---

(1) نجد في كتب النوازل فتاوى عديدة ترتبط بالعرب الهلالية سواء في شرعية التعامل الاقتصادي معهم أو من خلال عرض شروط التوبة. أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المعرب من فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، ج5، تخريج جماعة من الفقهاء إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص88.وعن شروط التوبة أيضا أنظر، نفسه، ج6، ص144؛ المازوني: المصدر السابق، ج1، ص385.

(2) تناول الشماخي فتاوى فقهاء الإباضية التي تحرم الشراء أو الكراء من العرب الهلالية لأن كل ما بيدهم ريبة. المصدر السابق، ج2، ص641-690، 703و غيرها

(3) Rozet, Carentte, p 204-205.

(4) عبد السلام همال: المرجع السابق، ص289-290.

(5) العبر، ج6، ص 204.

(6) نفسه، ج6، ص233.

فإن الحسن الوزان (ت947هـ/ 1550م) قد نقل إلينا بعض العادات التي أخذها العرب الهلالية عن البربر ومن ذلك تخضيب النساء العربيات عند الزفاف(الزوجة) بالحناء وفي مستوى الوجه والأيدي والأذرع إلى رؤوس الأصابع مؤكدا أنها عادة اتخذها العرب عندما انتقلوا إلى سكن البلاد الإفريقية وأنها لم تكن معروفة لديهم من قبل،(1) ونفس الشيء في استعمال النساء العربيات للحلي حين أصبحن يضعن أقراطا عديدة من الفضة في آذانهم وخواتم في أصابعهن وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة.(2)

بل بلغ التأثير والتأثر بينهم أن أخذ العرب عن البربر بعض تقنيات استعمال الأسلحة فيقول ابن خلدون(ت808هـ/1405م): «وكذلك لقنوا منهم –من البربر–في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية، وهجروا تنكب القسي، وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين.»(3)

وعموما رغم سكوت المصادر من التلاقح الحضاري الذي تم بين العرب والبربر لاسيما في مستوى العادات والتقاليد فإنه ومن الصعب استثناء العادات والتقاليد في علاقات العرب والبربر والتي أخذت بحكم المجاورة لبعضهم البعض والتشابه في بعض الأنشطة ومرور الزمن أبعاد حضارية لا يمكن تجاهلها.

(1) المصدر السابق، ج1، ص64.

(2) نفسه، ج1، ص64.

(3) ابن خلدون: العبر، ج2، طبعة دار الفكر، ص 17.

هـ-الزي واللباس:

من أهم الملاحظات التي سجلها ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م) هو أخذ البربر بزي العرب ولباسهم ففي حديثه عن ولهاصة يقول: "ويأخذون بمذاهب العرب بزيهم"،[1]ونفس الشيء خلال حديثه عن التداخل الاجتماعي والاقتصادي الذي جمع هوارة مع بطون بني سليم حيث كان الزي مما أخذه الهواريون أيضا عنهم.[2]

ويشير في موضع آخر وعن هوارة أيضا أنهم أخذوا بشعار العرب وشارتهم في اللبوس والزي،[3]ولم يكن دور البربر مقتصرا على اقتباس الزي العربي والأخذ به فحسب، بل أخذ العرب عنهم أيضا بعض ألبستهم ومن ذلك ارتداء العرب العمائم على طريقة الزناتيين حيث يقول ابن خلدون(ت808هـ/1405م):" شعارهم –العرب– لبس المخيط في الغالب ولبس العمائم تيجانا على رؤوسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق وقوم يلفون منها الليث والأخدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر قبلهم."[4]

كما أخذت النساء العربيات بلباس أهل البلد ومن ذلك ما أورده الوزان (ت947 هـ/ 1550م) في ارتداء النساء العربيات قميص أسود واسع الأكمام، يجعلن فوقه خمارا أسودا أو أزرقا يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية وهو لباس حسن حسب عادة البلاد.[5]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 233.

(2) نفسه، العبر، ج6، ص288.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص598.

(4) العبر، ج2، طبعة دار الفكر، ص17.

(5) المصدر السابق، ج1، ص64.

الفصل الرابع: إعادة رسم الهوية الدينية واللغوية لمجتمع المغرب الأوسط عهد الموحدين

1- مظاهر إعادة رسم الهوية الجغرافية والسياسية والدينية واللغوية للدولة والمجتمع بالمغرب الأوسط:

أ- مظاهرها الجغرافية والسياسية.

ب-التحولات اللغوية والدينية.

2- المسألة الهلالية في المشروع الموحدي:

أ- الادماج والاستقرار.

ب- التهجير الموحدي للعرب الهلالية.

1-مظاهر إعادة رسم الهوية الجغرافية والسياسية والدينية واللغوية لمجتمع المغرب الأوسط:

حملت الدولة الموحدية[1] في طياتها ومنذ البدايات الأولى لقيامها مشروع سياسي واجتماعي ومذهبي يرمي إلى صبغ المغرب الإسلامي بأكمله بطابع وحدة مشروع الدولة الموحدية وربما هذا ما يبرر سرعة توجه أنظار الموحدين خارج المجال الجغرافي للمغرب الأقصى بل تجاوزت آمالهم المجال الذي كان لدولة المرابطين، [2]فما هي مظاهر إعادة الموحدين رسم هوية المغرب الأوسط جغرافيا وسياسيا ومذهبيا ولغويا؟

أ-مظاهرها الجغرافية والسياسية:

لقد عرف المغرب الأوسط تطورا في مجاله الجغرافي عهد الدولة الحمادية حيث تجاوز البعد القبلي الذي ارتبط بزناتة، وهو ما سنحاول الوقوف على معالمه قبل الخوض في مظاهر إعادة رسم الهوية الجغرافية للمغرب الأوسط عهد الدولة الموحدية.

فقد أعطت الدولة المركزية بالقلعة لمصطلح المغرب الأوسط مفهوما جغرافيا جديدا وواسعا فبعد أن كان يعنى به قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي وطن زناتة عند ابن خلدون (ت808هـ/1405م)، [3]أصبح أكثر اتساعا بفضل الانتشار العسكري والسياسي للدولة الحمادية، [4]فرغم تحديد ابن خلدون(ت808هـ/1405م)للمجال الجغرافي

---

[1] الموحدون: نسبة لعقيدة التوحيد التي جاء بها المهدي ابن تومرت (ت524هـ/ 1130م) وبعد نجاح دعوته مذهبيا وسياسيا وعسكريا عند قبائل مصمودة وأجزاء من المغرب الأقصى تطلع الموحدون إلى حكم المغرب الأوسط. النويري: المصدر السابق، ص394 وما بعدها؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص464 وما بعدها؛ القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص78-92؛ الطاهر بونابي: التصوف، ص31.

[2]الدولة المرابطية: تسمى أيضا دولة لمتونة ودولة الملثمين أسستها قبائل صنهاجة الجنوب وفي عهد يوسف ابن تاشفين ملك المرابطون أجزاء من المغرب الأوسط. النويري: المصدر السابق، ص 393؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 181؛ المقري: المصدر السابق، ج4، ص377.

[3]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 4.

[4]الطاهر بونابي: قلعة بني حماد التأسيس والتداعي، ص 79.

لقبيلة تلكالة الصنهاجية الممتد من الجزائر ومتيجة إلى المرية(المدية) ومايليها إلى بجاية،[1]جاعلا من مواطنها بجوار المغرب الأوسط ضمن وطن زناتة، [2]فإن هذا التقسيم لا يتعدى القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي أي قبل قيام الدولة الحمادية والتي جعلها هو نفسه تمتد ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية، [3]وهو نفس ما ذهب إليه الادريسي حين جعل تلمسان قفل بلاد المغرب.[4]

أما صاحب الاستبصار فلقد جعل حد المغرب الأوسط غربا وادي مجمع وهو في نصف الطريق بين مدينة مليانة وتلمسان.[5]

أما الحدود الشرقية فلقد جعل الإدريسي مدينة القل،[6]آخر مدن المغرب الأوسط، [7]إلا أن حدود الدولة الحمادية ظلت متغيرة ورهينة للأحداث السياسية والعسكرية التي عرفها المغرب، ومن ذلك أثر قيام دولة المرابطين، فإن ابن خلدون(ت808هـ/1405م) يتحدث عن الفتح المرابطي الذي امتد إلى مدينة الجزائر،[8]لكن عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ/ 1269م) يقدم لنا صورة أخرى نلمسها من خلال قوله:« وكانوا –بنو حماد– يملكون من قسنطينة إلى الموضع يعرف بسيوسيرات.[9]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 203.

[2]نفسه، العبر، ج6، ص203.

[3]المقدمة، ص 326.

[4]المصدر السابق، ص 102.

[5]مجهول، ص 176.

[6]القل: تبعد عن جيجل بسبعين ميلا وهي قرية عامرة. الإدريسي: المصدر السابق، ص 125.

[7] نفسه، ص125.

[8]ابن خلدون: العبر، ج6، ص 381؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 173؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 131.

[9]سيوسيرات: تقع غرب مدينة تنس بمرحلة. طاهر بونابي: التصوف، ص 30؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص213.

وهو الحد فيما بينهم وبين لمتونة، [1]ويجعل في موضع آخر مدينة بونة أول حد بلاد إفريقية،[2]وبذلك فرض الحماديون نفوذهم على المجال الجغرافي الممتد من بونة وقسنطينة شرقا إلى السيوسيرات غربا.

أما جنوبا فلم تكن الحدود بينهم وبين بني زيري واضحة بما يكفي، [3]إلا أن الانتشار العسكري للدولة الحمادية قد امتد إلى مدينة ورجلان جنوبا. [4]

لكن التوسع الموحدي العسكري والسياسي سينهي حالة الاستقلال السياسي والوحدة الجغرافية التي اكتساها المغرب الأوسط عهد الدولة المركزية لبني حماد ويتحول إلى ولاية موحدية.

حيث شكلت المناطق الغربية من المغرب الأوسط وفي وقت مبكر مسرحا هاما وحاسما في صراع المرابطين والموحدين، الذي كانت له تداعيات مباشرة في أفول نجم المرابطين وسطوع دولة الموحدين ودخول النواحي الغربية من المغرب الأوسط، في حكم دولتهم الفتية حيث مد عبد المؤمن بن علي(558هـ/ 1159م)،[5]نظره إلى المغرب الأوسط قبل أن يثبّت أقدام الموحدين في المغرب الأقصى، ومرد هذا حسب بعض الباحثين إلى رغبته في الاستفادة من إمكانيات المغرب الأوسط وكسب دعم زناتة وقبيلة كومية خصوصا،[6] باعتبارها قبيلته، وهو ما عبر عنه ابن خلدون (808هـ/1405م) في قوله:« نهض عبد المؤمن إلى فتح المغرب...

---

[1]عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 213.

[2]نفسه، ص 153. ومن المصادر التي تجعل قسنطينة آخر عمل مملكة بني حماد وبونة أول سلطنة إفريقية. ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص36؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 95.

[3]الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 2، ص115.

[4]الزهري: المصدر السابق، ص119؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص356؛ عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1، ص 359.

[5] عبد المؤمن بن علي: هو عبد المؤمن بن علي الكومي مولده بتاجرا بنواحي تلمسان سنة 487هـ/ 1094م توفي في جمادى الأخرى سنة 558هـ/1159م. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 148، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح محمد بن مكي، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1990م، سحب جديد 2011، ص204. 205.

[6] علي عيشي: المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (من534هـ /1139م إلى633هـ /1235م). رسالة ماجيستير، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسنطينة، 1433-1434هـ/ 2011-2012م، ص36.

ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة، وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتدّ عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحّدين وخلافته..»[1]

فضلا على رغبته في الاستيلاء على تلمسان باعتبارها منطقة الخيول الأساسية في البلاد الغربية.[2]

فخلال حركته الطويلة الأعوام توجه بجيوشه إلى نواحي تلمسان،[3]وفي المقابل كان تاشفين بن علي(ت539هـ/1145م)،[4]يتبعه حيثما توجه،[5]ففي سنة 538هـ/1143م،[6]نزل عبد المؤمن في جبل يسمى بين الصخرتين،[7]ونزل تاشفين خارج مدينة تلمسان،[8]حيث وصلته الامدادات والتي كان من بينها مدد من دولة بني عمومته بني حماد.[9]

وبعد مناوشات ومعارك متكررة انتهت بهزيمة تاشفين بن علي وجيوش المرابطين،[10]ففر على إثر هذه الهزيمة إلى وهران ليواصل منها محاربة الموحدين،[11] فانصرف عبد المؤمن في طلبه ونزل عليه بوهران وفرض عليه الموحدون الحصار.[12]

---

(1)ابن خلدون: العبر، ج6، ص 260.

(2) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص199. يشير ابن سعيد المغربي إلى كثرة الخيول عند زناتة التي بجبل بني راشد قرب تلمسان. المصدر السابق، ص37.

(3) ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص94. علي عيشي: المرجع السابق، ص36.ويجعل ابن خلدون توجه عبد المؤمن بن علي إلى المغرب الأوسط ضمن أحداث سنة 537هـ/1142م. العبر، ج6، ص 260.

(4) تاشفين بن علي: هو آخر خلفاء دولة المرابطين قتل في حربه ضد عبد المؤمن قرب مدينة وهران 539هـ/1145م ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص189؛ ابن الأثير، ج10، ص1616.

(5) ابن أبي الزرع: المصدر السابق، ص209.

(6) وهي سنة 539هـ/ 1145م عند المصمودي. مفاخر البربر، ص185.

(7) بين الصخرتين: يجعل ابن خلدون هذا الموضع من جبل تيطري وهو مطل على تلمسان. العبر، ج6، ص388.

(8) ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1616؛ النويري: المصدر السابق، ص406.

(9) ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص96؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص389.

(10) ابن خلدون: العبر، ج6، ص389.

(11) يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص170.

(12) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص151؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص203.

والذي انتهى بمقتل تاشفين بن علي في 27 رمضان 539هـ/1145م،[1]وبنجاح الموحدين في فتح مدينة وهران بعد عدة أيام من مقتله.[2]

وهو الفتح الذي اتسم بكثرة القتلى سواء بالموت عطشا بعد أن قطع الموحدون الماء على المدينة،[3]أوبمن قتل بسيوف الموحدين حيث يقول ابن الأثير(ت630هـ/1233م):« دخلها بالسيف وقتل فيها ما لا يحصى.»[4]

أما تلمسان فلقد كانت خلال هذه الفترة مقسمة إلى مدينتين أقادير وهي القديمة وتاقرارت وهي المدينة الجديدة،[5]التي كانت توجد بها المؤسسات الإدارية والحامية العسكرية. [6]

وبعد وصول الخبر بموت تاشفين خرج من كان بتاقرارت من لمتونة،[7]كما حاول عامتها طلب الأمان من عبد المؤمن إلا أنه لم يقبل منهم وقتل أكثرهم.[8]

أما مدينة أقادير فلقد امتنعت وأغلقت أبوابها في وجه الموحدين،[9]الذين فرضوا عليها الحصار، ليتمكنوا بعدها من دخول المدينة وقتل أكثر أهلها،[10]بل تقدم بعض المصادر رقما لضحايا

---

[1] تتفق الكثير من المصادر على هذا التاريخ. ابن الأثير، ج10، ص1616؛ ابن عذارى: ج4، ص100؛ النويري: المصدر السابق، ص406؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص170. في حين جعلها عبد الواحد المراكشي سنة 540هـ/ 1145م. المصدر السابق، ص151.

[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص100.

[3] نفسه، ج4، ص100؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص477.

[4] المصدر السابق، ج10، ص1617؛ النويري: المصدر السابق، ص 407.

[5] تاقرارت: مدينة أسسها يوسف بن تاشفين المرابطي 462هـ/1068م. وتعني كلمة تاقرارت موضع المحملة(المعسكر) بلسان زناتة. يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص91. وصفها البكري بأنها مدينة في سفح جبل مسورة لها خمسة أبواب. المصدر السابق، ج2، ص259.

[6] علي عيشي: المرجع السابق، ص38.

[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص100؛ النويري: المصدر السابق، ص408.

[8] ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص100؛ النويري: المصدر السابق، ص408، وجعل ابن خلدون سبب قتل عبد المؤمن لأهل تاقرارت أن أكثر أهلها من الحشم. العبر، ج6، ص478.

[9] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1617.

[10] نفسه، ج10، ص1617 ؛ النويري: المصدر السابق، ص409.

مدينة أقادير إثر الفتح الموحدي والذي بلغ مائة ألف قتيل،[1] وفي تلميح من رواية مصدرية أن عبد المؤمن قد شارك شخصيا في حصار أقادير وفتحها،[2]وبالتالي يتحمل مسؤولية هذه المجزرة.[3]

وبذلك أصبحت تلمسان بشقيها داخل الحضرة الموحدية سنة540هـ/ 1145م،[4]ويشير ابن خلدون(ت808هـ/ 1405م) إلى اهتمام الموحدين بأمر مدينة تلمسان حيث يقول:« وعقد عليها عبد المؤمن لسليمان بن وانوادين... ثم ابنه السيد أبو حفص ولم يزل آل عبد المؤمن من بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم.» [5]

لم تتوقف طموحات الموحدين عند فتح وهران وتلمسان، بل سرعان ما بدأت أمالهم تمتد إلى ضم كامل بلاد بني حماد، حيث شرع عبد المؤمن في تجهيز حملته لفتح بجاية سنة 546هـ/ 1151م.[6]

وذلك من خلال جمع العساكر وتجهيز الأساطيل في سرية تامة، مراسلا كل المدن التي في طريقه إلى بجاية، ليكونوا على أتم الاستعداد متى أشار عليهم بذلك، لكن دون أن يعرفوا الوجهة المقصودة والزمن المحدد، حتى اعتقد الناس أنه يريد العبور إلى الأندلس.[7]

---

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص1617؛ النويري: المصدر السابق، ص409. الملاحظ أن المصادر المشرقية تبالغ في أرقام القتلى.

[2] نفسه، ص409.

[3] محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، ط1، جذور للنشر، الرباط، 2006م، ص18؛ الحسين بولقطيب: المرجع السابق، ص94.

[4] ابن خلدون: العبر، ج7، ص159؛ ويجعل أبو الفداء سنة 541هـ / 1146م دخول الموحدين لأقادير. المصدر السابق، ج2، ص234.

[5] العبر، ج7، ص159.

[6] ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1688؛ النويري: المصدر السابق، ص.415؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص490. يجعل ابن أبي زرع سنة 544هـ/ 1449م بداية الحملة الموحدية على المغرب الأوسط وفتحهم لمدينة مليانة. المصدر السابق، ص 248؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص138.

[7] ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1617؛ النويري:المصدر السابق، ص 415؛ابن خلدون، العبر، ج6، ص490.

بل عمل على قطع الأخبار عن بجاية وإفريقية،[1]وبذلك كانت السرية والمراوغة أبرز سيمات المناورة العسكرية الموحدية في مشروع الهيمنة على المغرب الأوسط ،[2] حيث وصلت جيوشهم إلى مدينة الجزائر سنة546هـ/1150م على حين غفلة،[3]فأسلم عاملها المدينة للموحدين وفر إلى بجاية.[4]

أين أخذ الأمير الحمادي يحيى ابن العزيز (ت557هـ/1161م) يستعد للقاء جيوش الموحدين،[5]وتختلف الروايات التاريخية حول كيفية سقوط بجاية، إذ يشير ابن خلدون(ت808هـ/ 1405م) إلى استعمال يحيى ابن العزيز أخاه على رأس جيش صنهاجي لمواجهة الموحدين لكنه انهزم بأم العلو،[6]في حين تذكر مصادر أن وزير بني حماد ميمون بن حمدون خرج بجيوش بني حماد و انهزامه دون قتال.[7]

---

(1) ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص124.

(2) عز الدين أحمد موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي –تنظيماتهم ونظمهم–، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ1991م، ص251؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص427؛ دومينيك فاليري: المرجع السابق، ص63، 64.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص490. في حين تشير الكثير من المصادر على انطلاق الحملة نحو المغرب الأوسط سنة 547هـ/ 1151م. ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص1689؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص124؛ التيجاني: المصدر السابق، ص279؛ النويري: المصدر السابق، ص 415؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3؛ العمري: المصدر السابق، ج27، ص28.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص363؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 215. ويتحدث التيجاني عن لقاء عبد المؤمن بالحسن الزيري بمدينة الجزائر ودور هذا الأخير في حث عبد المؤمن بن علي على أخذ بجاية؛ المصدر السابق، ص279–280.

(5) ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص124–125.

(6) العبر، ج6، ص363–364–490. ويجعلها الهادي روجي إدريس بجبل زيري. المرجع السابق، ج1، ص429.

(7) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1689؛ النويري: المصدر السابق، ص415.

أما عبد الواحد المراكشي (ت النصف الثاني من القرن 7هـ/13م) فيتحدث عن حصار موحدي لحاضرة بني حماد بجاية،[1]في حين يجعل ابن عذارى(كان حيا712هـ/1312م) دخول الموحدين للمدينة، بخيانة وزير بني حماد وفتحه الأبواب للموحدين.[2]

وبذلك سقطت حاضرة بني حماد في يد الموحدين سنة 547هـ/ 1152م،[3]وهنا يتبادر للباحث السؤال عن سر هذا السقوط السريع لأعمال بني حماد وعن أسباب جمع عبد المؤمن جيوش عظيمة؟،[4]واعتماده السرية والمراوغة؟ فهل كانت دولة بني حماد في حالة من الوهن والضعف جعلت الفتح الموحدي سهل ويسير جدا؟[5]

أم أن الدور الذي لعبه الوزير ميمون بن حمدون بخيانته للحماديين ودخوله في أمر الموحدين سرا،[6]قد سهل الفتح الموحدي،[7]كما تشير بعض المصادر إلى إهمال يحيى ابن العزيز لشؤون دولته وانشغاله باللهو والصيد،[8]وبذلك لم يكن الرجل المناسب لإنقاض الموقف

---

(1) المصدر السابق، ص152.

(2) المصدر السابق، ج4، ص124.

(3) تتفق الكثير من المصادر على تاريخ سقوط بجاية وباقي أعمال بني حماد في يد الموحدين. ابن الأثير:ج6، ص1689؛ التيجاني: المصدر السابق، ص279؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص124؛ النويري: المصدر السابق، ص415؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص23. وينفرد عبد الواحد المراكشي بتاريخ 540هـ/ 1145م. المصدر السابق، ص152.

(4) نفسه، ص152؛ عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص231.

(5) عبد القادر بوتشيش: المرجع السابق، ص96.

(6) يتحدث ابن القطان عن دخول ميمون بن حمدون وزير بني حماد في أمر الموحدين ودعوتهم ومخاطبته لعبد المؤمن قبل حملته على المغرب الأوسط. المصدر السابق، ص146؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص124-125. أما ابن الأثير فيشير إلى عدم تعرض الموحدين لأموال أهل بجاية وذلك لطلب بني حمدون الأمان من عبد المؤمن فأمنهم، المصدر السابق، ج11، ص1689.

(7) عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص48.

(8) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1689؛ التيجاني: المصدر السابق، ص280؛ النويري: المصدر السابق، ص415؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص23؛ العمري: المصدر السابق، ج27، ص38.

والوقوف في وجه الزحف الموحدي،[1]فقد تكون هذه العوامل مجتمعة مبررا للسقوط السريع لحاضرة الحماديين بجاية.

ورغم محاولة صنهاجة مواجهة الموحدين باجتماعهم في أمم لا تحصى، وتحالفهم مع كتامة ولواتة إلا أنهم انهزموا أمام جيش الموحدين وقتل منهم الكثير ونهبت أموالهم،[2]ليرسل بعدها الموحدون حملة بقيادة عبد الله ابن العزيز إلى مدينة القلعة الحمادية،[3]والتي كان بها جوشن بن العزيز الحمادي في جموع صنهاجة،[4]فاقتحمها الموحدون واستلحم من كان بها من الصنهاجيين وأضرمت النار في مساكنها وبلغ عدد القتلى ثمانية عشر ألف قتيل،[5]وامتلكت القلعة وأخذ الموحدون جميع ما فيها من أموال.[6]

أما يحيى ابن العزيز فإنه فر عبر البحر إلى مدينة بونة ثم اتجه إلى قسنطينة،[7]لينتهي به المطاف إلى تسليم المدينة ومبايعة عبد المؤمن بن علي 547هـ / 1152م،[8]والذي نقله معه إلى عاصمته مراكش،[9]وبذلك أنهى الموحدون الحكم الحمادي على المغرب الأوسط.[10]

---

(1) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص429.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1689؛ النويري: المصدر السابق، ص416.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص491. أما النويري فيجعل قيادة الحملة الموحدية لأبي سعيد الذي انتصر على صنهاجة. المصدر السابق، ص417.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص491.

(5) نفسه، العبر، ج6، ص491.

(6) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1690؛ النويري: المصدر السابق، ص417؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص491.

(7) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص152؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص251.

(8) ابن خلدون: العبر، ج6، ص364.

(9) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص152.

(10) الهادي روجي ادريس: المرجع السابق، ج1، ص470.

وقام عبد المؤمن بترتيب من يقوم بحكم بلاد المغرب الأوسط، فعين ابنه أبا محمد عبد الله واليا على بجاية،[1]وعقب ذلك سعى الموحدون إلى استغلال الكفاءات العلمية والإدارية التي عملت في دولة بني حماد.[2]

وبذلك أنهت الدولة الموحدية حالة الاستقلال السياسي لمجتمع ودولة المغرب الأوسط وأدخلته في مشروعها الوحدوي المتعدد الأبعاد اللغوية والدينية والاجتماعية والقبلية.

ب-التحولات اللغوية والمذهبية:

كان من نتائج خروج المغرب الأوسط من حكم بني حماد، ودخوله في بوتقة الحكم الموحدي أن عرف تغيرات ساهمت في إعادة رسم هويته اللغوية والدينية، وفق املاءات ورغبات الدولة الموحدية.

لقد سبق وأن تناولنا دور القبائل الهلالية في نشر اللسان العربي بأرياف المغرب الأوسط وبواديه، ليقدموا بذلك إضافة لما قام به قبلهم عرب الفتح بالمدن والحصون ولكن تشير الكثير من الدراسات إلى توقف حركة انتشار اللسان العربي في المناطق الجبلية،[3]مما يعني استمرار اللسان البربري وهو ما أشرنا إليه سابقا ضمن تصورات ابن خلدون (808هـ/ 1405م) في الموضوع الذي اعتبر أن اللسان العربي كان غالبا بغلب دولة العرب وظهور الملة العربية بالكتاب والخط. والخط بلغة الدولة ولسان الملك واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماره.»[4]

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص153؛ ابن الأثير: ج11، ص1704؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص491.

(2) عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص163. يتحدث ابن أبي الزرع عن استعمال خلفاء الموحدين لأبي الفضل بن طاهر من أهل بجاية في الكتابة الديوانية: المصدر السابق، ص271.

(3) غابرييل كامب: المرجع السابق، ص233-319؛ موريس لومبار: المرجع السابق، ص144-149؛ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج1، ص66؛ بويحي الشاذلي: المرجع السابق، ج2، ص443.

(4) العبر، ج7، ص125.

لكن استمرار اللسان البربري لا ينفي الانتشار الواسع للسان العربي، إثر دخول العرب الهلالية وتوزعهم بالمغرب الأوسط وتقاسمهم المواطن مع القبائل البربرية أما في دولة الموحدين فإن اللسان البربري يعد من أبرز سيماتها، حيث نقف على عدة إشارات تعكس اهتمام الموحدين باللسان البربري واعتمادهم عليه في تنفيذ مشروعهم العقدي، ومن ذلك على سبيل المثال تأليف صاحب مذهبهم وباعث دولتهم المهدي ابن تومرت (ت 524هـ/1129م)،[1]لكتاب التوحيد لأنصاره وأتباعه باللسان البربري،[2]لا سيما وأن قبائل مصمودة،[3]كانت أول من اجتمع حوله،[4] بجبل درن[5] وهو ما جعلها في معزل عن التأثيرات اللسانية المشرقية والأندلسية التي عرفها المغرب،[6]فحافظت بذلك على أعجميتها،[7] وفي هذا الصدد يشير ابن أبي زرع (ت776هـ/1325م) إلى الصعوبة التي واجهها المصامدة في حفظ فاتحة القرآن الكريم خلال مرحلة الدعوة الموحدية مثلا .[8]

---

(1) المهدي ابن تومرت: هو محمد بن عبد الله بن تومرت ولد بالسوس بضيعة تعرف "بإيجيلي أو وارعن" وتختلف المصادر في رفع نسبه إلى علي بن أبي طالب وترجعه بعضها إلى بطن هرغة من المصامدة. ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 1613. ابن القطان: المصدر السابق، ص111؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص136-137؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص464.

(2) ابن القطان: المصدر السابق، ص129؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 140؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص136؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص226-227.

(3) مصمودة: هم من ولد مصمود بن برنس ومن بطونها: غمارة بنو غمار ابن مصطاف بن مليل بن مصمود. ابن خلدون: العبر، ج6، ص177، 428. ويذكر صاحب مفاخر البربر: بطون مصمودة وهي خاصة رجراجة، وريكة، هزميرة، حدميوة هنفيسة، هزرجة، دكالة، هنتاتة، بنو ماغرس، تحلاوة. المصدر السابق، ص212.

(4) جبل درن من أخصب البلاد وأكثرها أنهارا وأشجارا وأعنابا وفيه أمم لا تحصى من المصامدة: مجهول: الاستبصار، ص235.

(5) النويري: المصدر السابق، ص 398.

(6) محمد المغراوي: المرجع السابق، ص105.

(7) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 235.

(8)نفسه، ص235.

وإضافة لأعجمية أغلب أنصاره على الأقل خلال مرحلة الدعوة، فإنه كان من أفصح أهل زمانه في اللسان البربري.[1]

وإلى جانب كتاب التوحيد ألف أيضا عدة كتب دينية باللسان البربري،[2]حيث ساهم فهمهم لمعاني العقيدة الإسلامية بلسانهم في استحكام طاعتهم وزيادة تعظيمهم له[3]ناهيك عن استعماله للسان البربري أيضا في مخاطبة أنصاره وأتباعه من الموحدين،[4]فكانت البربرية لغة كل يوم، لغة السب واللعن ولغة الدعاة الذين يعلنون تقدم المهدي وعصمته من قرية إلى قرية.[5]

ويبدو أن اعتماد الموحدين للسان البربري قد بلغ درجة عالية وذلك بتجاوز استعماله في التأليف والتخاطب، إلى اعتماده كشرط من الشروط في تولي منصب الإمامة والخطابة بمساجد المدن والحواضر الكبرى، وهو ما نستشفه مما أورده ابن أبي زرع(ت726هـ/1325م)، عند حديثه عن تغيير الموحدين لخطيب مسجد القراويين بفاس وتقديمهم خطيبا آخر مكانه وذلك لحفظه اللسان البربري ويضيف قائلا: «لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري.»[6]

وعلل أحد الباحثين هذا الأمر بأنه نتيجة لاستقرار الساكنة البربرية أكثر بالمدن فأصبح الموحدون لا يقدمون أئمة وخطاب الحواضر الكبرى إلا من يتقن البربرية والعربية.[7]

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص140.

(2) الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص46؛ عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص36.

(3) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 140.

(4) يسمي ابن القطان اللسان البربري باللسان المغربي، ويشير إلى مخاطبة المهدي ابن تومرت لقبائل هنتاتة باللسان المغربي. المصدر السابق، ص135.

(5) آ. ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 2012م، ص237.

(6) المصدر السابق، ص87.

(7) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص80.

ونجد عند ابن خلدون (ت808هـ /1405م) إشارة توحي باستعمال الموحدين ولو لفترة اللسان البربري في النداء للصلاة(الآذان)،[1]كما نجد بعض الإشارات لاستعمال خلفاء وفقهاء الموحدين اللسان البربري، في التخاطب والمواعظ والتحريض على الجهاد وغيرها.[2]

ومنه لا يستبعد أن تكون الدولة الموحدية قد أعطت للسان البربري دفعا قويا ونفسا جديدا في مختلف أرجاء دولتها، لا سيما وأنها تمتاز بمحاولاتها صبغ المجتمع المنضوي، تحت لوائها بفكرة واحدة مذهبيا وسياسيا واجتماعيا وسعيها لسيطرة الطلائع التي تؤمن بالفكر الموحدي على المجتمع المغربي.[3]

أما فيما يخص المتغيرات المذهبية التي طرأت على المغرب الأوسط بعد الحكم الموحدي، فلا يعد النجاح السياسي الذي حققته الدولة الموحدية، في حقيقة الأمر سوى امتداد لنجاح الحركة الإصلاحية والدعوة المذهبية التي بثها المهدي ابن تومرت(ت524هـ/1129م) بالمغرب الإسلامي مطلع القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي، فلا غرابة أن يكون لقيام الدولة الموحدية انعكاسات ذات أثر على الحياة المذهبية خصوصا بالمغرب.

(1) أورد ابن خلدون هذه الإشارة في سياق حديثه عن إجراءات الخليفة الموحدي المأمون بن المنصور المناهضة للمذهب الموحدي وسننه فكان من بين هذه الإجراءات النهي في النداء للصلاة باللغة البربرية مما يعني اعتمادها قبله للنداء للصلاة. العبر، ج6، طبعة دار الفكر، ص 341.

(2) عبد الملك بن صاحب الصلاة: المن بالإمامة –تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين–، ط4، تح عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012، ص411-434 وغيرها.

(3) عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص10.

فإن بدأ المهدي بن تومرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،[1]فإنه سرعان ما بدأ يفصح عن معارضته للمرابطين وهي المعارضة التي شكل الجانب الديني أحد أهم فصولها مواجها نقدا قويا لفقهاء الفروع المالكية،[2]الذين كان لهم كل التقدم والحظوة عهد المرابطين،[3]ومن هنا نتساءل هل أدى قيام الدولة الموحدية إلى انقلاب مذهبي؟ أو هل أدخل على الأقل فقهاء المالكية لاسيما أصحاب الفروع منهم في محنة؟

ومن مظاهر هذه التحولات المذهبية ما يرويه ابن أبي زرع(726هـ/1325م) عن أمر عبد المؤمن بن علي (ت558هـ / 1168م) خلال سنة 550هـ/ 1155م، تحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث.[4]

لكننا في المقابل نجد مصادر أخرى تؤكد على جمع عبد المؤمن بن علي (ت 558هـ / 1168م) الناس بالمغرب على مذهب الإمام مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول،[5]وهو ما دفع أحد الباحثين إلى التعليق على رواية ابن أبي زرع وعلى فرض صحتها، فإنه ليس ثمة ما يدل على أن الأمر قد دخل حيز التطبيق.[6]

(1)تنقل الكثير من المصادر أمر المهدي ابن تومرت بالمعروف ونهيه عن المنكر في الأماكن التي حل بها ومن ذلك ما قام به في بجاية أوفي تاجرا قرب تلمسان وغيرهما؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص76-93-94؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص137؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص467؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 220.

(2) ابن القطان: المصدر السابق، ص94 وما بعدها، عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص135-144.

(3) عبد القادر بوتشيش: المرجع السابق، ص52-53-56.

(4) المصدر السابق، ص255.

(5) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1726؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص40؛ النويري: المصدر السابق، ص428.

(6) لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي –مقاربة منهجية–، تصدير أبو القاسم سعد الله، تقديم غازي الشمري، مطبعةAGP، وهران 2014، ص158.

إلا أن التلويح بتنفيذ هذا الأمر عاد إلى الظهور مجددا في عهد ثاني خلفاء الموحدين يوسف بن علي بن عبد المؤمن (ت580هـ / 1184م) حيث يروي لنا عبد الواحد المراكشي (ت النصف الثاني من القرن7 هـ/13م) حوارا دار بينه وبين أحد الفقهاء عبر خلاله عن امتعاضه من علم الفروع وتشعب المسائل مبينا موقفه من هذا بالعودة إلى القرآن والأحاديث النبوية أو السيف.[1]

لكن الأمر أصبح أكثر وضوحا في عهد ثالث خلفاء الموحدين يعقوب بن يوسف بن علي (ت595هـ / 1199م) حيث يفيد عبد الواحد المراكشي (ت في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م) بشهادات هامة توحي بكل جلاء عن عمق التغير المذهبي الذي فرضه هذا الأخير ببلاد المغرب. ففي أيامه انقطع علم الفروع وكافة الفقهاء وأمر أيضا بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من أحاديث الرسول صلى الله عيه وسلم، فأحرق منها جملة في سائر البلاد.[2]

ويضيف قائلا: "ولقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار."[3]وزاد الخليفة الموحدي على هذا بأن أمر الناس بالانشغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة،[4]مقدما في ذات الوقت ما يراه بديلا عن هذا من خلال أمره لجماعة من العلماء بجمع أحاديث المصنفات العشرة.[5]

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 204-205؛ لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص158.

(2) من الكتب التي أحرقت مدونة سحنون كتاب ابن يونس نوادر أبي زيد ومختصره كتاب التذهيب للبراذعي واضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحى نحوها. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص202-203.

(3) نفسه، ص203.

(4) نفسه، ص203.

(5) وهي الصحيحين الترمذي والموطأ، سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن البزار، مسند ابن شيبة، سنن الدار قطني، سنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها. نفسه، ص203-204.

فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظهم وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب.[1]

فشهدت الدولة عهدة تحولات مذهبية خطيرة،[2]لاسيما وأن قصده في الجملة هو محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، و حمل الناس على الظاهر من القرآن و الحديث.[3]

وهذا المقصد بعينه؛ أي محو المذهب المالكي من المغرب، كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا،[4]وبذلك يكون قد بعث مشروع مؤجل وتجسيده على أرض الواقع.[5]

فلا شك في أن تؤدي شدته في قمع المخالفين والتنكيل بهم أن شاع بين الفقهاء جوا من التوجس والترقب[6]والتضيق على المذهب المالكي والقائمين عليه بالمغرب[7]في حين جعل لمن يحفظ مجموع الأحاديث الكسا والأموال كما نال عنده طلبة العلم –ويعني علم الحديث– ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده[8]فمثل عهده عهد نهضة حديثية واسعة[9]يصورها عبد الواحد المراكشي في قوله: «وانتشر في أيامه لأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس.»[10]

---

[1] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص204.

[2] الدراجي بوزيان: المرجع السابق، ج1، ص98.

[3] حول مذهب الخليفة أبو يعقوب. أنظر لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص159-160-161.

[4] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص204.

[5] لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص159.

[6] نفسه، ص155.

[7] نفسه، ص153-155.

[8] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص204.

[9] لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص157.

[10] المصدر السابق، ص202.

ولقد أدى سعي الموحدين في فرض مشروعهم المذهبي أن باشر جماعة من فقهاء المغرب الأوسط وغيرهم من فقهاء الغرب الإسلامي[1] في معارضة هذا المشروع وذلك من خلال تصنيف مؤلفات في الذب عن مذهب المالكية والانتصار للنهج الفروعي. [2]

ومن أهم فقهاء المغرب الأوسط الذين عارضوا سياسة الموحدين في فرض مذهبهم على حساب المذهب المالكي ونهج الفروع الفقيه أبو زكرياء الزواوي البجائي (ت 611هـ /1214م)[3] في كتابه " حجة الأيام وقدوة الأنام" يرد فيه على الظاهرية التي تلتقي من بعض وجوهها مع المشروع الموحدي[4] ويبدو أنه تمادى في التشنيع على الظاهرية ما حمل بعض أنصار الظاهرية إلى الرفع به إلى الخليفة الموحدي والذي أناب عنه في مجلس الخليفة صاحبه الفقيه أبو محمد عبد الكريم الحسني(القرن 7هـ/13م)[5] الذي قصد مراكش مصطحبا معه الكتاب المذكور ويظهر أنه أجاد في المرافعة لصالح صاحبه حتى كان من قول الخليفة الموحدي له: «يترك هذا الرجل –يعني الزواوي– على اختياره فإن شاء لعن وإن شاء سكت.»[6]

---

(1) لم يكن رفض المشروع المذهبي الموحدي و معارضته مقتصرة على فقهاء المغرب الأوسط فحسب بل نجد الكثير من فقهاء الغرب الإسلامي الذين ردوا على المشروع الموحدي من خلال تأليف عدة كتب في الذب عن مذهب المالكية والانتصار للنهج الفروعي ونذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر الفقيه أبو بكر بن أبي جمرة المرسي (ت 599هـ/1202م) في كتابيه " إقليد التقليد المؤدي إلى النظر السديد " و "نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار" والفقيه أبو الحسن بن عمر الوادياشي (ت609هـ/1212م) في كتابين "نهج المسالك للتفقه في مذهب مالك" و "الترصيع في شرح مسائل التفريع" و غيرهم من فقهاء المغرب الأقصى والأندلس. لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص 162-163.

(2) نفسه، ص 162.

(3) أبو زكرياء الزواوي: هو الشيخ الفقيه الصالح العابد الولي الزاهد ولد في بني عيسى من قبائل زواوة وهو عالم في الحديث والفقه وعلوم التذكير توفي سنة 611هـ/ 1214م. أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981م، ص135-136

(4) لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص163.

(5) أبو محمد عبد الكريم الحسني: وهو الشيخ الفقيه الصالح الفاضل المدرس وهو من أصحاب الشيخ أبو زكرياء الزواوي كان من أهل العلم والفضل والنزاهة والوجاهة. الغبريني: المصدر السابق، ص216.

(6) نفسه، ص217؛ لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص163-164.

وكتاب الفقيه أبو علي المسيلي (ت 580هـ /1184م)[1] الذي عاكس فقهاء الظاهر في كتابه الموسوم " النبراس في الرد على منكر القياس"[2] وأحاط بعلم الفقه والتصوف في كتابه الشهير "التفكر فيما تشتمل عليه الصور والآيات من المبادئ والغايات"[3]

أما أبو مدين شعيب (ت 594هـ /1197م)[4] الذي استقطب الأفارقة والمغاربة فقد انتصب للتربية الصوفية وتقرير الفتاوى على مذهب الإمام مالك، فقد سلك الأسلوب غير المباشر في نقد سلطة الموحدين التي كانت تأتمر بتدبير من فقهاء الظاهر.[5]

---

(1) أبو علي المسيلي: الشيخ الفقيه الفاضل العالم العابد المحقق المتقن المحصل المجتهد الذي كان يسمى أبا حامد الصغير جمع بين العلم والعمل والورع وبين علمي الظاهر والباطن له المصنفات الحسنة والقصص العجيبة المستحسنة. الغبريني: المصدر السابق، ص 66.

(2) لخضر بولطيف: الفقه والتاريخ، ص164؛ الطاهر بونابي: المثاقفة الصوفية بين بجاية والمغرب الأقصى خلال العهد الموحدي (علائق وتفاعل)، ملتقى دولي بجاية مدينة التاريخ والحضارة 30-31أكتوبر 2012م، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، 2013م، ص69.

(3) نفسه، ص69.

(4) أبو مدين شعيب: هو الشيخ الفقيه المحقق الواصل القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد وهو من ناحية اشبيلية الأندلسية توفي وهو محمول من بجاية إلى مراكش بأمر من الخليفة الموحدي بالعباد بمدينة تلمسان سنة 594هـ/1197م. الغبريني: المصدر السابق، ص 55-56-60.

(5) الطاهر بونابي: المثاقفة الصوفية بين بجاية والمغرب الأقصى، ص70.

2-المسألة الهلالية في المشروع الموحدي:

لقد سبق وأن تناولنا نجاح القبائل الهلالية في استثمار الأوضاع السياسية والعسكرية بإفريقية والمغرب الأوسط عهد بني زيري وبني حماد وضعف وانهيار الكثير من العصبيات البربرية لصالحها، لاسيما على مستوى التوزع والانتشار والاستيلاء على الضواحي والمجالات البربرية، إلا أن التوسع الموحدي وفتح المغرب الأوسط سيكرس لوضع جديد مغاير تماما لما كان قبله، نظرا لوظيفة التأطير التي اضطلعت بها دولة الموحدين على مستوى الادماج الاجتماعي للعرب الهلالية وفي إشراكهم في مشاريعها الجهادية وقمع الحركات المناوئة للمجتمع الموحدي.

أ-الإدماج والاستقرار:

لم تكن القبائل الهلالية بمعزل عن الحدث السياسي والعسكري البارز والمتمثل في ضم الموحدين للمغرب الأوسط خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي ومن ذلك وفود أميران من العرب أحدهما من الأثبج والآخر من جشم على عبد المؤمن بن علي بمدينة الجزائر فأحسن استقبالهما وأقرهما على قومهما،[1]وهي حادثة قد تعكس محاولة بعض القبائل الهلالية الدخول في وقت مبكر في طاعة الموحدين، بل يشير أحد الباحثين إلى مشاركة بعض القبائل الهلالية في الجيش الموحدي لفتح بجاية.[2]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص33-44؛ الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص428؛ محمد المغرواي: المرجع السابق، ص96.

[2] نفسه، ص96.

والملاحظ أننا لا نجد في ثنايا المصادر ما يوحي بالدور المبكر للعرب الهلالية في مواجهة التحرك العسكري الموحدي في المغرب الأوسط.

ولعل أول إشارة نقف عندها هي ما أورده ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) عن مقتل الأمير الحمادي جوشن بن العزيز وابن الدحامس من الأثبج خلال فتح الموحدين لمدينة القلعة[1]مما يعني على الأقل تأخر تدخل قبائل بني هلال في الصراع الموحدي الحمادي الصنهاجي إلى ما بعد سقوط مدينة بجاية.[2]

حيث سرعان ما أفصح العرب الهلالية عن موقفهم الرافض للتوسع الموحدي، وذلك خوفا على امتيازاتهم في ظل الدولة الموحدية ومن الطموح الموحدي الرامي إلى فرض كامل سيطرتها على الأطراف البعيدة،[3]فضلا على إلغاء عبد المؤمن بن علي لما كان بين أيديهم من غلال بلاد بني حماد.[4]

بل أن توجس العرب وخوفهم من الموحدين بلغ أشده ونلمسه في التحالف القبلي الذي امتد من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب قائلين إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من بلاد المغرب[5]وبذلك شكلت الدولة الموحدية خطرا على مصالح العرب الاقتصادية واستقلالهم بل وحتى عن استمرار تواجدهم بالمغرب.

---

(1) العبر، ج6، ص364.

(2) دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص200؛ محمد المغراوي: المرجع السابق، ص96.

(3) نفسه، ص96.

(4) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص166. وفي الجانب الاقتصادي يجعل عز الدين أحمد موسى سبب الصدام بين العرب والموحدين هي الشكوى التي رفعها سكان إفريقية لتملك العرب ديارهم بالسيف. عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص95. أما ابن خلدون فجعل سبب الصدام الهلالي الموحدي هو دفاعهم عن ملكهم يحي ابن العزيز. العبر، ج6، ص491.

(5) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1697؛ النويري: المصدر السابق، ص417.

فاجتمعت القبائل العربية وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغبة وغيرهم[1]متحالفين على التعاون والتظافر عازمين على لقاء عبد المؤمن بالرجال والأهل والمال ليقاتلوه قتال الحريم[2]وكانوا في عدد لا يحصى[3]وأضعاف جيش الموحدين الذي تجاوز ثلاثين ألف فارس.[4]

ودارت المعركة عند مدينة سطيف سنة 548هـ/ 1153م حيث حمل الموحدون فجاءت على العرب وهم لم يستعدوا بعد للمعركة التي انتهت بانهزامهم،[5]فكان عنصر المفاجأة ونقص العتاد والانسجام عند العرب سببا في انكسارهم أمام جيش الموحدين الذي كان منظما ومنضبطا.[6]

فاستلحم العرب وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم واتبعوا أدبارهم إلى فحص بسبتة،[7]فقسم عبد المؤمن الأموال على عسكره في حين ترك النساء والأولاد تحت الاحتياط وأمر بصيانتهم ونقلهم معه إلى مراكش.[8]

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1697؛ النويري: المصدر السابق، ص417.

(2) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص435.

(3) النويري: المصدر السابق، ص417-418.

(4) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1697.

(5) نفسه، ج11، ص1697.

(6) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص435.

(7) ابن خلدون: العبر، ج6، ص44.

(8) النويري: المصدر السابق، ص418.

وعموما فقد شكلت هزيمة سطيف محطة هامة سواء على العصبيات الهلالية وانتشارها بالمغرب الأوسط أو على نضام الدولة الموحدية وسياستها.

فأول مرة تسحق القبائل الهلالية عسكريا على يد حاكم قوي،[1]حيث نجح الموحدون في كسر عصبياتها وإذلالها،[2]وهو ما دفعها إلى الاستكانة والدخول في طاعة الموحدين ودعوتهم،[3]وبذلك تأتى للموحدين أكثر من غيرهم فرض النظام والأمن بالمغرب الأوسط ولو لفترة من الزمن.[4]

وضمن رصدنا للمتغيرات التي طرأت على ساكنة المغرب الأوسط فقد شكل الانكسار العسكري للعرب الهلالية أمام الموحدين بمعركة سطيف 548هـ/ 1153م فاصلا مهما في تحول بعض القبائل الهلالية المنهزمة والتي تفككت عصبيتها القوية إلى الاستقرار [5] والتخلي عن حياة الرحلة والظعن [6] ومن أقدم الاشارات حول استقرار العرب الهلالية بالمغرب الأوسط ما أورده الإدريسي (ت 548هـ/1154م) عن حصن بشر ببسكرة والذى كانت عماراته في أيدي العرب[7] ويتحدث ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) عن نزول بطون الأثبج عياض ولطيف والضحاك بقرى الزاب و مدنه بعد ضعف عصبياتهم وعجزهم عن الظعن.[8]

ولقد أدى استقرار بعض قبائل بني هلال إلى تخليهم عن النشاط الرعوي المعتادين عليه والقيام بالفلاحة والنشاط الزراعي والذي يمثل مظهر من مظاهر الاندماج الهلالي بالمغرب.

---

(1) دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص200.

(2) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص450.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص44.

(4) دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص220.

(5) الطاهر بونابي: ظاهرة الاندماج الهلالي، ص148.

(6) يربط ابن خلدون بين الظعن والانتجاع والإبعاد في القفر وبين قوة العصبية التي تعد شرطا في ممارسة نشاط الظعن. المقدمة، ص150-156/العبر، ج6، ص71-117.

(7) المصدر السابق، ص120.

(8) العبر، ج6، ص54-71-914.

الأوسط، ومن إشارات مشاركة العرب في النشاط الفلاحي بالمغرب الأوسط حديث الادريسي (ت548هـ/1154م) عن مشاركتهم في الحرث والإدخار بقسنطينة[1] ويلمح ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) إلى استقرار بطون بني يزيد من زغبة بجهة التيطري ذلك أن توليهم للريف وخصبه قد دفعهم إلى استيطانه فقل أهل الناجعة منهم[2] كما رصد لنا النشاط الزراعي للعرب الهلالية في قوله:« وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسون لمغارمها[3] ومن أبرز المظاهر التي صاحبت هذا النشاط الزراعي اهتمام القبائل الهلالية المستقرة ببناء المدشر والذي كانوا يطلقون عليه اسم الزاويا وهي موضع كان يلجأ إليه المسافرون للاحتماء شتاء من شدة البرد ومن خطر اللصوص بالليل.[4]

أما عن التوزيع القبلي الهلالي بالمغرب الأوسط فقد افترق جمع الأثبج وذهبت هيمنتهم بذهاب دولة صنهاجة،[5]وفي المقابل اعتزت قبائل رياح وقوي نفوذها مع دولة الموحدين[6]حيث ملك الدواودة[7]ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ ووراكلا[8] وتغلب الدواودة على بلاد الزاب ومن به من القبائل وغلبوا بقايا الأثبج وبطونهم بالمغرب الأوسط.[9]

---

(1) المصدر السابق، ص 121؛ فوزية كرراز: المرجع السابق، ص 346.

(2)ابن خلدون: العبر، ج6، ص60.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص 901.

(4) الطاهر بونابي: ظاهرة الاندماج الهلالي، ص 150.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص49.

(6) نفسه، العبر، ج6، ص49؛ دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص195.

(7) الدواودة: من أبناء داود بن مرداس بن رياح. ابن خلدون: العبر، ج6، ص69-70.

(8) نفسه، العبر، ج6، ص72.

(9) نفسه، العبر، ج6، ص49-50-53 وغيرها.

أما أثر المعركة على الدولة الموحدية فإن الخليفة عبد المؤمن قد عالج الظرف بتدبير سياسي واجتماعي بعيد المرامي،[1]مستغلا الانتصار العسكري في تحقيق أهداف سياسية واجتماعية مست عمق التنظيم الموحدي.

وذلك من خلال ملاينته لشيوخ القبائل الهلالية ورده لنسائهم وأطفالهم وحسن استقبالهم[2] لكنه وفي المقابل استعان بهم في توريث الحكم لابنه الذي عينه وليا للعهد بمساعدة شيوخ القبائل الهلالية وهو المنصب الذي كان لرجل من كبار شيوخ مصمودة والموحدين.[3]

حيث أحسن عبد المؤمن توظيف شيوخ القبائل العربية لصالح دعم مكانته في البنية السياسية والاجتماعية، مستغلا القبائل الهلالية في الانقلاب على الاتفاق الذي كان يكبله ويمنع انتقال الحكم إلى ذريته، [4]كما سمحت له هذه السياسة من توسيع قاعدة الحركة القبلية لحكمه التي كانت قبل ذلك بربرية خالصة مشكلة خصوصا من قبائل مصمودة.[5]

[1] محمد المغراوي: المرجع السابق، ص96.

[2] ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 1697؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص491.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1704؛ عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص119؛ محمد المغراوي: المرجع السابق، ص97.

[4] نفسه، ص97؛ عبد العزيز غوردو: المرجع السابق، ص28.

[5] دومينيك فاليري: المرجع السابق، ج1، ص200،201.

ب-التهجير الموحدي للعرب الهلالية:

لم تكتف دولة الموحدين بتأطير العرب الهلالية بعد انتصاراتها العسكرية ونجاحها في كسر عصبياتها، بل نهجت أيضا سياسة ترمي إلى إضعاف النسيج الهلالي بكل من إفريقية والمغرب الأوسط سواء بإشراكهم في الجهاد بالأندلس أو في تهجيرهم نحو الغرب.

فبعد أن أكمل عبد المؤمن بن علي فتح إفريقية وضمها لنفوذ الدولة الموحدية، طلب من أمراء العرب الهلالية لاسيما أمراء رياح منهم المشاركة في جهاد النصارى بالأندلس، وذلك بأن يمدوه بعشرة آلاف فارس من أهل النجدة.(1)

حيث أراد استثمار طاقات العرب البدو العسكرية في مواجهة النصارى،(2)والتقليل من تواجدهم بالبلاد الشرقية ليتأتى له بسط نفوذه أكثر فأكثر على دواخل البلاد،(3)فضلا عن رغبته في قطع دابر فسادهم في البلاد الشرقية من المغرب الأوسط.(4)

إلا أن أمراء القبائل العربية رفضوا طلب الخليفة ورأوا فيه مسعى لإخراجهم من بلادهم(5) وهو ما أدى إلى المواجهة العسكرية بين الطرفين في معركة القرن قرب القيروان 555هـ/ 1160م(6) وكان العرب فيها زهاء ثمانين ألف بيت في حين كانت جيوش الموحدين في ثلاثين ألف مقاتل.(7)

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714؛ النويري: المصدر السابق، ص425.

(2) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص96.

(3) محمد حسن: المرجع السابق، ص98.

(4) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص96.

(5) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714؛ النويري: المصدر السابق، ص425.

(6) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص143. وهي سنة 556هـ/1161م النويري: المصدر السابق، ص426؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص494.

(7) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714.

خلالها اعتمد الموحدون في هذه المعركة على أسلوب المفاجأة، حيث باغتت قواتهم العرب الهلالية قبل استعدادهم للمعركة، وكذلك انتهت بانكسار العرب الهلالية وانهزامهم واستيلاء الموحدين على أموالهم وحريمهم وأطفالهم.(1)

بل إن خسائر العرب الهلالية في هذه الوقعة كان جسيما، لحد أن عظام القتلى التي جمعت كانت تلوح للناظرين من مكان بعيد على حد وصف ابن الأثير (ت630هـ/1238م)،(2)وبفضل هذا الانتصار ضمن عبد المؤمن مشاركتهم في الجهاد بالأندلس مقابل تسريح حريمهم وأطفالهم،(3)فكان ذلك ثمن تجهيز العرب الهلالية لصد النصارى في ثغور الأندلس.(4)

ومن هنا بدأ الموحدين استنفار العرب وإشراكهم في حرب النصارى،(5)وهو الأمر الذي أدى إلى استقرار بعض البطون من القبائل الهلالية بجهات ونواحي الأندلس.(6)

---

(1) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص72؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714؛النويري: المصدر السابق، ص426.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص1714.

(3) نفسه، ج11، ص1714.

(4) النويري: المصدر السابق، ص427.

(5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص44.

(6) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص167.

ويبدو أن اعتماد الموحدين على العرب الهلالية في مواجهة النصارى بالأندلس قد شكل أحد الركائز الأساسية في سياسة الموحدين بالأندلس، فكان من وصايا عبد المؤمن لبنيه أن يتخذوا من العرب ذخرا لهم في مواجهة النصارى إن احتاجوا لذلك،[1]وبعد عبد المؤمن خاطب ابنه والخليفة من بعده أبا يعقوب يوسف (ت580هـ /1184م) العرب بقصيدة يحثهم فيها على الإجازة إلى الأندلس.[2]

ويبدو أن خطابه هذا قد لقي استجابة واسعة من قبل العرب الهلالية الذين شاركوا بأعداد كبيرة فيقول ابن صاحب الصلاة (ت594هـ /498): "وقد استاق في أتباعه من العرب بني رياح وبني جشم وبني عدي وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء على عدد الذباب وعدد الحصى."[3]

واستمر الموحدون في تجهيز العرب إلى الأندلس[4]وظهر خلال المعارك والوقائع التي خاضها المسلمون شجاعة العرب الهلالية وقدرتهم على مواجهة النصارى.[5]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص44.

(2) أنظر الملحق رقم 5، ص178.

(3) المصدر السابق، ص 90؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص 116؛ ابن أبي عذارى: المصدر السابق، ج4، ص189-191؛ المقري: المصدر السابق، ج4، ص379.

(4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص504؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ج4، ص380.

(5) النويري: المصدر السابق، ص432.

وإلى جانب إشراك الموحدين للقبائل الهلالية في جهادهم للنصارى بالأندلس فقد كان من نتائج الفتح الموحدي للمغرب الأوسط وإفريقية، أن بدأ التوسع الهلالي نحو البلاد الغربية والأندلسية،[1]ومن ذلك نقل عبد المؤمن بن علي للعرب الهلالية إلى المغرب الأقصى بعد انكسارهم في معركة سطيف548هـ/ 1353م.[2]

إلا أنه وعلى ما يبدو لم يكن إلا انتقالا مؤقتا حيث أرجعهم إلى أوطانهم[3]في حين بدأت مرحلة تهجير بطون من القبائل الهلالية بعد الفتح الموحدي لإفريقية فيذكر ابن أبي الزرع(ت726هـ/1325م) أن عبد المؤمن قد نقل منهم إلى المغرب ألفا من كل قبيلة بعيالتهم وأبنائهم وهم من عرب جشم.[4]

ومع هذا فإن تحرك القبائل العربية عهد عبد المؤمن قد ظل تحركا جزئيا حيث كانت بطون تنتقل نحو المغرب الأقصى في حين تظل أخرى في مضاربها الأولى.[5]

(1) عز الدين أحمد موسى: الموحدون، 95.

(2) التيجاني: المصدر السابق، ص280؛ عبد العزيز غودري: المرجع السابق، ص43.

(3) ابن خلدون: العبر، ج6، ص491؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص97.

(4) المصدر السابق، ص262؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص103.

(5) محمد المغراوي: المرجع السابق، ص103.

ويبدو أن ترحيل الموحدين للقبائل الهلالية نحو المغرب الأقصى والذي يعد من أكبر التحركات البشرية التي عرفها تاريخ المغرب الوسيط[1]لم يكن عفويا بل حركته جملة من الدوافع والأسباب فإضافة إلى رغبة عبد المؤمن في توظيف شيوخ العرب لتقليص نفوذ شيوخ الموحدين واستخلاف ابنه.[2]

فإنه أراد استغلال القبائل الهلالية في عملية التوازن القبلي في دولته المصمودية والتي كان غريبا عنها، [3] فضلا عن تفطنه إلى قدرة الأعراب في خلق المشاكل وصعوبات عويصة في أطراف الدولة والتي كانت تراهن كثيرا على المناطق الشرقية في امتداد يحقق مشروعها الوحدوي والسياسي.[4]

أما في عهد الخليفة المنصور فتصبح أسباب الأمن واضحة جلية إذ غرب العرب الهلالية نحو البلاد الغربية تأديبا وعقابا لهم وذلك بعد مشاركتهم وتعاونهم مع بني غانية[5]في الفتنة التي أثاروها بالبلاد الشرقية.[6]

---

[1] محمد المغراوي: المرجع السابق، ص93.

[2] عز الدين أحمد موسى: الموحدون، ص222.

[3] نفسه، النشاط الاقتصادي، ص96؛ محمد المغراوي: المرجع السابق، ص99.

[4] نفسه، ص100.

[5] أبناء غانية: هم من قبيلة مسوفة الصنهاجية وكانت تربطهم صلة قرابة ببيت تاشفين وذلك بعد زواج أبيهم بامرأة من أهل يوسف بن تاشفين تسمى غانية والتي أنجبت يحي ومحمد فتولى هذا الأخير عهد المرابطين على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة، وتعاقب بنوه وأحفاده الأمر من بعده إلى أن تولى علي ابن إسحاق ابن غانية والذي خرج بأسطول وتمكن من الاستيلاء على مدينة بجاية 580هـ/1184م والكثير من نواحي المغرب الأوسط وبدأت مرحلة الصراع الموحدي وأبناء غانية وحلفاءهم من العرب الهلالية. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص195–198؛ النويري: المصدر السابق،435؛ ابن أبي الزرع: المصدر السابق، ص353. ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص142، وفي مصادر أخرى كان سقوط بجاية في يد بني غانية سنة581هـ/1185م؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص247؛ يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص91؛ عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج6، ص362.

[6] عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص97.

فبعد انتصار المنصور الموحدي على جيش ابن غانية وحلفائه من القبائل الهلالية 583هـ/1187م نقل جمهورهم إلى المغرب ممن له كثرة وشوكة وضواعن ناجعة.[1]

فنقل العاصم ومقدم من بطون الأثبج ومعهم بطون أخرى ونقل جشم ورياح،[2]فأنزل رياح وجشم بتامسنا البسيط ما بين سلا ومراكش أواسط بلاد المغرب الأقصى.[3]

ويبدو أن هذه القبائل التي رحلت نحو المغرب الأقصى قد اختارت الاستقرار إذ لا نقف على هجرة مضادة بل شجعت مجموعات أخرى من البطون الهلالية التي كانت بإفريقية والمغرب الأوسط إلى الالتحاق بإخوانهم والتوجه أكثر نحو المغرب الأقصى على غرار قبائل المعقل التي انتشرت بالجهات الشرقية والجنوبية.[4]

وكان من تداعيات هذه الموجة العربية أن تعربت بادية البلاد الغربية وبذلك امتد الطابع العربي مع القرن السابع الهجري/ الرابع عشر ميلادي ليشمل المغرب الأقصى.[5]

إضافة إلى مساهمة هذه الهجرة في زيادة عدد سكان المغرب الأقصى والذي أضحى به أمم لا تحصى.[6]

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص58.

(2) نفسه، العبر، ج6، ص58.

(3) نفسه، العبر، ج6، ص58.

(4) محمد المغراوي: المرجع السابق، ص105.

(5) بولقطيب: المرجع السابق، ص97.

(6) ابن خلدون: العبر، ج6، ص202.

الخـــاتمـــــة

يتضح من خلال حيثيات البحث أنه يتمفصل إلى أربعة محاور تضمنت نتائج شاملة وأخرى جزئية، هي في مجملها متمخضة عن رصد لواقع الساكنة بالمغرب الأوسط ما بين القرن الأول ونهاية القرن الثالث هجري/ السابع والتاسع الميلادي.

وما طرأ على هذه الساكنة من تحولات ومتغيرات ساهمت في إنتاج علاقات اجتماعية كان لها الأثر في طبع مجتمع المغرب الأوسط من القرن الرابع الهجري /العاشر ميلادي إلى سقوط دولة الموحدين (668هـ-1269م) حيث رصدنا في المحور الأول تجاوز الدارسة للتصنيف التقليدي للساكنة البربرية التي تجعل من البرانس أهل مدر مستقرين والبتر بدو رحل من خلال تنميط تضمن أشكالا وبنيات من التوطين القبلي والحضري بالمدن والأمصار والضواحي والديار والأرياف والمجالات هو منوط أكثر بوضع الساكنة بالمغرب الأوسط خلال القرون الثلاث الأولى من الهجرة/ 7-9م.

أين دلتنا النصوص على محافظة كبرى القبائل البربرية على بنياتها كما كانت خلال العهد البيزنطي.

وفي ضمن هذا النسيج السكاني ذي الطابع القبلي والحضري تظهر نتيجتان بارزتان: الأولى عمرانية الطابع خصها ابن خلدون(808هـ/1405م) بالقراءة الدقيقة وتتعلق بإشكالية بعد البربر عن بناء المدن والاستقرار بها حيث أوضح في ضوء ذلك أن ذلك لا يسحب هذا الواقع العمراني على كل بربر المغرب الأوسط وإنما استثنى من هذا النسيج القبلي كل من قبائل كتامة وقبائل صنهاجة منطلقا من خلفيات حضارية وسياسية متينة فقد عرفتا نظام الملك عهد البيزنطيين وكذلك استفادتها من الحضارة العربية عهد الأغالبة ناهيك على استقرارهم بالمناطق الزراعية الخصبة الأمر الذي يظهر لنا أن كثير من مدن المغرب الأوسط وحصونه هي من تأسيس بطون كتامية وأخرى صنهاجية.

حيث تأسس توطين الساكنة على ساكنة الضواحي وهي قارة خلف المدن والأمصار أي في المناطق المكشوفة أي لا تتخذ الأسوار والأبواب حيث كانت تحافظ على بداوتها

واستقلالها منذ العهد البيزنطي إلى نهاية القرن الثالث الهجري /التاسع ميلادي رغم وجود الاحتلال الأجنبي.

وإلى جانب الضواحي شكلت الديار والأرياف حيث الأراضي الواسعة والخصبة نطاقا فلاحيا مهما للساكنة الريفية والتي تميزت عن الضواحي باتخاذها المباني والمساكن وهي السمة السكانية والعمرانية التي طبعت قبائل الأرياف وقرى السهول والجبال، ناهيك عن المجلات حيث النجع والصراع بين القبائل البربرية.

أما النتيجة الثانية فتتعلق بميلاد نواة مجتمع المغرب الأوسط في القرن الثاني للهجرة / الثامن ميلادي من تيهرت إلى ما وراء تلمسان.

وفي المحور الثاني توصل البحث إلى حقيقة انهيار العصبيات البربرية الكبرى بالمغرب الأوسط وتأثرها جراء السياسة العنصرية التي اتبعتها الدولة الفاطمية وأثرها في الاضرار بنسيج ساكنة المدن والأرياف ودفعها نحو المجالات وإلى ما وراء وادي ملوية وكذلك نحو صحراء الرمل ما يعكس أحد مظاهر تعمير صحراء الرمل بالساكنة أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي.

وكان من أكثر الساكنة تضررا نسيج زناتة وكتامة وهوارة فقد أدت سياسة الإبادة والتطهير التي قادها جوهر الصقلي وبلكين بن مناد في محاولة إبادة بربر زناتة والتي أحرقت مدنها وأخرجت من أرض المغرب الأوسط سنة 361هـ/971م أي إنهاء بالكامل ملك مغراوة البدوي في المدن والضواحي والبوادي.

كما أن ذلك أجبر قبائل بني برزال ومطماطة إلى العبور نحو مدن الأندلس الأموية أين يبدأ فصل جديد من التاريخ لهذه الساكنة البربرية.

أما كتامة فقد انتهى بها الأمر إلى تلاشي عصبيتها بالمغرب الأوسط بعد أن استنزفت قوتها العسكرية في مرحلة تأسيس الدولة الفاطمية وفي تحقيق مشاريعها التوسعية ناهيك عن

هلاك كتامة في بذخ الدولة الفاطمية وترفها بعد مغادرتها أرض المغرب الأوسط واستقرارها بمصر.

أما المحور الثالث فقد تمخض من نتائجه نجاح الدولة الحمادية في إعادة ترتيب بنيات التوطين السكاني لكن نحو التركيز على الساكنة المدنية نتيجة تركيزها على إعمار المدن والحصون بعد أن كان ذلك صناعة عربية وأندلسية قبل القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي وهو ما شكل انتقالا فعليا لمجتمع المغرب الأوسط من طور البداوة إلى طور التحضر والتمدن وما اكتنفه من الازدهار شمل الحرف والفلاحة والعلوم.

بيد أن حضور قبائل بني هلال للمغرب الأوسط تبين اكتسابهم وحيازتهم للضواحي والأرياف والمجالات قد أدى إلى انحصار نفوذ الدولة الحمادية خلف أسوار المدن والحصون لكن ذلك أدى مستوى العلاقات والتواصل بين العرب الهلالية والبربر إلى إخصاب من المثاقفة في مستوى اللسان والتزاوج والعادات والزي تعرض لها البحث بالدراسة لكن الميزة في هذه المثاقفة أن الجهات الشرقية من المغرب الأوسط كانت الاطار الجغرافي المناسب لأشكال المتغيرات والعلائق بين بني هلال والبربر منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي.

بينما تأخرت أشكال المثاقفة بالمناطق الغربية إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي وهي المظاهر التي رصد البحث أسبابها وتقصى مظاهرها وضبط النتائج المتمخضة عنها.

في حين جاء المحور الرابع معالجا للمتغيرات التي مست الساكنة الهلالية والبربرية في ظل حكم دولة الموحدين وأثر ذلك في إعادة رسم الهوية السياسية والدينية واللغوية لمجتمع المغرب الأوسط ضمن مشروع الدولة الموحدية التي نجحت عسكريا في كسر قوة عصبيات القبائل الهلالية مما جعلها تميل إلى حياة الاستقرار وممارسة الزراعة كما أن تهجير الكثير

من البطون الهلالية نحو المغرب قد ساهم في انتشار القبائل الهلالية غربا ضمن المخطط الموحدي القاضي بإضعاف النسيج الهلالي بكل من إفريقية والمغرب الأوسط.

الملاحـــــق

الملحق رقم 1:

إنتاج الحبوب والفواكه وتربية الحيوانات في المغرب الأوسط من خلال ابن حوقل (القرن الرابع الهجري/ التاسع ميلادي)

المدينة	الحبوب	الفواكه	تربية الحيوانات والنحل
بونة			الغنم والماشية والدواب
عنابة	القمح والشعير		البقر – النحل
مرسى الدجاج	القمح والشعير	التين	المواشي
بني مزغناى		التين	النحل والمواشي
شرشال		فواكه وسفرجل وأعناب	
تنس		بها فواكه حسنة	
قصر الفلوس	القمح والشعير		المواشي
وهران		بها فواكه	
طبنة	الحنطة والشعير		البقر–الغنم–وسائر الكراع والنعم
المسيلة	الحنطة والشعير	الكروم	الدواب –الأغنام – البقر
تاهرت		ضروب الغلات	الدواب–الماشية – الغنم والبغال النحل
تنمسان		بها فواكه	
قرية تاتا نلوث		بها فواكه	
المعسكر		بها فواكه	

تاجنة		فواكه وتين عظيم	
الخضراء		فواكه وسفرجل معنق	
بني واريغن		كروم	
نقاوس		اللوز –الجوز –الكرم	

ابن حوقل: المصدر السابق، ص74-95.

الملحق رقم 2:

إنتاج الحبوب والفواكه وتربية الحيوانات من خلال البكري (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي)

المدينة	الحبوب	الفواكه	الحيونات
وادي الرمال		زيتون كثير	
سبيبة		بها ثمار	
تبسة		بها ثمار	
باغاية		بها ثمار	
نقاوس		بها ثمار	
مقرة		بها ثمار	
بسكرة		النخل والزيتون ومختلف أصناف الثمار والعديد من أجناس التمور	
تامديت	الحنطة		
بونة		بها ثمار	النحل والحوت والبقر
المسيلة			المواشي
الغدير		فواكه وعنب	المواشي
تنس			المواشي
تاتش		بها ثمار وسفرجل	
تاهرت		الزيت	المواشي
بنطويس		النخيل والزيتون	
مدن طولقة الثلاث		الزيتون والأعناب والنخيل ومختلف الثمار	
تهوذا		بها ثمارونخيل	

أرشقول			المواشي
أستن		بها ثمار	
تيسا		بها الفواكه والجوز	
مستغانم		القطن	المواشي

البكري: المصدر السابق، ج2، ص 227، 263.

الملحق رقم 3:

قصيدة للعرب الهلالية في رثاء أمير زناتة أبي سعدى اليفرني مقارعهم بإفريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على سبيل التهكم

تقول فتاة الحي سعدة وهاضها	له في ظعون الباكرين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفة	خذ النعت مني لا تكون هبيل
تراه يعالي وادي ران وفوقه	من الربط عيساوي بناه طويل
أراه يميل النور من شارع النقا	به الواد شرقا و اليراع دليل
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفة	قد كان لأعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا ذياب بن غانم	جراحه كأفواه المزاد تسيل
أيا جائزا مات الزناتي خليفة	لا ترحل إلا ان يريد رحيل
ألا واش رحلنا ثلاثين مرة	وعشر و ستا في النهار قليل

ومن قولهم في ذكر رحلته إلى الغرب و غلبهم زناتة عليه :

أي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم	و أي رجال ضاع قلبي جميلها
لقد كنت أنا وياه في زهو بيتنا	عناني بحجة ما غباني دليلها
وعدن كأني شارب في مدامة	من الخمر فهو ما قدر من يميلها
أو مثل شمطامات مظنون كبدها	غريبا وهي مدوخة عن قبيلها
أتاها زمان السوء حتى تلوحت	وهي بين عربا غافلا عن نزيلها
كذلك انا مما لحاني من الوجى	شاكي بكبدي باديتها زعيلها
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا	وقووا وشداد الحوايا حميلها

قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا   والبدو ما ترفع عمود يقيلها

نظل على حداب الثانيا نوازي   يظل الجري فوق النضا و نصيلها

ابن خلدون: المقدمة، ص 665–666.

الملحق رقم 4:

إنتاج الحبوب والفواكه وتربية الحيوانات في المغرب الأوسط من خلال الإدريسي (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي)

لمدينة	الحبوب	الفواكه	الحيوانات
تلمسان		بها فواكه	المواشي
قرية عين الصفاصف		بها فواكه	
يلل		بها فواكه	
تنس	الحنطة وحبوب كثيرة	السفرجل المعنق	
وهران		بها فواكه	النحل والبقر والغنم
بنو وازلفن		الكروم	
الخضراء		الكروم – سفرجل	
قرية ريغة		بها فواكها	
المسيلة	القمح والشعير	بها فواكه	الخيل والأغنام والأبقار
القلعة	الحنطة		المواشي
تيهرت القديمة		بها فواكه	النحل والبراذين والخيل والبقر والغنم
ماما	الحنطة		
برشك	الحنطة والشعير		
مرسي الدجاج	الحنطة	بها فواكه وتين	المواشي
دلس		بها فواكه	الغنم والبقر
حصن تاكلات		بها فواكه	مواشي
طنبة	الحنطة والشعير	التمر	

مقرة	بها حبوب		
نقاوس		الجوز	
قسنطينة	الحنطة والشعير		النحل والمواشي
مازونة		بها فواكه	المواشي والنحل
لمدينة	الحبوب	الفواكه	الحيوانات
بونة القديمة		بها ثمار	النحل والحوت والبقر
بونة الحديثة	القمح والشعير	بها فواكه	النحل والمواشي والبقر
بسكرة		النخل والزيتون	
شرشال	الحنطة	السفرجل والكروم	الأغنام والنحل والماشية

الإدريسي: المصدر السابق، ص 101، 154.

الملحق رقم 05:

قصيدة من قول الشاعر ابن طفيل تحث العرب الهلالية على الجهاد بالأندلس (بحر طويل):

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي و اقتناء الرغائب

وأذكوا المذاكي العاديات على العدى فقد عرضت للحرب جرد السلاهب

فلا تقتنى الامال إلا من القنا ولا تكتب العليا بغير الكتائب

ولا يبلغ الغايات إلى مصمم على الهول ركاب ظهور المصاعب

يرى غمرة الهيجاء أعذب مشرب وإن أعرضت زرقا جمام المشارب

و يأنف إلا مكسبا من حسامه و يعرض عزا عن جميع المكاسب

ألا فبعثواه همة عربية تحف بأطراف القنا و القواضب

أفرسان قيس من هلال بن عامر و ماجمعت من طاعن ومضارب

لكم قبة للمجد شدوا عمادها بطاعة أمر الله من كل جانب

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر و فيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

دعوناكم نبغي خلاص جميعكم دعاء بريئا من جميع الشوائب

نريد لكم ما نبتغي لنفوسنا ونؤثركم زلفا بأعلى المراتب

فلا تزهدوا في نيل حظكم الذي لكم فيه فوز من جميع المعطب

بكم نصر الإسلام بدأ فنصره عليكم وهذا عوده جد واجب

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658هـ/1260م): الحلة السيراء، تح حسين مؤنس، ط3، ج1، ج2، دار المعارف، القاهرة، مصر،2013م.
- ابن الأثير عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (630هـ/1238م):

الكامل في التاريخ، اعتنى به أبو صهيب، ج1 والأجزاء من 3إلى 11، بيت الأفكار الدولية، السعودية، (د ت).

- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 548هـ/1154م):

المغرب الكبير من نزهة المشتاق، تح محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر، 1983م.

- الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 346هـ/958م):

المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004م.

- البكري عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م):

المسالك والممالك، تح جمال طلبة، ط1، ج1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.

- البلاذري أحمد بن يحي بن جابر بن داود (ت279هـ/892م):

فتوح البلدان، ج1، نشره ووضع فهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د ت).

- ــــــــــــــ، جمل من أنساب الأشراف، تح سهيل زكار ورياض الزركلي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1417هـ/1996م.
- البلوي خالد بن عيسى بن أحمد (ت بعد 767هـ /1329م):

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح الحسن السائح، ج1، ج2، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، المغرب، (د ت).

- التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت 899هـ/1493م):

تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدر والعقيان، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

- التيجاني أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 717هـ/1318م):
رحلة التيجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس،2005م.
- ابن الحاج النميري إبراهيم بن عبد الله بن محمد (ت بعد 774هـ/1372م):
فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة محمد شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
- ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد القرطبي (ت456هـ/1064م):
جمهرة أنساب العرب، تح أ.ليفي بروفنسال، ط1، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 1430هـ/2009م.
- ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/871م):

فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، (د م)، 1415هـ.

- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي (ت 628هـ/1231م):

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، (د ت).

- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ)

معجم البلدان، ط2، ج1، ج2، ج3، ج4، ج5، دار صادر، بيروت، 1995م.

- ابن حوقل أبو القاسم محمد (ت 367هـ /977م):

صورة الأرض، ط1، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 1430هـ/2009م.

ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 280هـ):

المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 1889م.

- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ /1405م):

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، ج6، ج7، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983م.

طبعة دار الفكر، تح خليل شحادة، ط2، ج2، ج3، ج6، بيروت، 1408هـ /1988م.

- ــــــــــــ، المقدمة، دراسة أحمد الزغبي، دار الهدى، عين مليلة، 2009م.
- ابن خلدون أبي زكرياء يحى (ت 780هـ /1378م):

بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

- ابن خياط أبو عمرو خليفة (ت 240هـ/854م):

تاريخ خليفة بن خياط، تح أكرم ضياء العمري، ط2، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، 1397هـ.

- ـــــــــــــــ، طبقات خليفة بن خياط، رواية أبي عمران موسى بن زكريا بن يحي التستري (ت القرن 3هـ) ومحمد بن أحمد بن محمد الأزدي (ت القرن 3هـ)، تح سهيل زكار، دار الفكر، (د م)، 1414هـ/1993م.
- الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت 696هـ/1296م): معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، ط2، ج1، المكتبة العتيقة، تونس، 1413هـ/1993م.
- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ /1271م): طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، ج1، (د م)، (د ت).
- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد الرعيني (ت 1110هـ / 1699م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة، مؤسسة سعيدان، بيروت، تونس،1993م.
- الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت منتصف القرن 5هـ /11م): تاريخ إفريقية والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن 1إلى أواخر القرن 2هـ، تح المنجي الكعبي، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1426هـ/2005م.
- ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (كان حيا 727هـ/1326م): الأنيس الطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999م.
- الزرهوني الكفيف: ملعبه الكفيف الزرهوني، تح محمد بن شرفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1407هـ/1987م.

- الزهري أبو عبد الله بنّ أبي بكر الأندلسي (حي 555هـ/1160م):
الجعرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الاميال والفراسخ، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، المركز الإسلامي للطباعة، بورسعيد، الجيزة، (د ت).
- ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي ابن موسى (ت 685هـ/1286م):
كتاب الجغرافيا، تح إسماعيل العربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1970م.
- السمعاني أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت 562هـ/):
الأنساب، تح عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني وغيره، ط1، ج8، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيداباد، 1382هـ/1962م.
- الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928هـ/1521م):
كتاب السير، تح محمد حسن، ط1، ج2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009م.
- الشهرستاني أبو الفتح محمد عبد الكريم أحمد(ت548هـ/1153م):
الملل والنحل، دار الفكر، لبنان، 1425-1426هـ/2005م.
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك بن محمد الباجي (ت 594هـ/1198م):
المن بالإمامة – تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين-، تح عبد الهادي التازي، ط4، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012م.
- ابن الصباح عبد الله الأندلسي (ت القرن 10هـ/16م):
رحلة ابن الصباح المسماة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ط1، دار أبي رقراق، الرباط، 2008م.

- ابن الصغير المالكي (ت القرن 4هـ/9م):

أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1986م.

- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/923م):

تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري، ط2، ج1، ج4، ج5، ج8، دار التراث، بيروت، 1387هـ.

- العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (ت أواخر القرن 7هـ/13م):

رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تح أحمد بن جدو، مطبعة البعث قسنطينة، (د ت).

- ابن عذارى أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيا 712هـ/1312م):

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط1، ج1، ج2، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.

ج4، تح عبد الله محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.

- أبو العرب محمد بن أحمد التميمي (ت 333هـ/945م):

طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د ت).

- العمري شهاب الدين أحمد أبو فضل الله (749هـ/1348م):

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، ج4، ج27، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423هـ.

- الغبريني أبو العباس أحمد ابن أحمد (ت704هـ/1304م):

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

- أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت 732هـ/1345م):

المختصر في تاريخ البشر، ط1، ج1، ج2، ج3، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، (د ت).

- ابن القطان أبي محمد حسن المراكشي (ت منتصف 7هـ/13م):

نظام الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الزمان، تح محمود علي مكي، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011م.

- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م):

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ/1980م.

- ــــــــــــــ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).
- كربخال مارمول:

إفريقيا، تح محمد حاجي وآخرون، ج1، ج2، ج3، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1408-1409هـ/1988-1989م.

- ابن الكلبي أبو المنذر هشام بن محمد (ت 204هـ):

نسب معد واليمن الكبير، تح ناجي حسن، ط1، ج2، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، (د م)، 1408هـ/1988م.

- المازوني أبي زكرياء يحي بن موسى المغيلي (ت 883هـ/1478م):

الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح مختار حساني والزواوي كرشوش، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م.

- مجهول (عاش في القرن 7هـ/13م):

الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.

- المراكشي محي الدين عبد الواحد (ت في النصف الثاني من القرن7هـ/13م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ/ 2006م.
- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب التلمساني (ت 781هـ/1379م): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح ماريا خيسوس بيغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.
- المصمودي صالح بن عبد الحليم الايلاني: مفاخر البربر، تح عبد القادر بوباية، مؤسسة إبلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- المقري أحمد بن محمد التلمساني (1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح احسان عباس، ج1، ج4، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م.
- المقريزي أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين (ت 846هـ/1442م): البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح فردناند واسطون فيلد، طبعة جوتنجن، ألمانيا، 1847م.
- ـــــــــــ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح جمال الدين الشيال، ط1، ج1، ج2، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، (د م)، (د ت).
- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م): لسان العرب، ط6، ج4، ج5، ج9، ج11، ج14، دار صادر، بيروت، 2008م.
- المقدسي أبو عبد الله محمد بن البشاري (ت387هـ/997م):

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1431هـ/ 1991م.

- النويري أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1332م):

تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط – إفريقية والمغرب والأندلس صقلية وأقريطش – من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تح مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

- ابن وردان:

تاريخ مملكة الأغالبة، تح محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2001م.

- الوزان حسن بن محمد الفاسي (ت 947هـ/1550م):

وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983م.

- الونشريسي أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحي (ت 914هـ/1511م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والمغرب، إشراف محمد حجي، ج13، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، دار الغرب الإسلامي، الرباط، بيروت، 1981م.

- اليعقوبي أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر (ت284هـ/897م):

البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

المراجع العربية:

- إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1416هـ -1996م.

- بوتشيش إبراهيم القادري: مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين، ط2، مطبعة سجلماسة، مكناس، 2014م.
- بوريبة رشيد: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م.
- بولطيف لخضر: الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي – مقاربات منهجية–، مطبعةAGP، منشورات مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، وهران، 2014م.
- بولقطيب الحسين: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002م.
- بونابي الطاهر: التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7الهجريين/12و13الميلاديين – نشأته تياراته دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي–، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م.
- بونار رابح: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط3، دار الهدى، عين مليلة، 2000م.
- تابليت عمر: هوارة ودورها في تاريخ المغرب منذ بداية حركة الخوارج أواخر القرن1هـ /7م حتى نهاية ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد 335هـ /946م، ط1، دار الألمعية، قسنطينة، 2011م.
- التليسي بشير رمضان: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال 4هـ /10م، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2003م.
- الجنحاني الحبيب: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م.
- الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الامة، الجزائر، 2010م.
- حسن محمد: الجغرافيا التاريخية من القرن1إلى9هـ /7–15م فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

- الدراجي بوزيان: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، ج1، ج2، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.
- دغفوس راضي: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1425هـ /2005م.
- سالم عبد العزيز: المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، ج2، دار النهضة، بيروت، 1981م.
- سجيني فايزة محمد صالح أمين: غزو بني هلال وبني سليم للمغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2007م.
- السلاوي أبو العباس أحمد بن ناصر خالد الناصري (ت 1315هـ /1898م): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح أحمد الناصري، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001م.
- السليماني أحمد: تاريخ مدينة الجزائر – يتعرض إلى ماضي مدينة الجزائر من النواحي الحضارية والاجتماعية والسياسية والثقافية –، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت).
- شنيتي محمد البشير: المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- الطمار محمد بن عمرو: تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، ط6، ج1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000م.
- عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.

- بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- ــــــــــــ، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.
- غانم محمد الصغير: مقالات وأراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2005م.
- غوردو عبد العزيز وقدوري الطاهر: من تاريخ الدولة المركزية المغربية الوسطية (ابن خلدون العصبية والارتزاق – البحرية المجتمع الثقافة–)، ط1، مطبعة الهلال، وجدة، 2006م.
- فيلالي عبد العزيز: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دار الهدى، عين مليلة، 2012م.
- ــــــــــــ، العلاقة السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، دار هومة، الجزائر، 2011م.
- ــــــــــــ، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، 2014م.
- القبلي محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987م.
- قداش محفوظ: الجزائر في العصور القديمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993م.
- لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

- مجاني بوبة: المذهب الإسماعيلي وفلسفته في بلاد المغرب، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م.
- ــــــــــ، الإسماعيليون في بلاد المغرب العربي-الفكر المؤسسات والعمران-، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.
- المجذوب عبد العزيز: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية، تونس، 1395هـ /1975م.
- المغراوي محمد: الموحدون وأزمات المجتمع، ط1، جذور للنشر، الرباط، 2006م.
- موسى أحمد عزالدين: النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن 6هـ، ط1، دار الشرق، بيروت، 1403هـ /1983م.
- ــــــــــ، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ /1991م.
- ــــــــــ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، دار الشرق، بيروت، القاهرة، 1403هـ /1983م.
- النحوي الخليل: إفريقيا المسلمة – الهوية الضائعة-، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م.

الرسائل الجامعية:

- بن النية رضا: صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ -699م/362هـ -973م)، رسالة ماجستير، اشراف بوبة مجاني، قسم التاريخ والأثار، جامعة منتوري قسنطينة، 1426-1427هـ /2005-2006م.

- رحماني موسى: الأوراس في العصر الوسيط من الفتح إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (27-362هـ /637-972م)، رسالة ماجستير، إشراف بوبة مجاني، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 1427-1428هـ /2006-2007م.
- عشي علي: المغرب الأوسط في عصر الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (534هـ -1039م إلى 633هـ -1235م)، رسالة ماجستير، اشراف مسعود مزهودي، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 1433-1434هـ /2011-2012م.
- يزيز بشير: القبائل البدوية بالمغرب الأوسط من بداية الفتح إلى نهاية القرن الثاني هجري –أوربة نموذج–، رسالة ماجستير، اشراف عبد العزيز فيلالي، جامعة قسنطينة 2، 2012-2013م.

المراجع المعربة:

- بروفنسال أ.ليفي: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية،2012.
- بل ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1981م.
- جوليان شارل أندري: تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط3، ج1، الدار التونسية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.
- الدشراوي فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ /909-975م)، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1994م.

- روجي إدريس الهادي: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى 12م)، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، ج1، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992م.
- الشاذلي بويحي: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ترجمة محمد العربي عبد الرزاق، ط1، ج1، ج2، المجمع التونسي للعلوم والأداب، بيت الحكمة، تونس، 1999م.
- فاليري دومينيك: بجاية ميناء مغاربي (1067-1510م)، ترجمة علاوة عمارة، ج1، ج2، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014م.
- كامب غابرييل: البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م.
- كاهن كلود: الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة حسن جواد قبيسي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2010م.
- لومبار موريس: الإسلام في مجده الأول من القرن 2إلى القرن 5ه /8-11م، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1411ه - 1990م.

المجلات والملتقيات:

- إعيشوشن واعمر: المنطقة الريفية والحضرية في جنوب نوميديا، ملتقى وطني المدينة والريف في الجزائر القديمة يومي 6و7نوفمبر2013م، قسم العلوم الإنسانية، فرع الآثار، جامعة معسكر، مكتب الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر.
- بوشريط أمحمد: الزراعة في المغرب الأوسط الإمكانيات والخصائص، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، ع2013/4م، منشورات جامعة معسكر، مكتبة الرشاد للطباعة، الجزائر.

- بوعقادة عبد القادر: ميلاد الدولة الحمادية والمعايير المحددة لقيامها، أعمال ملتقى وطني حول الدولة المركزية لقلعة بني حماد الاشعاع الفكري والثقافي 26و27أفريل2005م، حوليات الآداب واللغات، ع2013/3م، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة.
- ــــــــــــــ، التحول المذهبي في العهد الصنهاجي وأثره على بلاد المغرب الأوسط، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م.
- بولطيف لخضر: ملاح المنظومة القيمية للمجتمع القلعي الحمادي، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م.
- بونابي الطاهر: قلعة بني حماد – التأسيس والتداعي –، أعمال ملتقى وطني حول الدولة المركزية لقلعة بني حماد الاشعاع الفكري والثقافي 26و27أفريل، حوليات الآداب واللغات، ع2013/3م، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة.
- ــــــــــــــ، ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 12/ 2011، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة.
- ــــــــــــــ، القبيلة والدولة بقلعة بني حماد، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م.

- ـــــــــــــــ، المثاقفة الصوفية بين بجاية والمغرب الأقصى خلال العهد الموحدي (علائق وتفاعل)، ملتقى دولي حول بجاية مدينة التاريخ والحضارة في 30-31أكتوبر2012م، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة عبد الرحمن ميرة ببجاية، بجاية، 2013م.
- عواطي بوبكر: الجسر المنهجي بين علم الاجتماع والتاريخ عند ابن خلدون، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع6/أكتوبر2005من قسنطينة.
- كرراز فوزية: صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازها، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م.
- بن مرزوق عبد الرحمن: تأسيس مدينة تيمقاد، مجلة التراث، ع2/1408هـ-1987م، دار الشهاب للطباعة، الجزائر.
- همال عبد السلام: هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 5هـ/11م – من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية(1830-1962)، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م.

المراجع الفرنسية:

- De beylie Léon marie Eugène: la kallaa des beni– Hammad(une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI eme siècle les presses de l'imprimerie hasnaoui ،Alger 2012.
- E, Carette : origine et migrations des principales tribus de l'Algérie, Paris, imprimerie impériale.

- Rozet,G– Carette, E: L'Algérie– l'univers au histoire et des cription de tous les peuples, leurs religions moers, etc paris, ed firnin didot, 1850.

الدوريات بالفرنسية:

- Amara Allaoua « l'animation de la façade maritime du maghreb centrale (VIII–XIII Siècle), revue lettre et scies humaine, N 6°/ ramadhan 1426–2005.
- Ernest Mercier « les Arabes d'Afrique juges par les auteurs musulmans » , en revue Africaine, vol17/,1873.
- Mequesse : « notice sur la Kallaa des Beni Hammad– étude tirée des récites des autres français et d'Ibn Khaldoun, écrivain arabe», revue Africaine, Vol 30 / 1886.

الفهـــــارس

فهرس القبائل:

حرف الألف:

حرف الباء:

فهرس الأماكن والمدن:

حرف الألف:

حرف الباء:

حرف التاء:

حرف النون:

حرف الهاء:

حرف الواو:

فهرس الأعلام:

حرف الألف:

فهرس الموضوعات:

الفصل الثالث: الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط (المتغيرات والعلائق)

الفصل الرابع: إعادة رسم الهوية الدينية واللغوية لمجتمع المغرب الأوسط عهد الموحدين

لعبت العصبيات القبلية البربرية أدوارا هامة بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سواء بمشاركتها في مختلف الأحداث والوقائع أو بتفاعلها واحتكاكها بالوافدين – العرب الاندلسيين وغيرهم –، الأمر الذي ساهم في حدوث جملة من المتغيرات والعلائق كان لها عميق الأثر في رسم الهوية الاجتماعية والدينية والحضارية للمغرب الأوسط.

فقد حافظت كبرى العصبيات البربرية على بنيات توطينها وأنماط نشاطاتها إلى غاية القرن 3هـ/9م الأمر الذي دفعنا إلى تصنيف الساكنة البربرية بالمغرب الأوسط ضمن بربر المدن و بربر الضواحي والمجالات فضلا عن بربر الأرياف .

وشكلت قبائل زناتة بفضل نفوذها السياسي وانتشارها الواسع من تاهرت إلى تلمسان الذي ورثته منذ قرون البعد الجغرافي والسياسي للمغرب الأوسط خلال النصف الأول من القرن الثاني للهجرة/ الثامن ميلادي.

في حين يمثل القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي بداية مرحلة التحولات الاجتماعية والسياسية والحضارية بالمغرب الأوسط من خلال انهيار كبرى العصبيات البربرية لا سيما هوارة – كتامة زناتة وغيرها جراء السياسة العسكرية القاسية التي انتهجتها الدولة الفاطمية الشيعية.

فكان من تداعيات القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي تربع صنهاجة على عرش العصبيات البربرية وانتقال شرائح واسعة لبربر المغرب الأوسط من طور البداوة إلى طور التحضر.

ومن النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدأ الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط ونجاحهم في حيازة أريافه وضواحيه ومجالاته ومجاورتهم لبربر المغرب الأوسط في أوطانهم وهو ماسمح بظهور ملامح العلائق والتفاعل بين العرب الهلالية والبربر على مستوى اللسان والمصاهرة والنشاط الاقتصادي والعادات والتقاليد والزي واللباس.

ولقد زادت وتيرة الاندماج الهلالي في المنظومة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية بالمغرب الأوسط والمغرب الإسلامي عموما مع قيام دولة الموحدين ونجاحها عسكريا في كسر شوكة العصبيات الهلالية من جهة واضعاف النسيج الهلالي بالمناطق الشرقية من جهة أخرى إضافة إلى محاولة الموحدين طبع مجتمع المغرب الأوسط بطابع مشروع الخلافة الموحدية .

الكلمات المفتاحية:

القبيلة – المغرب الأوسط – صنهاجة – بنو هلال – زناتة – الموحدين.

Les tribus berbères ont marqué durant le moyen âge le Moyen Occident de par la participation aux différents évènements ou par l'interaction avec les expatriés Andalous et Arabes ou autres. C'est en effet ce qui a induit à une évolution et des relations ayant un grand effet sur l'identité sociale , religieuse et civilisationnelle du Moyen Occident.

Ces tribus ont pu sauvegarder leurs infrastructures et leur train de vie jusqu'au 3ème siècle de l'Hégire/9ème siècle Après J.C, ce qui nous a permis de cataloguer les habitants berbères du Moyen Occident en citadins, banlieusards, nomades et ruraux.

Grâce à leur influence politique et leur étendue géographique de Tahart à Tlemcen qu'elles ont héritées de leurs pères, les tribus de Zenata ont constitué depuis des siècles la dimension géopolitique du Moyen Occident durant la première moitié du 2ème siècle de l'Hégire/8ème siècle Après J.C.

Tandis que le 4ème siècle de l'Hégire/10ème siècle Après J.C constitue le début de l'évolution sociopolitique et civisationnelle au Moyen Occident de par la diminution de la démographie des tribus berbères entre autres Houara, Kotama, Zenata à cause de la politique militaire rude que l'Etat Fatimide Chiite.

Parmi les conséquences du 4ème siècle de l'Hégire/10ème siècle Après J.C, la prise du pouvoir des tribus par Sanhaja et le changement d'une grande partie du Moyen Occident du nomadisme à l'urbanisme.

Les Hilaliens sont arrivés au Moyen Occident durant la deuxième partie du 5ème siècle de l'Hégire/11ème siècle Après J.C, ont réussi à acquérir ses compagnes et banlieues et se sont établis à côté des berbères du Moyen Occident. Par conséquent, des relations et des interactions se sont révélées au niveau de la langue, le mariage, l'économie, les coutumes, les traditions et les habits.

L'intégration des Hilaliens dans le système social, religieux, économique et politique du Moyen Occident et le Maghreb Islamique s'est accélérée avec l'avènement de l'Etat Almohade et son succès militaire qui a brisé le pouvoir des Hilaliens d'une part et a affaibli l'autorité Hilalienne dans les régions de l'Est d'autre part. De plus, Les Almohades ont tenté d'imprégner la société du Maghreb Occidental au projet de succession des califats Almohade.

Mots-clés:

La tribu - Moyen Occident – Sanhaja – les sils de helal – Zenata - Les Almohades.

Berber tribal partisanship played important roles in the middle Maghreb during the middle ages, whether by its participation in various events and facts, or by its interaction and friction with the arabs and the Andalousians arrivals and others, which contributed to a lot of changes that had a profound impact in shaping social, religious, and civilizational identity of the middle Maghreb.

Grand berber partisanship conserved the structures of its indigenzation, and the patterns of its activities until the third century A.H/ THE ninth century A.D which led us to rating Berber population in the middle Maghreb within Berber of the cities, suburbs areas and countryside.

Zenata tribes, thanks to their political influence, and broad spread from Tiaret to Telemcen, which inherited centuries ago, formed the geographical and the political dimension of the middle Maghreb during the first half of the second century A.H/ eighth century A.D .

The fourth century A.H / tenth century A.D marks the begining of social,political, civilizational of phase shifts in the middle maghreb through the collapse of major Berber partisanship, especially Houara ,Zenata, Koutama and others by the harsh military policy persued by the Shiite Fatimid state.

It was the fallout of the fourth century A.H/tenth century A.D that sanhaja sat on the throne of Berber partisanship and the

transmission of large segments of Berbers of the middle Maghreb from Nomadism stage, to urbanization stage.

From the second half of the fifth century A.H/ the eleventh century A.D, the Hilali attenee started in the middle Maghreb and their success, their proximity of the Berber of the middle Maghreb at home. This allowed the emergence of features of the relationship and interactions between the Arabs and the Berbers on the language level and mariage, economic activities, customs, traditions, uniforms and clothes.

Hilali integration pace, has increased in the social, religious, economic and political system in the middle Maghreb and the Islamic Maghreb. Generally with the mouahidin state and its military success in defeating of its Hilali tribes and weakening the hilali authority in eastern religions; on the other hand, the try of the mouahidin printing society of the Maghreb with the project of the Mouahidin succession.

key Words:

The tribe- the middle Maghreb- sanhaja- sons of helal- Zenata- the Mouahidin